رواية

برّ الدناكل

الغربي عمران

نوفل

رواية

برّ الدناكل

الغربي عمران

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2021 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2021
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **© Irina Orwald / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-926-3
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-927-0

بائعة الريحان

54

جلس شَنّوق عاريًا إلّا من نافذة أمامه، يتابع حركة أحد الأزقة العميقة بين صفوف الدور، متمتمًا: ستظهر الآن، فقد حان موعد وصولها! يرفع ناظريه متأمّلًا أفقًا كهرمانيًا يحتضن جبال صنعاء البعيدة. تسحره واجهات الدور العتيقة، أسراب الحمام تلوب قبل هبوط الليل، بهاء قباب المساجد ومناراتها الباسقة. غاص قرص الشمس خلف شفاه الجبال العالية، لتبهت الألوان، وتماهت زخارف المنارات «الياجورية» وواجهات الدور، لحظتها ارتفع صوت مؤذّن الحيّ، صديقه طنهاس، الذي يميّز سعادته عن حزنه من خلال نبرة صوته، قدَّر أنّها لن تأتي، عاد يتسلّى بمضغ وريقات القات، مشغولًا بمراقبة تدفّق ذرّات المساء الهابطة من شاهق الجبال، لتحيل دُور المدينة إلى كتل معتمة إلّا من ثقوب أضواء خجولة هنا وهناك. تنصهر الملامح المحيطة رويدًا رويدًا، لتتحوّل إلى أشباح غامضة. يواصل مضغ قاته محاولًا الحفاظ على طيب مزاجه، تباغته لفحة برد عبر النافذة، يشاهد أزقة المدينة تؤوي قوافل الريح العتيقة، يتمتم: لقد فات موعد غزال ولن تأتي بعد الآن! يغلق نافذته مصاحبًا ظلمة المكان.

يُجيل شنّوق ناظريه في عتمة غرفته، يعرف مواقع الأشياء: طاولة قصيرة أمامه عليها جهاز اللابتوب، وإلى جواره باقة أغصان قات لُفّت بمنديل مُبلّل، «متفل» معدني تحت الطاولة، ونارجيلة قصيرة يمتدّ خرطومها حتى فمه، يومض جمرها بين وقت وآخر، إلى شماله متّكأ غزال فارغًا، وإلى يمين الباب شمّاعة شُنقت عليها ملابسه، وأعمدة كتب متجاورة تستند إلى إحدى الزوايا.

بعد وقت، عاود صوت صديقه مؤذّنًا لصلاة العِشاء، تمتم بنزق: سأقضي ليلتي وحيدًا!

تعوّد أن يعيش ظلمة لياليه، مستمتعًا بعريه، يحفظ زوايا سكنه عن ظهر قلب، أمام باب غرفة مقيله موقد نحاسي، يتشامخ وسط حجرة تتوسّط بقيّة أبواب الغرف، يقلّب الجمر لينعكس وهجه على ملامح وجهه الكبير، يلتقط عدّة جمرات ويعود إلى متّكئه مواصلًا ليلته وسط ظلمة يأنس إليها.

لا يستقبل أحدًا في سكنه. غزال هي الاستثناء. فتاة في العشرينات تعرّف إليها عبر النت، هو من كان يفضّل الأربعينيات، جاءته هذه لتغيّر كلّ إيقاع حياته. تتسلّل خلسة بين ليلة وأخرى إلى سكنه في الدور الرابع لتشاركه ما شاء لها ثمّ تغادره. كذلك يزوره صديقه طنهاس، زوج الشريفة وإمام مسجد الحيّ، يأتيه في ليالي الجُمع، يدير المفتاح بعد عودته من إقامة صلاة العشاء، ليشاطره مضغ القات ورشفات من دموع الأسد، أو المُكَحّل كما يحلو أن يطلق عليه، ثمّ يصعد إلى الدور الخامس، حيث تنتظره زوجته الشريفة مالكة الدار، كي يقضي ما بقي من ليلته، تتأبّط قامته القصيرة صاعدة به سلّم «طيرمانتها» العبقة بروائح البخور، وكؤوس نقيع الزبيب وأطباق أخرى تخصّ ليالي الوصال، وهي تلبس الشفيف، موقنة بأنّ ذلك يثير بقايا مكامن فحولته، ثمّ إنّ نوافذ الطيرمانة مطلّة على الجهات الأربع، ومنظر ليل صنعاء يرفع من نشوته.

يستمرّ شنّوق متماهيًا مع ظلمة سكنه، متلذّذًا باستحلاب أوراق قاته. وليزيد من وجده، يحتضن جهاز «اللابتوب»، باحثًا بأصابعه عن أزرار التشغيل، ما يلبث أن ينعكس ضوؤه على عينيه الجاحظتين ووجنتيه المكوّرتين. يبتسم لظهور صفحته على الفيسبوك «ابن الحاج»، بصورة قطّ ذي عينين زرقاوين، يعرّج بعدها على صفحة غزال، لتظهر قبّة خضراء، وجملة كُتبت بالخطّ الكوفي: «حسبي الله ونعم الوكيل». يدعك تكويرة خدّه بتلذّذ، ويرقن إليها: «يا عيباه، ليس من عادتك أن تخلفي الموعد. أتمنّى أن يكون المانع خيرًا»، ثمّ يضغط زرّ الإرسال، متمنّيًا استجابتها فيقضيا الليل في دردشة إيروسية، انتظر قليلًا، ثمّ أضاف: «أنتظر ردّك فلا تتأخّري»، وشغل نفسه باستعراض رسائل قيد الانتظار. تستهويه رسائل «قطط الفيس»، صفة يطلقها على البنات، إلّا أنّ ما تربكه هي تلك الأسماء المستعارة، تلك التي يتعامل معها بحذر شديد، وبحسب تجربته، فإنّ من يتخفّين خلف واجهات قرآنية هنّ الأكثر شبقًا، بدوره يصنّفهنّ إلى مجموعتين: قطط وديعة، وقطط مخربشة. لكنّ ما يخيفه فعلًا،

هو تخفّي بعض الـ«جحندلات»، كما يحب أن يطلق على فئة الذكور ذوي الأسماء الأنثوية، فما إن يكتشف أحد هؤلاء حتى يسارع إلى حظره. هذه الليلة لفتت انتباهه رسالة جديدة من شخص كتب اسمه «Adel». حكّ أنفه محاولًا تذكّر الاسم. وحين لم يتذكّر فتح الرسالة: «أخيرًا وجدتك! شكرًا للمستر مارك، أنتظر ردّك!».

توقّف فكّه الضخم عن هرس القات، أعاد قراءة الكلمات القليلة، لاك تلك الأحرف: a. d. e. l، ليست لديه معرفة بأيّ لغة غير العربية، انتقل إلى صفحة المرسل، الصورة العامّة منظر طبيعي، أفق بحري مفتوح على سحابة قطنية وحيدة. أمّا تلك الشخصية، فغراب يحلّق وحيدًا. بحث في خانة المعلومات الشخصية لعلّه يجد خيطًا يوصله بصاحب أو صاحبة الصفحة، لكنّه لم يجد منشورات ولا أصدقاء، فقط صورًا مكرّرة لشواطئ، وقوارب صيد، وسواحل رملية طويلة، خمّن أن يكون المرسل صيّادًا، بحث في بياناته المخبّأة، لا شيء! تضاعفت حيرته، وتساءل: يا ترى، أيكون المرسل جحندلًا أم قطّة؟

قطع بحثه دويّ هائل عنيف هزّ الدار! خُيّل إليه أنّ الجدران تصدّعت وانهارت. نهض مذعورًا بعريه قاذفًا ما بين يديه، تعاقب الدويّ يصمّ مسامعه، فتح نافذته، ارتفع صراخ هلع من الدور المجاورة، ومن بعيد لمع وميض باهر يصبغ واجهات الدور بألوان ناريّة، هدير يتعالى. ظنّ أنّ نيازك فضائية تدُكّ صنعاء. خطا في ظلمته يدفعه الخوف من المجهول، لم تعد الأشياء في أماكنها، محاولًا إيجاد موطئ قدم لخطواته، خرج إلى حجرة الموقد النحاسي، وقد تبعثر جمره أرضًا. ظلّ يبحث عمّا يستر عريه. فتح باب سكنه، ورأى سلّم الدار مكتظًا بأشباح كائنات صاعدة وأخرى هابطة، بكاء أطفال وعويل متداخل. وقف متردّدًا أمام وجوه نسوة بعيون فزعة، ثمّ شقّ طريقه صاعدًا خلف الصاعدين، متجاوزًا سلالم الدور الخامس ليصل إلى سطح اكتظّ بالنواح. هي المرّة الأولى التي يرى فيها «طيرمانة» صاحبه وقد تربّعت على أعمدة قاتمة. وقف في الأطراف يتابع الزحام مشغولًا بمتابعة هالات الانفجارات، وتصاعد اللهب في الأحياء البعيدة لصنعاء، لينعكس وميضه على جروف الجبال المحيطة، وواجهات الدور والمنارات العتيقة.

بعد حين سمع نعيق طائرات عابرة، ما لبث أن لاحقها رصاص مضادّ من قمم الجبال المحيطة، ترتفع خيوطها الملتهبة لتعود ممطرةً أسطح المدينة

وشوارعها رعبًا، يتصاعد دويّ متجدّد، ترتجّ له أحياء صنعاء، ويكسو السماء بهالة كهرمان.

يرتفع صوت زوج الشريفة من أعلى سلّم «الطيرمانة» بحماسة: «الله أكبر، الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، الخزي لآل سعود، النصر للإسلام»، ليردّد من في الأسطح «الله أكبر»، ملوّحين بقبضاتهم باتّجاه السماء، إلى أن رأى الفرانصي جاره يردّد مع الموجودين بحماسة واضحة.

53

ظلّ شنّوق منزويًا يتابع ما حوله برهبة، متواريًا حتى لا يراه الفرانصي، لتحضره ذكريات نهار جمعة بعيدة، حين وقف الفرانصي أمام باب مسجد الحيّ، مرتديًا بزّة عسكرية ذات ثلاث نجوم. المصلّون يخرجون وهو يردّد صارخًا: «أيرضيكم وجود أعزب في دار تسكنها عوائل؟!» بينما تجمّع من تجمّع حوله ينتظرون زوج الشريفة، مطالبين إيّاه بطرد شنّوق من الدار. التفتوا لحظتها يتأمّلون شنّوقًا وكأنّهم يكتشفونه بينهم لأول مرّة، بطوله الفارع ووجهه المستطيل، بينما ظلّت نظراته تحرث الأرض، لا يعرف ما عليه فعله. خرج زوج الشريفة طنهاس، بقامته القصيرة وثيابه البيضاء، يتأمّل متعجّبًا تجمّعهم. أشار الفرانصي هائجًا باتّجاه طنهاس: «أيرضيكم يا حاج بقاء هذا الأعزب بيننا؟!».

تنحنح طنهاس يجيل النظر في وجوه من حوله، مسح أطراف لحيته ناظرًا في عينَي شنّوق، محاولًا تخفيف شيءٍ من اضطرابه، ثمّ التفت باتّجاه الفرانصي مبتسمًا: «يا سبحان الله عليك يا فندم فرانصي». صمت يتأمّل في وجوه من تجمّعوا، ثمّ أردف: «بدلًا من رفع ابتهالاتكم إلى الله أن يتقبّل صلواتكم، تأتمرون بطرد جارٍ لكم!».

صمت سائرًا بقامته القصيرة وسط المتجمّعين، مدركًا وقع كلماته عليهم، ثمّ أردف بصوت هادئ، مشيرًا إلى شنّوق: «هذا جاركم الخمسيني لم نسمع عنه أيّ مثلبة منذ سكن بيننا، فعلامَ تريدون طرده؟». عاد إلى صمته قليلًا مانحًا عقولهم بعض الوقت لفهم مغزى كلماته، ثمّ تابع بصوت أعلى: «هيّا انصرفوا إلى دوركم يغفر لكم الله، ولا تعودوا لما يغضب الله ورسوله».

تفرّق الجميع وبقي الفرانصي يهامس طنهاس بصوت منكسر: «لا نريد أذيّة أحد، لكن...».

لكنّه قاطعه: «تذكّر النبيّ الذي أوصانا بسابع جار، كان الأولى بك أن تتّقي الله، وأن تقتدي بنبيّ الهدى».

ثمّ أمسك بذراعه يخطو به نحو باب الدار هامسًا: «ألم يكن من الأولى أن تشاورني بما يعتمل في نفسك قبل أن ترفع صوتك بالحديث أمام الناس؟».

الجمعة التالية فاجأ طنهاس صديقه بتخصيص خطبته لتبيين حقّ الجار على جاره، مستشهدًا بلمحات من سيرة الرسول وأحاديثه المتعدّدة.

ويتذكّر شنّوق أنّ صاحبه قال له ناصحًا في أول مسامرة له بعد تلك الجمعة: – عليك تجنّب منتسبي الأمن.

قاطعة بعصبية:

– لكنّي لم أحتكّ بالفرانصي قطّ!

– من اليوم خذ حذرك، واعرف أنّه قد وضعك ضمن حساباته.

– لم أكن أعلم أنّه عسكري، حتى فوجئت ببزّته!

– العسكري متسلّط بطبعه، يبحث عن ضحيّة ليثبت وجوده، فما بالك وهو في قسم ملاحقة المشتبه في معارضتهم للنظام.

– لكنّي لم أعارض أحدًا.

– أعلم أنّه حين يظهر ببزّته يكون قد أضمر شرًّا بأحدهم.

– لن يراني بعد اليوم!

– المشكلة أنّه قد لفت انتباه الجميع إلى وجود أعزب بينهم، وبذلك من اليوم سيترصّدك الجميع.

– وما العمل؟

– عليك أن تظهر بمظهر التقيّ.

– كيف؟!

– لا يكفي حضورك في صلاة الجمعة، بل واظب على الصلوات الخمس في المسجد.

– أتعني أن أنتظم في المسجد!

– الناس يا صاحبي تسيّرهم ظواهر الأمور.

– هذا صعب.

ابتسم الحاجّ مربّتًا كتفه:

– أقلّها صلّ الفجر حاضرًا، وبذلك تكسر عيونهم.

– مقدور على الفجر.

– وأنبّهك من الوقوع في أبسط زلّة، فكما قلت لك لقد وضعك الفرانصي هدفًا للجميع.

– صدق الشاعر حين قال:

«العسكري بليدٌ للأذى فطنٌ / كأنّ إبليس للطغيان ربّاه»

صمت يحاول إخفاء قلق يغزو ملامح وجهه الكبير.

يتذكّر أنّه منذ ذلك اليوم قد قنّن حركته فلم يعد يحتكّ بأيّ من سكّان الدار. حتى الفرانصي لا يراه إلّا نادرًا، فهو في غياب دائم، وإن ظهر فليوم أو يومين، يختفي بعدها من جديد. في البداية ظنّ شنّوق أنّه يعمل في التهريب، لكنّه بعد أن فاجأه ببزّته العسكرية، عرف أنّ غيابه كان لتنقّله في مهمّات سرّية لملاحقة من يستهدفه.

من ذلك اليوم بدأ طنهاس يثني على ورع شنّوق وأمانته أمام سكّان الحيّ. هو يعرف أنّ لحديثه أثرًا على مستمعيه، فهو زوج الشريفة مالكة أعلى دور الحيّ، المنتسبة إلى فاطمة الزهراء بنت النبيّ، وجدّها لأبيها كان من رجال الإمام أحمد المقرّبين. في الوقت نفسه، هو إمام وخطيب المسجد، الذي يؤمّ المؤمنين في الصلوات الخمس. فدومًا ما يظهر معتمرًا عمَّته البيضاء، وقفطانه المخملي الأسود، المزيّنة أطرافه بخيوط مذهّبة، شادًّا سامعيه بصوته الذي يتعمّد رخامته، وكلماته المنتقاة، وهو أيضًا كاتب عقود النكاح، وصكوك البيع والشراء لسكّان الحيّ، والمتحدّث في الأعراس، والواعظ في المآتم، ومنشد الموالد، وسارد مظالم آل البيت. وفوق كلّ ذلك هو صاحب وجاهة بحكم منصبه مديرًا عامًّا للإرشاد في وزارة الأوقاف.

ظلّ شنّوق يستعيد ذكريات تلك الأيّام حتى قطع عليه صراخ من في السطح ما كان يفكّر فيه. تنبّه إلى ما يدور، ليرى الجميع يتدافعون حول صبيّ ممدّد بين سيقانهم. كان ذلك الصبيّ «تاج الدين» ابن الشريفة وأصغر أولادها بعد ثلاث بنات. هرع الأب من سلّم طيرمانته مفزوعًا لتسقط عمّته البيضاء. رأى رأس ابنه ينزف دمًا غزيرًا، وقد اتّسعت بقعة الدم تحت كتفه، بعدما تشبّع به شعره وملابسه.

زاد العويل وعمّت الفوضى بعدما عرف الجميع أنّ رصاصة اخترقت جمجمة الصغير. فرّ البعض خوفًا من رصاص السماء، بينما ظلّ جمع من النسوة حول الشريفة بعد صعودها، ما إن رأت ابنها حتى هوت راكعة بجسمها الرجراج، تلطم نائحة. سارع من حولها إلى منعها من تمزيق ثيابها.

يتابع شنّوق ما يدور بخوف ورهبة، وهو يرى وجه زوجة صاحبه بشعرها المتناثر لأول مرّة، دمعت عيناه لنواحها الحزين. بعد برهة تمدّدت جوار صغيرها فاقدة الوعي، يلوب زوجها كمن فقد الحيلة، ثمّ يركع حاسر الرأس حاملًا ابنه، هابطًا بقامته الضئيلة تتبعه نسوة يحملن الشريفة. اختلطت الولولات بصريخ الصغار الذين تطأ أقدامهم قطرات لزجة على أحجار السلّم. ولم يطل تاج الدين حتى أسلم الروح.

52

عاد شنّوق ليقضي بقيّة ليلته خلف نافذته المشرعة، تغمره ظلمة حالكة إلّا من وميض وهزيم الانفجارات المتعاقبة، يفكّر أن يكون إلى جوار صديقه في مصابه، تذكّر كره الجميع، الشريفة، سكّان الدار. عادت به ذاكرته إلى تلك الأيّام، وإلى عبارة ما زالت عالقة حين قال له صاحبه في إحدى مسامراتهما: «الناس يثنون على استقامتك، بعد أن درجوا على رؤيتك بين صفوف المصلّين عند الفجر».

لكن لم يكن لأحد أن يعرف الوجه الآخر لذلك الشخص الوديع المستكين. كلّ ما يُعرف عنه أنّه يعيش وحيدًا، ويحرص على مشاركتهم صلاة الفجر. ولا يعرفون الوجه الآخر، توجّسه من كافة الناس، يقضي أوقاته وحيدًا، مستلذًّا بسكينته تلك، متحرّكًا في أنحاء سكنه كخفّاش من دون إشعال أيّ ضوء. يقضي شطرًا من لياليه ماضغًا وريقات القات، وإلى جواره نارجيلته القصيرة، مستمتعًا بروائح دخانها، متنقّلًا بين مواقع وصفحات النت، باحثًا عن «قطط الفيس»، مفضّلًا الصنعانيات منهنّ، اللواتي يستطيع إغواءهنّ من دون عناء، ولا سيّما الأربعينيات منهنّ، فعادة ما يجدهنّ مهجورات، والكثير منهنّ تنتابهنّ مراهقة متأخّرة، صبورات، قليلات الطلبات، ذوات خبرة وإخلاص. فضلًا عن قدرتهنّ على تدبّر أمكنة لاستضافته ليلة أو أكثر، وبذلك يبعد وكره عمّا يجلب له مشاكل لا تُحلّ. في الوقت الذي لا يقدّم فيه لقطط الفيس أيّ معلومات عن نفسه، بينما يسعى إلى معرفة كلّ شيء عمّن تحاوره منهنّ: عمرها. تعليمها. عملها. حالتها الاجتماعية. أفكارها. كما يجدّ في الحصول على أحدث صورها. يختار بعدها للقياها أحد الأسواق الشعبية، تلك الأماكن المكتظّة بالباعة والمتسوّلين. يصل قبل الموعد كي يرقب وصولها. يتأمّلها، متفرّسًا

حركاتها وسكناتها، ثمّ يقرّر بعد ذلك إن كانت كما وصفت نفسها. وإن لم تكن ينصرف قاطعًا التواصل بها.

ودومًا ما يعتمد بداية تواصله على النت أسلوب الحديث العامّ، مترفّعًا عن الكلام المبتذل، ثمّ بعد ليالٍ ينتقل إلى أحاديث الذات، مبديًا معرفة واسعة ومعرفة متنوّعة بهدف إدهاش القطة. حتى إذا ما اعتادت تواصله الدائم، يبدأ بهدم جدران صنعها، منتقلًا إلى الحديث عن الاهتمامات المشتركة، والهوايات الممتعة. ثمّ تأتي خطوة الحديث عن الميول والهموم. وأخيرًا، ينطلق مسهبًا في ما يثير غرائزها، ويحرّك نوازعها. ولليالٍ يستمرّ في إذكاء رغباتها، حتى يصل بها إلى ذروة متعة تشتهيها، بعدها تكون الطريق قد مُهّدت للقياها.

يتذكّر أنّ غزال كانت مغايرة عن كلّ من اصطادهنّ من قبل. فهي من كسَّرت قواعده: فلم تمكّنه من معرفة سنّها، أو مهنتها، أو حالتها الاجتماعية، ولم تزوّده بصورة لها. تلك المعلومات التي كان يقرّر بموجبها اللقاء من عدمه. وما كان يشدّه إليها غموضها، ليُصدم يوم لقياها بأنّها في بداية العشرينات، كما أنّها غير ممتلئة كما يفضّل أن تكون من يعاشرها.

لا يعرف كيف غيّرت قواعد اللعبة، وأنّها بداية تواصله بها من أخذت تستجوبه، وعلى غير عادته انقاد: – هل لديك رقم هاتف حتى أسمع صوتك؟

– ليس لديّ هاتف.

– هل من صورة لك؟

ليصمت قليلًا، ثمّ يجيب:

– ولا صورة!

– لكنّي لا أعرف عنك شيئًا.

– ولا أنا أعرف عنك شيئًا!

– إذن حدّد موعدًا لنلتقي ونتعارف بعدها.

بعد تلك الحوارات، فكّر أن يقطع تواصله بها، لكنّها ظلّت تكرّر عليه: – لماذا تتردّد؟

يبقى صامتًا لتحثّه: هاه، أما زلت معي؟

– نعم معك، كنت فقط أفكّر!

– فيمَ تفكّر، أليس لديك رغبة لتلتقيني؟

– بلى، لكن.

– جرّب، لن تخسر شيئًا.
توقّف مرّة أخرى عن الردّ، ثمّ كتب: – أترك لكِ أن تحدّدي أحد الأسواق!
– هل يناسبك سوق قاع اليهود؟
أعجبه اختيارها، ليردّ:
– نعم يناسب.
– إذن بعد ظهيرة الغد، ستجدني وسط صفّ بائعات الخبز.
– إذن أنت خبّازة!
– لا، لكن كيف أميّزك بين المارّة.
– أنا من أطلب منك أن تصفي لي نفسك لأهتدي إليك.
– أفضّل أن تصف لي هيئتك أنت.
توقّف يتساءل: لمَ أنا مُسيّر لها؟! ليجد الإجابة لصدى تساؤله: ما الضير إن جرّبت؟ كتب: – لي قامة طويلة، أعتمر طاقية سوداء تغطّي نصف جبهتي، ولتميّزيني، دومًا أكرّر حكّ حنكي بأصابع كفّي اليسرى.
يتذكّر وصوله إلى أطراف السوق، راضيًا بأن يمثّل دور الطريدة لأول مرّة. اخترق زحام باعة الخضار والفواكه حتى وصل إلى رصيف بائعات الخبز، أخذ يستعرضهنّ واحدة بعد الأخرى، ناقلًا ناظريه بين أطباقهنّ ووجوههنّ، تلك العيون الطالّة من خلف خُمُرُهنّ. ترحّب به إحداهنّ كمشترٍ محتمل، تلوّح ثانية بكفّها المنقوشة بالحنّاء بطريقة تلفت انتباهه، وثالثة تريه أقراصها، ورابعة تحرّك طبقها المليء بخبز رُشّ بحبّة البركة. عيون إحداهنّ ترسل ابتسامة فاردة ستارتها الملوّنة في حركة لجذبه، يبتسم بوجهه الكبير، حاكًّا حنكه لعلّ من يبحث عنها تستدلّ عليه. ثمّ يداري وجهه خجلًا لشعوره بالخيبة، تشاكسه إحداهنّ بصوت يصله إلى طرف صفهنّ: هل ضيّعت شيئًا يا طويل؟
يلتفت مبتسمًا ظنًّا منه أنّها هي، ويعود باتّجاهها مكرّرًا حكّ حنكه، حتى يقف أمامها، لترفع إليه طبق خبزها: – القرص بمئة ريال.
يقترب بوجهه الكبير هامسًا: – أنا شنّوق!
تنظر إليه غامزة بإحدى عينيها: – وما لي ولاسمك!
ترنّ ضحكات جاراتها. يدرك أنّه على مرمى من سخريتهنّ، يتراجع، يقف متوسّلًا إيّاهنّ بعينيه، واحدة تلو الأخرى. فجأة يدهمه الإحراج، يمضي لاعنًا نفسه لشعوره بعبثية ما يفعل.

51

يتذكّر تلك الرغبة التي قادته لأن يعود للبحث عنها. يقرّر أن يؤدّي دور الصيّاد يومها، وما إن دخل زحام السوق، حتى توارى خلف نهر العابرين، يراقب صفّ بائعات الخبز من خلف غابة الجموع، واحدة تلو الأخرى، توقّع أن تبدأ من واعدها بالالتفات باحثة عنه بين القادمين، ظلّ يرقب حركات أيديهنّ، نظراتهنّ، لفتاتهنّ. بعد وقت لاحظ إحداهنّ تحرّك عنقها يمينًا وشمالًا بقلق. تزايد نبض قلبه مبتسمًا، وشعر بالرضى يغمره. تمتم: قد تكون هي.

تسلّل باتجاهها. راقبها وقد زادت حركاتها. تيقّن من أنّها هي. اقترب بحذر أكثر، تعجّب من أنّها ليست من بائعات الخبز، وقد احتضنت بين فخذيها سلّة ريحان ولزّاب وزهور الزعفران. التفتت لتلتقي عيناه بعينيها الواسعتين، كانت أصغر ممّا توقع، وقد لفته قدّها الناحل بستارة هندية ملوّنة، صدمته تلك المفاجأة، ركع أمام سلّتها يقتعد عرقوبيه. لاحظ رعشة كفّيها، وهروب عينيها إلى من حولها، التقط باقة صغيرة، سألها: – بكم «مشقُرِك»؟

تصنّعت عدم الاهتمام، بينما ظلّ مركّزًا على صفاء عينيها، لتزداد رعشات رموشها، دون أن ترفع ناظريها إليه. تيقّن لحظتها بأنّها هي. أردف بصوت هادئ: – لم تجيبيني، بكم مشقُرك؟ انتظر عودة عينيها إليه، ثمّ هامسها: إذن أنت غزال.

ردّت بهمس مضطرب:

– نعم أنا هي، هيّا اذهب، وعد قبيل أذان العصر.

ثمّ عادت متشاغلة بترتيب محتويات سلّتها. بينما ظلّ أمامها يحاول إضافة كلمات أخرى، لكنّ همسها عاود: – أرجوك انصرف.

نهض بشعور المنتصر، وأخذ يسير متسائلًا: هل أعود أم أتركها وصغر سنّها؟

جال دون هدى حتى وجد نفسه مع أذان العصر يعود مرّة أخرى. كانت معظم المحالّ قد أغلقت، وتعرّى قاع السوق وأرصفته باستثناء مخلّفات الفاكهة والخُضر. قلّة من المارّة وبعض باعة الزوايا ركنوا إلى جدران ظليلة يمضغون القات، ولم يبقَ سوى صفّ صناديق متهالكة كانت بائعات الخبز يجلسن عليها.

رأى سلّة الريحان وحيدة على الرصيف، تعجّب متلفّتًا لعلّه يلمحها هنا أو هناك، لام نفسه على تأخّره، اقترب، لم يبقَ سوى قليل من المشاقر في قعر سلّتها، فجأة ظهرت تهرول نحوه بخطوات متعثّرة، جثت أمامه دامعة، بينما عيون من بقوا تتّجه نحوهما، أمسكت بمعصمه هامسة بصوت جريح: أرجوك خذني بعيدًا من هنا.

50

متشبّثة بذراعه يسير بها خارج السوق، عبرا شارع باب البلقة، هبوطًا نحو شارع جمال حتى حاذيا المتحف الحربي. عندها، نظرت إلى وجهه مبتسمة: – والآن إلى أين تريد أن تأخذني؟

أدهشه تغيّرها، تردّد، ثمّ حزم أمره وقال لها: – أستودعك الله، أنتِ الآن أحسن حالًا.

التفتت إليه متعجّبة وقالت، بمرح غير متوقع: – ألا تريد أن أرافقك؟

– لا!

– فلماذا إذن أتيت إلى السوق؟

– ...!

– وتلك الليالي التي قضيتها في مسامرتي على الفيسبوك!

وقف محتارًا وكأنّه أمام اختبار لم يستعدّ له، ثمّ استدار دون أن يتفوّه بكلمة ومضى مبتعدًا عبر باب السبحة، ثمّ عبر أزقة الأحياء القديمة، ليفاجأ بها تتبعه. ظلّ صامتًا يعاتب نفسه: أيّ ورطة زججت نفسي فيها، وأيّ شهامة تدّعيها مع فتاة صغيرة؟

ظلّ يسير مرتبكًا. حاول تتويهها بالسير في أزقة متفرّعة، لكنّها ظلّت تجدّ في إثره. قاربت الشمس على المغيب، تمتم: لن أدع هذه الفتاة تلهو بي. وقف وسحبها جانبًا، ينظر في عينيها صامتًا، سألته: – ماذا بك؟

– أريدك أن تذهبي في حال سبيلك، أنت ما زلت صغيرة.

قاطعته هامسة:

– من في مثل سنّك يلهثون وراء الصغيرات، وأنت تتمغنج!

– وأنت تلهثين خلف من؟

ابتسمت ناظرة في وجهه: – حين تصل بي إلى سكنك ستعرف.

عاود السير يفكّر في ما هو فيه، وبعد تردّد قرّر أن يكسر القاعدة، اخترق أزقّة يعرفها، ولم يمض وقت حتى كانا في الحيّ الذي يسكنه. اقترب بها من الصرحة الواسعة المتوسّطة لدور الحيّ، بدأت العتمة تهبط وقد صدحت المآذن بأذان المغيب: – والآن ابقي هنا.

– سأتبعك!

– لا، فقط راقبيني وعندما ألج الباب، مشيرًا إلى دار الشريفة، الحقي بي، وانتبهي أن يلحظك أحد.

– اسبقني وستجدني في إثرك.

– أسكن الطابق الرابع، سأترك بابي مواربًا.

49

مضى مشتّت الذهن، اجتاز الصرحة دون أن يرفع عينيه أو يلتفت، خالطته قشعريرة مباغتة لحظة دخوله الدار، تمتم: لماذا أضع نفسي في موقف قد تكون فيه نهايتي!

لم يمض وقت على دخوله سكنه حتى تسلّلت في إثره، صدمتها عتمة المكان، سمعت صوته: – هل رآك أحد؟

تردّدت في الردّ وقد غشيتها ريبة، ثمّ أجابت: – أبدًا.

قالتها وهي تحاول أن تهتدي إلى أبعاد السكن، بانتظار أن ينير ضوء. رويدًا رويدًا بدأت تميّز الأشكال المحيطة برغم العتمة. جدران حجرة مستطيلة خالية إلّا من موقد كبير، وباب يأتي منه صوته الذي أفزعها: – ها أنتِ في سكني الذي أردتِ أن تكوني فيه!

– نعم سكنك، ألن تشعل الضوء؟!

لم يردّ عليها، ولم تتوقع أن تتبلّد حواسّها، لتراودها شكوك في أنّها وقعت بين يدي سفّاح. حاولت أن تحتفظ بتماسكها.

بعد حين لاحظت صوته يقترب، لتميّز شبحه، وكأنّ غولًا ما ينحني عاريًا بجوار موقد نحاسي، ينفخ كومة فحم، فينعكس توهّجها على تفاصيل جسده ليصبغه بلون ناري. تتأمّله: أرداف متهدّلة، ظهر مسطّح باهت، ذراعان يهتزان جانبًا، ساقان تماثلان مقلاعًا ضخمًا مقلوبًا. لتتضاعف ظنونها بأنّه ينوي شرًّا بها، وأخذت تفكّر في نفسها وقد أمست في قبضته، سمعت صوته: هيّا إليَّ، لقد جهّزت جلسة تناول القات!

التفتت تحدّد الباب الذي دخلت منه.

حينها تهادى صوت مؤذّن قدّرت أن يكون لصلاة العشاء، لم تعد تسمع لشنّوق أيّ صوت عدا قرقرة نارجيلة، فكّرت أن ترفع صوتها وأن تستأذنه المغادرة، لكنّ الصمت والسكون كانا أقوى من إرادتها.

ثمّ انتهى الأذان وعاد السكون إلّا من ضجيج بارد في داخلها. ظلّت على وقفتها دون حراك، تسأل نفسها وقد ذهبت بها الظنون بعيدًا: هل سأخرج من هذا المكان سالمة؟

تذكّرت أنّ الباب على مقربة منها. قرّرت الهروب، دارت بجسد مرتجف وأنفاس مضطربة، خطوتين إلى الخلف، مدّت كفّيها تبحث عن مزاليجه، محاولة ألّا تصدر صوتًا، بهدوء خشية سقوط ما ينبّهه، تاهت أصابعها، دهمتها أحاسيس خوف، عاودت استجماع حواسّها. قاومت الإحساس بالهزيمة، حشدت قواها من جديد، نبذت فكرة تراودها بالاستسلام، جاست بأصابعها مرّة أخرى حتى لامست مزلاج الباب، سحبته بهدوء، ثمّ أخذت تسحب مصراعه على مراحل حتى لا يصدر أيّ صوت، أصابعها ترتعش، والارتعاش ينتقل إلى باقي مفاصل جسمها، شهقت وأنفها يستنشق رائحة السلالم، كادت تنهار عند وضع قدمها اليمنى خارج الباب، أخافها صمت السلّم وظلمته، تركت الباب خلفها دون أن تغلقه، وفرّت تسابق نبض قلبها الهابط وهي تخشى مصادفة أحد سكّان الدار، أو أن يكون شنّوق شعر بهروبها فلحق بها، استمرّت تهبط بقامة مترنّحة، بعد جهد أصبحت خارج باب الدار، لا شيء سوى العتمة وحفيف رياح باردة تداعب خوفها، استعادت بعض توازنها عابرة الصرحة الواسعة دون أن تلتفت، بعد ولوجها زقاق غرقة القليس شعرت ببعض الأمان، لتحجب دموعها رؤية أحجار الزقاق وتلك الجدران الهرمة، أحسّت بوحدتها في هذه الحياة، بضعفها أمام كلّ من تصادفه.

48

يضحك شنّوق كلّما تذكّر هروب غزال في تلك الليلة، في الوقت الذي هيّأ فيه متّكأها إلى جوار متّكئه، ظلّ ينتظر دخولها عليه. غسل باقة من أغصان القات، ومضى يفكّر كيف سيكون أول لقاء بينهما وهو يتمتم: ما زالت غضّة، ومن السهل تأجيج غرائزها. ثمّ يصيخ السمع لعلّها في دورة المياه، لكنّ انتظاره طال، نهض باحثًا عنها، دُهش لخواء الأمكنة، صُعق لبابه المشرع، أخذ يفكّر في دوافع هروبها وهي من ألحّت عليه لاصطحابها، جالَسَ قلقه يفكّر، معاتبًا رضوخه باستضافتها، مردّدًا: غلطة لا تُغتفر، قد تكون لصّة. ثمّ ابتسم: ما عساها تسرق؟

ناوشته التساؤلات مُستعيدًا حواراتهما على الفيسبوك، فجأة شعر بمسّ يزلزله: هل تكون من العسس وقد أرسلوها لمعرفة عنوان سكنه؟ احتضن جهازه لعلّه يجد لمخاوفه مخرجًا بعد أن يزور صفحتها، لكنّه وجدها محظورة عليه!

يتذكّر الآن كيف أنّ الأقدار ساقتها إليه بعد أشهر دون أيّ إرادة منه، إذ إنّ صنعاء كانت تعيش بداية ثورة عارمة على النظام. وقد خرج شباب المعارضة إلى الشوارع والساحات. وأمسى شارع الزبيري خطًّا يشطر المدينة إلى جنوب تسيطر عليه السلطة، وشمال يعجّ بالمطالبين بتغيير النظام، لتبلغ حدّة الصدامات بين الطرفين ذروتها، بعد أن ارتفع أعداد القتلى والجرحى من جرّاء الصدامات العنيفة.

منذ بداية الاحتجاجات وشنّوق يشارك في مسيراتها المناهضة للنظام. لم يكن يتصوّر أنّه سيصادف غزال في إحداها. يومها تجمّعت الحشود في محاولة لتجاوز خط التماس المتمثّل بشارع الزبيري والوصول إلى منزل الرئيس،

مرورًا بمعسكرات الأمن المركزي، وانتهاءً بدار الرئاسة. تصاعدت المواجهات لتتفرّق بعدها الحشود خوفًا من الرصاص الحيّ. هرول شنّوق بين الفارّين عبر الخطّ الدائري المتّجه إلى جولة الجامعة القديمة، فجأة لمح غزال جاثمة وإلى جوارها سلّتها، بدت كعصفورة تخلّفت عن سربها، تتّكئ على سور كلّية الآداب، شعر تجاهها بالشفقة. فاقترب وأمسك بمعصمها، بادرها: – هل أنتِ بخير؟

رفعت كفّها داعكة عينيها الدامعتين، عرف أنّها لا تميّز ما حولها لغزارة الدموع، عاود حديثه إليها: هيّا انهضي، سأساعدك على الابتعاد من هنا.

أخذ بيدها، مردفًا: – أيّ الجهات تودّين أن أمضي بك إليها؟

خطت يقودها مرتعشة لا ترى شيئًا أمامها. حاول مواساتها: – لا تخشي شيئًا، سأرافقك حتى تكوني في أمان.

قاطعته بصوت واهن:

– إلى أين تقودني وكلّ المدينة تحترق؟

– إلى أين تريدين أن أوصلك؟

– القاع، سوق القاع.

انحرف بها شرقًا عبر سوق القات الموازي لسور الجامعة، تمنّى لو أنّه التقى بها في ظروف أفضل حتى يسألها سبب فرارها تلك الليلة، استمرّ في السير حتى وصل بها إلى رأس السوق، وهناك تركها دون أن ينبس بكلمة، مكتفيًا بابتسامة باهتة، مبتلعًا مرارة غصّ بها، بعدها توجّه نحو شارع جمال. ظلّ طوال الطريق يعاتب نفسه، ليفاجأ بعد ذلك اليوم بأنّها رفعت عنه حظر التواصل، بل وكتبت إليه عبارة مقتضبة: – غدًا سأزورك!

فضّل رفض عرضها، لكنّها تجاهلت رفضه... وكتبت: لا تغلق بابك، سآتيك بعيد أذان المغيب!

رد عليها متعجّبًا: – أبالقوّة؟!

– إن أردت ذلك!

– لكنّي لا أريد أن تزوريني.

– لك الحق أن تغضب.

– لا أعاتبك. أنا جادّ، ستجدين بابي مغلقًا.

– إن وجدته كذلك فسأقرعه حتى يسمع الجيران، وعليك تحمّل النتائج!

47

مع ارتفاع صوت مؤذّن المغيب دخلت غزال الدار، بينما ظلّ يقف قلقًا من أن يلمحها أحد... رآها تنسلّ، تضع سلّتها جانبًا، التفتت تغلق مزاليج الباب وكأنّها تسكن هذا الطابق، استدارت تسقط ستارتها الملوّنة، غطاء رأسها، ثمّ خمارها، لتتّسع عيناه الصغيرتان دهشة وهو يتابع شبحها يتحرّر من آخر قطعة، اندلق أحد ثدييها، ثمّ لحقه الآخر، اقترب منها متلمّسًا عريها، التصقت مادّة بذراعيها تحتضنه، مالت برأسها لينثال شعرها غزيرًا وقبّلته. شك في أن تكون هي ذاتها. مالت بوجهها نحوه وكأنّها خمّنت ما يدور بخاطره ثمّ هامسته بغنج: – أليست هذه هي قواعدك التي ذكرتها لي في مسامراتنا على الفيسبوك؟

ذابت الكلمات بين شفتيه، أخذ يتلمّس قوامها الناحل، ثمّ أرسلت أصابعها تداعب أشياءه، تضحك عاليًا، مدّ كفّه كاتمًا صوت قهقهتها: – اضحكي بهدوء حتى لا يسمع ضحكك أحد!

التصقت تغمغم، لفحت أنفاسها صدره. سألها: – لكنّكِ في المرّة السابقة... قاطعته:

– وكيف كنت أنت؟

– أنا!

– لو كنت مكاني لهربت مرعوبًا!

– لمَ؟ كيف كنت؟

– كنت سفّاحًا في وكره!

صمت في حيرة. لتواصل: لكنّك الليلة غير تلك الليلة.

– ووكري هو ذاته!

– وهو ما أريد التعرّف إلى زواياه.

– أنتِ التي لستِ أنتِ الليلة.
– لم تغب عن ذهني منذ يوم التظاهرات.
– ظننتك لم تتعرّفي إليّ!
– بل دلّتني نبرات صوتك.
– لكن لماذا كنتِ هناك، هل كنتِ مع المتظاهرين؟
– لم أكن مع أحد، كنت بسلّتي أبيع مشاقري لطلّاب الجامعة، فجأة اصطخب كلّ شيء، في البداية ظننت الأمر كما كلّ يوم مجرّد تظاهرات، هربت مع الهاربين باتّجاه الشوارع الخلفية، لكنّ الأمر تطوّر لأسمع من يصرخون: «اهربوا، رصاص حيّ، غازات سامّة». هرولت وقد بدأت أشعر بالاختناق، وغشيت عينيّ حرقة، رأيت بعضهم يجثون أرضًا، قاومت لكنّي رويدًا رويدًا فقدت الرؤية، تلمّست بكفّي أول سور، جثمت أرضًا أسمع وقع أقدام وبكاء من حولي، أيقنت بالهلاك، أصرخ لعلّ أحدًا يساعدني. بعد وقت شعرت بكفّ تمسك بمعصمي، وصوتك يستنهضني، ميّزت صوتك وأنت تبتعد بي تطمئنني، قبل ذلك كنت أخشاك.
– لماذا تخشينني؟!
– قبل أن أجيب، ها أنا عارية أمامك، فهل بقي طقس آخر أقوم به؟
– أجيبي أولًا، لماذا تخشينني؟
– سأجيبك، لكن بعد أن تكمل طقس لقائنا!
– أن تراقصيني.
قالها وقد أمسك بكفّها، مرسلًا ذراعه الأخرى تطوّق خصرها، مضيفًا: – هيّا أجيبي.
– لنرقص أولًا.
بدأ بخطوة إلى الأمام، وخطوة إلى الخلف، ثمّ دار بها، حركات بندولية متتالية، دارا كثيرًا ثمّ عادا ليهدأ، استكانت وقد ضمّها إلى صدره، كانت تنتظر منه ذلك. قالت معجبة: – أنت حنون، وراقص.
انفجر ضاحكًا:
– وتسمّين هذا رقصًا!
– وكيف ترى الرقص؟
– سأعلّمك ما أعرفه، بعد شروق الشمس.

– من حبّب إليك الرقص؟
– فتاة مجنونة مثلك.
– مثلي!
– تشبهينها كثيرًا.
– هيّا، حدّثني عنها.
– حكاية بعيدة.
– ولو.
– في أول لقاء بيننا هامستني: «إذا أردت أن تشعر بمتعة مضاعفة فلتبدأ لقاءاتك بالرقص». سألتها: «بدون موسيقى؟» ردّت ضاحكة: «ارقص على إيقاع قلبي، وإن لم تسمعه، فعلى إيقاع قلبك!».

قبل لقياها لم تكن لي معرفة بالرقص، أخذت أتابع خطوها ودورانها، أحاول تقليدها، وليلة بعد أخرى تأتي بما نشربه، لتزيد نشوتي بمراقصتها.

– ومن علّمك العيش عاريًا؟
– روحي تميل لذلك.
– كيف ذلك؟

ظلّ يحكي وهو يراقصها وسط ظلمة حالكة، شعر حينها بذوبانها وقد التصقت به، ليهبط بكفّه رافعًا ردفيها، فقفزت تطوّق خاصرته بساقيها، ظلّ يدور بها ويدور، وهي تدسّ وجهها في رقبته، هامسة بدلال: توقف ودعني أمتطيك أرضًا.

جثا أرضًا، حلّقت فوقه تلثم شفتيه، تطرّز وجهه مرورًا بصدره، وهكذا هبوطًا حتى أحسّ بتصلب جسده، بينما هي تشعر بفوران غلمتها بعد استسلامه لها تمامًا، تلك الظلمة جعلتها امرأة أخرى، تسبح في اللامرئيّ. بعد وقت استدارت وتمدّدت، داعيةً إيّاه لإثارتها. جاراها، لتجتاحه بعنفها حتى أخذ يعوي بلذّة، بعد وصوله إلى ذروة لم يذقها قطّ، رفعت وجهه تزغرد بفرح صبياني. ثمّ همست: – يعجبني الحديث أثناء ممارستنا اللذّة!

– إذن حدّثيني عن سبب فرارك.

– سأبدأ من لحظة دخولي مسكنك تلك المرّة، صدمني ليلتها غموض مخيف، انصرافك لشؤونك شكّكني في أنّك تعدّ العدة لقتلي، تصوّرتك سفّاحًا وقعتُ في شراكه.

– سفّاح؟!
– كلّ شيء كان يوحي لي بأنّك استدرجتني لغرض غامض.
– أمجنونة أنتِ؟
– كنت في حالة بائسة.
– لم أفهم!
– حين وقفت بجوار سلّتي تبحث عنّي في السوق. أتتذكّر كيف رأيتني مهرولة إليك ألهث؟ لحظتها كنت قد فررت من قبضة الفكهاني الذي أبيع مشاقري على رصيف محلّه، وأتواطأ مع نزواته بين وقت وآخر، مقابل حمايته لي من بائعات الخبز اللواتي يختلقن الشجار بهدف طردي. لكنّه كائن عنّين وأعجز عن إثارته، يطلب منّي أشياء مقزّزة كإدخال إحدى أصابعي في دبره، وأشياء أخرى تثير غثياني. حين يريدني، يخرج من محلّه باتّجاه المسجد بُعيد أذان العصر، مشيرًا عليّ بحراسة محلّه حتى يفرغ من الصلاة، أعرف ما عليّ فعله، أن أتظاهر بكنس المحلّ. ويوم واعدتك، طلبني لنفس الغرض، متمنّية ظهورك قبل عودته من المسجد لتنقذني، لكنّك خيّبت ظنّي، وحين عاد كان بصحبته اثنان، هممت بالهرب، لكنّه سحبني خلف الرفوف، وقال ضاحكًا: أنت قدّها وقدود، وما يكفي واحد يكفي ثلاثة. اعترضته مهدّدة بالصراخ، لينهال عليّ ضربًا، سحبني بعنف حتى إحدى الزوايا، آمرًا أن أخلع سراويلي!

رفضت، لكنّه عاود ضربي: «لن تجعليني أضحوكة أمام ضيوفي!»

أشار على أحدهما بإغلاق باب المحلّ، ليعود الأخير مذعورًا: «هناك من يتربّص بنا!». ردّ عليه رفيقه بعينين زائغتين: «يتربّص؟ من يكون؟» فأجابه: «رجل طويل غريب الملامح لم أره من قبل» لحظتها عرفت أنّه أنت، زادت مقاومتي، ليعاود ضربي. أخذت أصرخ مستنجدة، أمسك أحدهما به زاجرًا: «قد يكون من رجال المباحث، دعها هذه المرّة!» وخرجت أتعثّر غير مصدّقة، لتستقبلني أنت. لكن...

46

في ليلة تالية استقبلها بحبور، سألته: – لا أصدّق أنّك لا تفضّل الصغيرات؟

– لي ضعف عمرك.

– هل سنظلّ معًا للأبد؟

لم يدعها تكمل، حملها على خاصرته، حتى غرفة جانبية، وضعها على فراش مرتفع، يهامسها وقد أمسك بقدميها: – قدمان صغيرتان، يمرّر كفّه على إحدى ساقيها مرورًا بفخذها: ساقان رشيقتان، يعود منحنيًا، يهمس: «دغل كثيف، يذكّرني برائحة الخمر، والأروع ردفاك الوفيران. يمعن، تصرخ مبتهجة، تنتفض، يعاود همسه: منٌّ وسلوى. ثمّ يصعد: بطن ضامر، سرّة الجوهر المكنون، صدر مثقل بحمولته، حلمتان نافرتان يتوقان للقضم، عنق يدعو فمي للمكوث طويلًا، يلثم شفتيها، يعانق لسانه لسانها، تشهق مادّة أصابعها تمسك أشياءه، تنخر متلفّظة: «أيّها الفسل السفيه، أحبّك يا قُحبي!».

تهوي بكفّيها لاطمة وجهه، تعمل أظافرها في صدره، تكزّ على أسنانها وهي تعوي بنشوة، يبدأ جسدها بالانتفاض وتعتليه، يئنّ عاضًّا على شفتيها حتى يكتم صوتها العالي، يتمازج عرق جسديهما، رويدًا رويدًا يهدأ جسدها، حاول شنّوق أن ينحّيها من فوقه، ليسمع صوتها يتوسّل: – أبقني عليك، واحكِ لي ما تريد!

يسألها:

– فيمَ أحكي؟

– تحدّث فحسب، يعجبني صوتك وأنت بداخلي.

– حدّثيني أنتِ، أين ذهبت تلك الليلة بعد هروبك؟

صمتت قليلًا تجمع خيوط الحكاية متموضعة فوقه: «همت على وجهي في أزقة تقودني إلى أخرى، لم يكن باستطاعتي العودة إلى مأواي. ظللت أهيم حتى وجدت نفسي بجوار الجامع المقدّس، قادني قلبي لأن أدخله، في البداية لم يصدّني أحد، رأيت بشرًا يتناثرون أمام مصاحف مشرعة، وعند حافات الجدران، والبعض يستند إلى الأعمدة الكثيرة، وقفت محتارة، التفت أحدهم: – إلى أين؟

قلت:

– أصلّي.

تعجّب مبتسمًا، حرّك رأسه، ثمّ قال: – لكنّ الوقت ليل!

عيون كثيرة تنظر نحوي بعمائمها الكبيرة. أشار أحدهم عليَّ: «اذهبي، هيّا اذهبي وصلّي».

كلّما تذكّرت لحظات دخولي وكرك يرتجف قلبي. أتخيّل من وقعن في شباكك، تصوّرتك مدمن اصطياد حريم، كنت سعيدة بنجاتي.

صمتت قليلًا تستردّ أنفاسها ثمّ واصل صوتها: – ظلّت القشعريرة تسري في أنحاء جسدي منذ هروبي حتى طردي من الجامع، متخيّلة كفّك الكبيرة وقد أطبقت على أنفاسي، أو أنّك تستخدم فأسًا لتهشيم جمجمتي وأضلاعي، ظللت في جدل مع نفسي، حتى سمعت صوتك يوم التظاهرات، عرفت لحظتها أنّني كنت مخطئة.

بعد أيّام حدّثت خالتي التي أشتري منها الريحان بما كنت فيه، جلست بجوارها على الرصيف حيث تعرض حزمها، إلى جوارها صفّ طويل من بائعات الدواجن، بأقفاصهنّ، بائعات الفاكهة والخضار اللواتي يدهشني دومًا تشابههنّ.

عنّفتني بعد أن حكيت لها ما كان منك ومن الفكهاني: «ألم تعديني بأن تبتعدي عن طريق البطّالين؟» ثمّ احتضنتني تهوّن عليَّ. وبصوت هامس كرّرت نصيحتها بالابتعاد عن سكّة الخاسرين، أخبرتها بأنّي لن أعود إلى سوق القاع، صمتت بعض الوقت ثمّ أثنت عليّ، ووجّهتني باختيار مكان آخر لبيع المشاقر، تنقّلت خلال أيّام بين أكثر من سوق، مرّة جلست على رصيف شارع المطاعم، وأخرى في سوق الزمر، حتى استقررت أمام بوّابة كلّية الآداب.

– لكن لماذا كلّ ذلك؟

– هذا ما كان أيهّا الغول اللذيذ!

45

منذ الليلة الأولى ألفت غزال طقوسه، وقد أضافت إليها خلط الأحاديث بممارسة الحبّ، فأمسيا يمضغان القات ويتنادمان متوالجين.

سألها:

– من أنتِ؟ ومن تلك الخالة التي ذكرتِها؟

– لن أحكي حتى نبحر في اللذّة، هيّا، أريد أن أعرفك أكثر. هيّا أرني الوجه الآخر للغول.

دنا بوجهه يداعب حلمتيها، تهامسه بغنج: – تعجبني مداعبتك في كلّ حين.

– وماذا أيضًا؟

لم تنطق وقد هبط بشفتيه مارًا بسرّتها، مطرّزًا فخذيها، لتضاعف نشوتها بغرز أظافرها في أضلعه حتى أدمته، تنخر بمفردات نابية، تكيل لعنات وقد غاص يداعب ينابيعها، لتسأله بصوت شبيه بالخوار: – هيّا أريد سماعك تتحدّث.

– أيَّ حديث تريدين؟

– فيمَ فكرت بعدما اكتشفت فراري؟

– تملّكتني ريبة، تفاقمت بعد حظرك عنّي صفحتك، خرجت صباح اليوم التالي أترقّب ظهورك في السوق، لكنّك لم تأتي، لتتقاذفني الظنون، وقد تحوّلتِ إلى لغز بالنسبة إليّ، فأحاديثنا على النت لم تعرّفني إليك جيّدًا، بداية شككت في أنّك سارقة، ثمّ ظننتك من العسس.

– عسس! لماذا العسس؟ عدت تخيفني، من أنت؟

– هكذا ظلّ عقلي تتقاذفه الظنون، ولذلك تردّدت على سوق القاع، ممنّيًا نفسي بلقياك.

44

قطع خيط ذكرياته البعيدة صوت مؤذّن الفجر مردّدًا «حيّ على الفلاح». عند جملة «حيّ على خير العمل»، لاحظ تهدّج صوته، ومن الدور الخامس ظلّ يهبط نواح حزين. ارتفع بعدها نباح كلاب الأزقّة، ليتحوّل إلى عواء متواصل. يتمنّى أن يكون إلى جوار صديقه في حزنه لفقد ولده. لكنّ النساء يملأن الدار، ولذا فكّر في أن يعرف ما هي طقوس العزاء حتى يكون إلى جواره.

تذكّر رسالة Adel، فتح جهازه من جديد مستغلًّا الدقائق الباقية قبل خروجه، يبحث عمّا وراء كلماتها القليلة متعجّبًا: «أخيرًا وجدتك، شكرًا للفيسبوك، أنتظر ردّك». فضّل التريّث في الردّ عليها، متمتمًا: «قد تكون رسالة أخطأت طريقها». أقفل جهازه يشغله التفكير في حالة صاحبه وقد ارتفع صوت مكبّر الصوت من المسجد مردّدًا: «انتقل إلى رحمة الله تعالى الشهيد تاج الدين بن الشريفة آية. رحمه الله ورحم من حضر صلاة الجنازة وشيّعها، وستقام الصلاة عليه صباح يومنا هذا في ميدان التحرير!».

لتعمّ بعدها أصوات مساجد أخرى بنداءات مشابهة، لقتلى كثر من الرصاص الراجع في نفس الليلة. طغى بعدها عواء الكلاب على أيّ صوت آخر حتى أشرقت الشمس.

خرج المشيّعون من باب الدار يحملون نعش الشهيد على أكتافهم مردّدين: «الله باقٍ وله الحمد، الله باق» ليسير شنّوق بين الحشود، عبر أزقّة غرقة القليس وحيّ نصير، وقد التقوا بمشيّعين آخرين يحملون نعوشًا أخرى من حيّ سكرة وحيّ موسى والوشلي والجلاء وحيّ السوق، لتتكاثر النعوش عابرة الأزقّة، إلى بحر رجرج وجسر السايلة، حتى ميدان التحرير الذي كان مصطخبًا بالحشود، مع تعالي مكبّرات الصوت وهي تردّد: «الله أكبر، الموت لأميركا،

الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، الخزي لآل سعود، النصر للإسلام». تلتها زوامل حماسية، وقرع طبول لصفوف راقصة من صبيان عُصبت رؤوسهم بشرائط خضراء كُتب عليها «لبَّيك يا حسين».

غُطّيت الجدران بالشعارات، وعُلّقت صور عملاقة على المباني لقائد المسيرة القرآنية، خطّ أسفلها باللون الأخضر «أبشر بعزّك سيّدي». ظلّت تتوالى عشرات النعوش المغطّاة بأعلام خضراء حتى ضاق ميدان التحرير بها، بينما النساء يزغردن في وقت واحد من أسطح المباني المحيطة، لتُحمل النعوش قبيل الظهيرة على عربات مكشوفة تعلوها صور قائد المسيرة، وببطء خرج الموكب من التحرير مخترقًا شارع القيادة شمالًا تُظلّله مكبّرات الصوت، التي تصدح بخطب السيّد القائد المندّدة بالعدوان الأميركي الإسرائيلي السعودي الإماراتي، متوعّدًا عواصمهم بالتدمير، ومهدّدًا منشآتهم الصناعية والبترولية بالحرق، وشعوبهم بالإبادة، واصفًا إيّاهم بالطواغيت المستكبرين، بينما الحشود تهتف بصوت جماعي: «الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، الخزي لآل سعود، النصر للإسلام».

فجأة التقت عينا شنّوق بعينَي الفرانصي، انتابته رعشة مفاجئة، فكّر في العودة من حيث أتى، ثمّ انسحب ليظلّ في مؤخّر الجموع بعيدًا عن مرمى ناظريه.

كان يسير في ذيل المشيّعين، وقد دهمته ذكرى ذلك المساء القريب، حين سمع قرعًا متواصلًا على باب سكنه، اضطرب لأول وهلة، فهو لا يستقبل أحدًا، وصاحبه حين يحضر لمسامرته يدير مفتاحه دون أن يقرع الباب، وغزال لا تأتي إلّا بموعد مسبق. نهض متردّدًا، ارتدى ما يستر عريه، فتح الباب بخوف، ليجد الفرانصي واقفًا وبصحبته ثلاثة جنود، وبمجرّد رؤيته أمرهم: «هيّا، اسحبوا هذا الكلب!». لكنّه باغتهم بصفق الباب بشدّة، ليتكوّم خلفه كأرنب مذعور. لم يتوقّع ردة فعل الفرانصي الذي أخذ وجنوده يحطّمون الباب بأعقاب بنادقهم، يعرف أنّه إذا سلّم نفسه فلن يخرج من السجن. أطلّ سكّان الدار يستطلعون تلك الضجّة، أعقب ذلك صوت الشريفة سائلًا عمّا يحدث، لكنّ الفرانصي لم يهتمّ لطلبها بالكفّ عن تكسير الباب، كانت شظايا خشب الباب بدأت تتقاذف إلى الداخل، ليرتفع صوت الشريفة من جديد مردّدة أيمانًا غليظة بطرد الفرانصي من دارها، وكأنّها بذلك تردّ الاعتبار لنفسها، عندها أمر الفرانصي

جنوده بالتوقف، شارحًا لها أنّه يمارس عمله بالقبض على مخرّب يحرّض الناس ويشارك في التظاهرات التي تحرق وتنهب وتدمّر منشآت وممتلكات الدولة.

يتذكّر شنّوق أنّه في تلك اللحظات كان يفكّر في وسيلة للهروب، لكنّه هدأ بعد سماع صوت صاحبه يعاتب الفرانصي ويعنّفه:

– أهكذا يافندم تكسرون أبواب الناس؟

ليردّ عليه معتذرًا:

– لو كنت مكاني وقد أغلق هذا المعتوه الباب في وجهك لفعلت ما هو أكثر.

– كان الأولى أن تخبرني بما تريد فعله قبلًا، لا أن تقلق راحة جيرانك.

صمتت الأصوات إلّا من هياج الشريفة، ليتهادى إلى مسامع شنّوق وقع أقدام هابطة وأخرى صاعدة، إلى أن سكن كلّ شيء. ظلّ خلف بابه مذعورًا، في ذلك المساء دخل عليه صاحبه، يطمئنه أنّ الأمر انتهى، وأنّه أقنع الفرانصي بعدم متابعته، على أن يتعهّد بعدم المشاركة في أيّ مسيرة أو اعتصام بعد اليوم. هامس شنّوق: «لن يعاود ملاحقتك، لكنّني متأكّد من أنّه سيسعى إلى تكليف غيره لاصطيادك خارج الدار، ولذلك عليك بالحذر، فرجال عفّاش لا يعيشون إلّا من أذيّة الناس».

يتذكّر أنّه من بعد تلك الليلة لم يبرح سكنه، وظلّ مرابطًا خلف نافذته يراقب حركة الزقاق المؤدّي إلى الصرحة، حتى إذا ما رأى الفرانصي يحمل حقيبته اليدوية مغادرًا، خرج بحذر لبعض شؤونه. وهكذا ظلّ لشهور كثيرة، يتخفّى حتى اجتياح أنصار الله صنعاء، عرف بعدها أنّ الأمر قد تغيّر إلى الأسوأ، وأنّ المدّ الديني السياسي لن يجلب إلّا الخراب، يخرج متسلّلًا وحذرًا لقضاء الضروريات.

43

شعر بسكينة تغمر روحه وهو يطوف حول أسوار مقبرة كبيرة، مُيّز جزء منها بأعلام وصور كروضة شهداء، دخل يسير بين شواهد قبور وُضعت فوقها صور فتيان رُبطت حول رؤوسهم شعارات خضر.. وزهور بلاستيكية. على البوّابة عُلّقت لوحات منها «شهداؤنا عظماؤنا. أهلًا وسهلًا بزوّار روضة شهداء العاصمة صنعاء».

ظلّ ما بقي من النهار هناك، يتأمّل من مكانه صنعاء ترتجف وحيدة، يخيّل إليه أنّه يسمع صراخ الأزقة، ويرى اهتزاز المنارات، يصيخ السمع لعلّه يحدّد اتّجاهات القصف، يبحر به خوفه، حتى ظنّ أنّ صنعاء أصيبت بالخرس، إلّا من سحب سوداء تظلّلها لتحجب ضوء الشمس، فتعاود الكلاب عواءها من أرجاء تلك القفار.

يشاهد جموعًا أخرى قادمة بأعلام وصور خضراء، يسابقهم ضجيج مكبّراتهم، وقد حملوا نعوشهم على رؤوس مبعثرة الشعر. تخفّى يراقب ما يدور، كانوا نسخة ممّن سبقوهم، الأعلام والشعارات ذاتها، بصور مختلفة لصبيان لُفّوا بأعلام خضراء، وهكذا ظلّ يتابع نعوشًا قادمة، وجموعًا عائدة، حتى قارب النهار على نهايته، بعدها صمت كلّ شيء، غادر الجميع وظهر قطيع الكلاب، كانت تتشمّم وتنبش التراب، متناحرة على بقايا أشلاء.

فرّ مذعورًا عائدًا باتّجاه صنعاء، يتبعه صدى عواء متواصل، حتى دخل أطراف أحيائها لتستقبله روائح غبار الأنقاض والبارود. أزقّة أحياء الزمر ثمّ الطواشي، حتى المفتون. من هناك سار محاذيًا قبّة البكيرية، حتى وصل إلى أزقّة الأبزر المواجهة لقلعة قصر السلاح. تضاعف خوفه إذ وجد الشوارع خالية من الصبيان. حتى منارات المدينة لم تعد في أمكنتها، والقباب قُلبت لتشابه

خوذ جنود مهزومين. مدّ كفّه إلى الأعلى، ليجدها تلامس سحبًا بلون الرصاص ورائحة البارود.

دُهش لخيام غطّت الصرحة الواسعة، أعلام خضراء، وصور صبية توسّطتها صورة تاج الدين بضحكته البريئة، تعجّب من إتقانهم إلباسه بندقًا رشّاشًا بعد موته، مع عبارة: «رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر». في أسفلها، كلّ شيء غُطّي بالأخضر.

صعد مسكنه مرهقًا وأخذ يتابع من خلف نافذته صفوف صِبية بملابس عسكرية وقفوا لاستقبال المهنّئين. طبّالون انهمكوا في قرع طبولهم، ليهتزّ المهنّئون يرقصون بـ«البرعة»، رقصة الحرب في دوائر متداخلة، ملوّحين ببنادق أميركية في الهواء، حتى إنّ أمين العاصمة ووزير الأوقاف ومشرفي وزارات وأعضاء المجلس المحلّي شاركوهم الرقص.

أغلق نافذته بعد مغيب الشمس، لاجئًا إلى رحم ظلمته، هاربًا إلى عريه مستعيدًا حرّية يسلبها الناس منه.

جَنح إلى جهازه، ليقرأ من غزال: «لقد صادفت أثناء هبوطي من عندك في آخر مرّة امرأة صاعدة، سألتني: ماذ تصنعين هنا؟ ارتبكت وكدت أنكشف، لكنّ سلّتي كانت المنقذة. أشرت إليها بأنّي بائعة ريحان، عارضة عليها ما بسلّتي، توقّعت الهلاك، لكنّها لم تلحظ اضطرابي، دعتني، لتصعد بي إلى الدور الخامس، رحّبت بي امرأة مكتنزة عرفت أنّها الشريفة التي تحدّثني عنها وعن صاحبك زوجها. طلبت منّي أن أحضر لها بين يوم وآخر بعض الريحان، كانت لطيفة معي وهي تطلب رقم هاتفي: سأتّصل بك حين أريد ذلك.

اليوم اتّصلت بي تطلب منّي سلّة ريحان، أرشدني ماذا أصنع؟!».

وضعته رسالتها على جمر متّقد، فهو لا يريد لتلك العلاقة أن تكون، لكنّه تردّد في الردّ. ثمّ وجد رسالة تالية وصلت توًّا: «لم أذهب إلى الشريفة بما طلبت، لأنّك لم تجب على رسالتي، فهلّا أجبت؟

يقلقني أنّ صنعاء لم تعد كما كانت، أسمع أزيز الطائرات طوال الوقت، تمنّيت لو كنت معك، الخوف هنا يحاصرني، طمئنّي عليك».

ثمّ رسالة متأخرة: «هاتفتني الشريفة مرّة أخرى صباح اليوم، وطلبت منّي الحضور، شاب صوتها حزن. طمئنّي هل أنتم بخير؟».

الرسالة الرابعة: «لم تردّ عليّ حتى الآن لترشدني بما يجب فعله، ولذلك استجبت لها، صعدت من أمام بابك متردّدة، عرفت بالكارثة، كلّ شيء هنا حزين لفقدان الصبي. الشريفة لا تقوى على الحديث من فرط حزنها، أذابها موت صغيرها، أحضرت لها سلّة مشاقر، وطلبت منّي أن أبقى في خدمتهم!».

رسالة أخيرة: «سبحان محيي العظام وهي رميم، لن تصدّق إن قلت لك إنّ الشريفة قد نفضت حزنها، لتتلقّى التهاني، بعد أن حضر مندوب من أنصار الله مباركًا: هنيئًا لكم بالشهيد، لقد فاز بها وربّ الكعبة. فاغتسلت وتعطّرت، ووقفت تستقبل المهنّئات!

لا أعرف كيف أصف لك ما يدور، لكنّي على يقين بأنّ الزغاريد تتهادى إلى مسامعك، ووقع أقدام المهنّئات المتواصل صعودهنّ وهبوطهنّ. ولم أعد أعرف كيف يفكّر الناس!».

جعلته تلك الرسائل يتريّث في إبداء رأيه في تلك العلاقة الجديدة بين غزال والشريفة، يقلّب الأمر قبل أن يردّ عليها، ثمّ يتراجع.

انتقل لقراءة رسالة من صاحب الأحرف Adel: «يا ابن الحاجّ، لماذا لا تردّ عليَّ، أنسيت ما بيننا من عشرة؟ ثمّ لماذا لا تضع اسمك الحقيقي على صفحتك؟» شعر بالأرض تتحرّك تحت قدميه، متيقّنًا من أنّه المستهدف من الرسالة السابقة، وأنّها من كائن يعرفه حقّ المعرفة، وما تلك الأحرف الإنجليزية Adel إلّا للتمويه. من لحظتها رأى أن يتعامل بجدّية وحذر، بادئًا بالبحث عمّن يكون ذلك الـAdel. ظلّ ساعات يفحص محتويات صفحته، لكنّه لم يجد خيطًا يرشده.

عاد محلّلًا كلمات الرسالة، مستعينًا بصفاء الظلام الذي يؤنسه، موقنًا أنّه سيستدلّ عليه عاجلًا أو آجلًا. فصفته تلك «ابن الحاجّ»، لا يعرفها إلّا رفاق الطفولة، أُطلقت عليه بعد عودة والده من الحجّ، يومها لم يكن قد تجاوز الثامنة، وظلّ اللقب يصحبه حتى غادر القرية بعد سنوات إلى شرق السعودية. خلال وجوده هناك نسي تلك الصفة، وعاد إليه اسمه شنّوق.

لكنّه استدعى تلك الصفة، «ابن الحاج»، بعد أربعين سنة، لتكون اسمه الوهمي، حين أنشأ صفحته على الفيس.

انشغل بمواقع البحث لعلّه يستدلّ على الـAdel، تشعّب في مجاهل لم يكن يصل إليها من قبل، عابرًا مواقع شخصيات شهيرة في عالم الفنّ والأدب،

إلى شخصيات رياضية، ومن شركات ووكالات تجارية إلى مواقع اجتماعية وإباحية، ومن منظّمات خيرية إلى منظمات دعوية وتبشيرية إلخ... أدرك حينها أنّه يلج لعبة لا يعرف أبعادها، دون أمل في أن يصل إلى هدفه.

كان لفظ «ابن الحاجّ» الخيط الذي سافر بذاكرته إلى أيّام صباه في القرية، حيث قضى سنوات بين أبويه وإخوته. تذكّر كيف كان يرتاد مع أخيه «معلامة» مسجد القرية، يجلسون على الأرض أمام «سيّدنا» الأعور. ولذلك مالت ظنونه إلى أن يكون من يشاغبه هو أحد زملاء «المعلامة». بدأ بتدوين أسماء من يتذكّرهم، وقد تخيّلهم حول الأعور ذي العمامة البيضاء الكبيرة، يجلسون القرفصاء في صفوف دائرية، ها هو يراهم، في المقدّمة: مارش، القلجِدي، قانح، الأعجم، المَحَفِي، نايف، حُسيني، الزوبة، المُعَدن، الشويبي، الجوس، الردوم، العبومي، طامع، هاجرة، غُمج. أخذ يحذف من غيّبهم الموت، ثمّ من ظلّوا في القرية ولم يهتدوا لاستخدام الشبكة، فبقي بعد ذلك عدد قليل ممّن رجّح أنّ من يشاغبه من بينهم.

عاد لمحاورة Adel عملًا بالحكمة القائلة «إنّ أفضل حيلة هي ترك الحيل». فرك يديه كمن يستعدّ لمجازفة وأغمض عينيه يفكّر في انتقاء مفرداته، رصّها في جمل محدّدة «ها أنا أردّ عليك، وكان الأجدى أن تعرّفني باسمك حتى أخاطبك عن معرفة، أعترف لك بأنّي بدأت بالبحث عنك، موقنًا أنّ Adel ليس اسمك، ولذلك سأعرض عليك بعض الأسماء. وأرجو أن تكون صادقًا، وتحدّد لي أيّ اسم منها هو أنت».

42

بعد انتظار ليالٍ وصله الردّ: «جمعتكم مباركة، للأسف، لقد ذهبت بعيدًا، ولم أسمع يومًا بتلك الأسماء، ولذلك سأنتظر أن تتذكّرني!».

كانت مرفقة بالرسالة صورة لإنسان معلّق بين السماء والأرض، التُقطت له أثناء طيران شراعي أو هبوط مظلّي. شدّت الصورة شنّوق، وأخذ يبحث في تفاصيلها لعلّه يجد شيئًا يدلّه، خوذة تغطّي الرأس شبيهة بتلك التي يعتمرها سائقو الدراجات النارية، غطّت نصف وجه معتمرها نظّارة معتمة. جاكيت كحلية. حزام زيتي يتداخل متصالبًا على الصدر حتى مفرق الفخذين. بنطال من النايلون. يدان تشدّان حبال مظلّة، فيميل الجسد يمينًا مشكّلًا بقامته هلالًا، طوله لافت. لم يستدلّ حتى على جنس من في الصورة.

فضّل الردّ برسالة مكوّنة من ثلاث جمل «جمعتكم رضوان، شكرًا لكم، وأتمنّى أن تعرّفوني إلى اسمكم حتى أخاطبكم بصفتكم!». ضغط زرّ الإرسال، وجلس ينتظر الردّ بقلق، ليصله ردّ مفاجئ: «أشكرك على ردّك. تكرّر سؤالك من أكون. وأتعجّب، هل ذاكرتك طُمست؟ عُد إلى ماضي أيّامك. فبيننا ذكريات لا تُنسى. ولذلك لن أخبرك باسمي، وسأدع فطنتك تقودك إليَّ!».

فرك يديه مردّدًا: ها هي بداية مشجّعة، ستقودني لمعرفة من وراء تلك الرسائل.

عاد لقراءة تلك الجمل، أحسّ بدفء كلماتها، تيقّن بأنّه يقترب، تهدّل فكه وبدا وجهه غير متناسق وهو ينبش في ذاكرته، تناثر رذاذ قاته من بين شفتيه. وهو يعاود قراءة تلك الرسالة، لكنّه لم يصل إلى شيء، ليعاود البحث في تفاصيل الصورة.

في اليوم العاشر لمقتل الصبيّ فاجأته غزال برسالة: «اشتقت إليك، سأهبط مع أذان مغيب اليوم، فهل لديك مانع؟ اترك بابك مواربًا ولا تنسَه كما المرّات الماضية، في شوق لظلمتك!».

مع سماعه صوت صاحبه الحزين يؤذّن للمغيب دلفت غزال بابه بقدمها اليمنى مردّدة أسماء الله الحسنى، ثمّ وضعت سلّتها الطافحة بفواكه وأطعمة متنوّعة، استدارت لتغلق الباب ببطء شديد، وتلتقط أنفاسها بحبور لرائحة المعسّل ورؤية جمر الموقد النحاسي يتّقد، تهمس: «ليلتنا محبّة!» ثمّ تخطو باحثة عنه، ترى وميضًا تصحبه كركرة النارجيلة من غرفة المقيل. تكمل خلع ملابسها، تخطو بهدوء مضمرة مفاجأته، لكنّه ينهض بفارع طوله فاردًا ذراعيه، هامسا لها: – بدأت أخاف منك!

– كيف ذلك؟

– أمسيتِ من أهل الدار.

– خذلتني، انتظرت مشورتك.

– لم يكن لديّ أيّ مشورة، وما زلت لا أصدّق ما يحصل.

صمتت قليلًا، ثمّ صدمته بسؤالها: – إلى متى تحبس نفسك هكذا؟

لم يتوقّع ذلك السؤال، لكنّه ردّ عليها ببرود: – وما عساي أصنع؟

– اخرج لتبحث عن عمل.

– وهل هذا وقت جدل من هذا النوع!

– لا أريدك أن تتعفّن بداخل سكنك.

– لكن هناك من يتربّصون بي.

احتضنته، أحسّ بارتباكها فأردف يهوّن عليها: – لا عليكِ.

تشجّعت وزادت التصاقًا به: – أتمنّى أن تحكي عمّن يتربّصون بك.

– الفرانصي.

– من يكون؟

– عسكور يسكن في نفس الدار.

– يجوز أنّني رأيت زوجته عند الشريفة، فكلّهنّ حولها.

– إن تعرّفت عليها، اسمعيها، وحدّثيني عمّا تثرثر به، خاصّة في ما يخصّ زوجها.

سألته متعجّبة:

– لكن ما الذي يدفعه إلى مضايقتك؟

هبط بوجهه حتى التقت شفتاه بفمها، قبّلها قبلة طويلة، ثمّ همس: – قصّة طويلة، لكن حدّثيني عمّا وجدته في الدور الخامس.

41

مع بداية مساء آخر، واتتها فكرة المزج بين حكاياتها وحكاياته. أمعنت في استثارته. أدرك ما تودّ فعله. أحسّ بسياط الرغبة تجلده، تقدح في أوردته، بينما تهامسه: – الآن أريد سماعك تتكلم.

لكنّه ظلّ صامتًا، ترفع كفّها تلامس كتفه، تمرّرها على صدره، أعطاف بطنه، هابطة لتداعب ما تصل إليه أصابعها. لم تعد تراه غريبًا كما كانت في الأيّام الأولى. تشعر بأنّه هي. تصنع معه ما تفكّر فيه. وقد أمست تشتاقه في كلّ حين، يعاملها بودّ. يحتويها بعذوبة ممزوجة بعطف دافئ، كما لم يعاملها أحد من قبل. لكنّ ما كان ينغّص عليها هو عدم بوحه بهمومه. تخشى أن تكون علاقته بها صحوبية عابرة.

مسح بكفّه أردافها لتسأله:

– لماذا صمتّ؟

لم يردّ عليها. أضافت: ما يشغل بالك؟

– لا شيء أبدًا.

– أريد سماعك تبوح لي بكلّ ما بداخلك.

– كلّ شيء في حينه لذيذ!

– أخاف يومًا تتركني فيه!

ابتسم رافعًا خصرها يعتصره:

– لكلّ منّا وجه يحاول إخفاءه.

مع تلك الجملة، راهنت على استدراجه ليتحدّث. تهمّ بسؤاله لكنّ تساؤله يسبقها: – أنتِ لكِ همومك، أليس كذلك؟

– لكنّي أشعر بهموم تثقلك، وأشفق عليك منها.

– تلك الفتاة التي التقيت بها يومًا في قاع اليهود، لم تعد هي من أسمعها الآن.

– بل أنا هي، لكنّي أشعر باليتم من دونك.

– لديك امرأة رصيف القشلة، التي دومًا تحكين لي عنها.

ابتسمت، زامّة طرف فمها كمن تزن ما ستقول: – أشعر بأنّك كنزي، لا تسألني كيف. فدومًا أنشغل بخوفي عليك!

– لم أفهم.

– لقد نضجت أكثر بأماسيك.

– وأرى عقلك أكبر من سنّك!

– إذن لماذا لا تثق بي وتحدّثني عن نفسك؟

فجأة، قطع همسهما صوت قعقعة مغلقة الباب، تحفّزت غزال هامسة: – هناك من يحاول فتح الباب.

كمّم فمها بكفّه يسكتها. يعرف أنّه صاحبه زوج الشريفة، همس لها: – ابقي مكانك ولا تخرجي مهما يكن.

كانت متوجّسة وهي تتابع شبحه يخرج نحو حجرة الموقد، منذ أن عرفها لم يحدّثها يومًا عن طنهاس، أو مسامراتهما. ولم يتوقّع زيارته في هذه الليلة، ظنًّا منه أنّ حزنه على ابنه لا يزال يمنعه.

بعد لحظات سمعت صرير مفاصل الباب، ثمّ صوت شنّوق متلعثمًا: – أهلًا وسهلًا، وعظم الله أجركم.

بعدها أغلق الباب:

– غفر الله لكم وأحسن مثواه.

بدا لها الصوت شبيهًا بصوت زوج الشريفة، ترهف السمع بعد إزالة طرف الغطاء من فوق رأسها. وقع أقدام. صرير باب آخر يُفتح. دخلا ذلك الباب الذي طالما رأته مغلقًا. فوجئت بضوء بهيّ يتدفّق في تلك الحجرة، لترى أجزاءً من جدرانها. زاد فضولها، ففكَّرَت أن تخرج من تحت أغطيتها، أن تقترب من باب الضوء، تلحّفت بستارتها الهندية. تسحّبت بحذر مخالفة تحذيره. اقتربت من باب الضوء. التصقت بظلفته، مطّت رقبتها تسترق النظر، كتمت شهقتها لرؤية وجه طنهاس يجلس قبالة شنّوق. غرفة يشابه أثاثها أثاث الدور الخامس. طقم كنبات زاهية الألوان. ثريّا تسكب أنوارها. شاشة مسطّحة على الحائط

المقابل. وجزء من صورة الكعبة تحتلّ بقعة من جدار جانبي. على الجدار الآخر سجّادة لفتاة عارية بخيوط ملوّنة، وتحتها رفوف زجاجية. سرير كبير بفراش وثير. في الزاوية البعيدة برّاد بلون سماوي. على الأرض بسط متعدّدة الألوان، نارجيلة انتصبت بنقوشها على صينية نحاسية، بينهما طاولة زجاجية صُفّت عليها أطباق مكسّرات وكؤوس، وقنّينة بزجاج معتم. لم تستوعب ما تشاهده.

عادت بين أغطيتها، دون أن يشعرا بها، وحين أفاقت، كان الصباح قد تسلل، وما زالت تحت أغطيتها. تذكّرت ما كان في المساء. نهضت لتجد باب تلك الغرفة مغلقًا. استدارت ودخلت غرفة نوم شنّوق، فوجدته ممدّدًا كالذبيح على سريره، يغطّ في نوم عميق، صعدت جواره، تتأمّل وجهه، تتابع إيقاع أنفاسه، ميّزت رائحة تعبق مع زفيره. همّت بإيقاظه لتعرف منه ما دار. لكنّها فضّلت التريّث، وقد جنحت تتذكّر ما تحدّثت به الشريفة ذات عصاري أمام جمع من نساء الجيرة: «لم أتزوّج إلّا لِما عُرف عنه من تفقّه في الدين، والتزام بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، وبما عُرف عنه من رجاحة عقل واستقامة». وفي مرّة أخرى سمعتها تجادل زوجها حول ساكن الدور الرابع، تلحّ على طرده، ليردّ عليها بأنّه متصوّف ومن أهل الله، وهو خير وبركة علينا. تتذكّر جيّدًا ما سمعته.

40

لكنّها البارحة عرفت ما لا يعرفه أحد، ما زرع في نفسها حيرة. قطع شنّوق بكلمات مبعثرة حبل تفكيرها، عرفت أنّه يهذي بعد أن أثقل عقله الشراب، عدّلت من وضع رأسه الكبير لتعاود أنفاسه انتظامها. رائحته حملتها إلى نهار بعيد، حين أقلّتها سيّارة فارهة صعدت بها جبال صنعاء الغربية. «هي ساعات وتعودين بمبلغ مجزٍ، قد يكفي لشراء فستان شبيه بتلك الفساتين التي ترينها على أجساد العرائس، أو تحصلين على هاتف نقّال أنيق». بتلك الكلمات أخذت جارتها أمّ حسين تغريها بأن تذهب لساعات مع أحدهم، حتى وافقت على أن ترافقها قبيل صلاة المغيب. دخلت بها مسجدًا على أطراف حارة السنينة، لتخرجا بعدما صلّتا معًا صلاة المغيب في قسم النساء. سارت بها بمحاذاة الخارجين نحو سيّارة تقف على مقربة من باب المسجد، لتودعها على المقعد المجاور للسائق وقد أوصتها: «أنتظر الهديّة!». انطلق بها السائق وسط جموع باعة سوق السنينة حتى خرج إلى شارع الستّين. كانت تتابع أشباح المارّة من خلف زجاج السيّارة المعتم وهي منبهرة بمقاعدها وسقفها، ورائحة العطر التي تعبق في أجوائها، كأنّها ترى المشاة من قلعة سحرية. انعطف السائق بها يمينًا متجاوزًا منزل نائب الرئيس عبد ربّه منصور. رمقت السائق من خلف غطاء وجهها فرأت شابًّا بملامح جامدة، يقود بصمت ومثابرة، حتى إنّهُ لم يلتفت نحوها منذ أن استوت جواره. استفزّها تجهّمه، حدّثت نفسها: حين نخلو سأريه كيف يبتسم. قطع ما يدور في رأسها رنين هاتف على «تابلوه» السيارة، التقطه مجيبًا محدّثه: «نعم نعم، اقتربت. أنا في جولة عصر».

تحققت أمنيتها وقد سمعت صوته، لكنّها لم تفطن إلى من يتحدّث إليه عبر الهاتف، ظلّ يصعد بها شاقًا زحام عربات الطريق الصاعد حتى حاذى نصب

الجندي المصري، ليتجاوز منازل تلك المرتفعات ومزارع القات. بدأ الخوف يدهمها وقد وصل بها إلى مرتفعات شاهقة. سألته: – أين تذهب بي؟

ردّ بشكل آلي، ودون أن يلتفت إليها: – لا تخشي شيئًا، ها قد وصلنا! مشيرًا إلى صفّ طويل من السيّارات تقف على خاصرة الجبل. بعدها بقليل هدّأ من سرعته، ثمّ دخل بها في أول ثغرة بين صفوف السيارات وهو يلتفت يمينًا وشمالًا كمن يبحث عن شيء. تتأمّل غزال المكان وقد توجّهت مقدّمات تلك الصفوف نحو منحدرات مطلّة على المدينة وكأنّها في استعراض. وعلى الجانب المحاذي نُصبت عدّة أكشاك، ومجموعة من الصبيان في حركة دائبة، يحملون جمرًا وصواني القهوة يهرولون بها بين العربات. أذهلتها تلك المنحدرات السحيقة. من دون أن يلتفت إليها، أطفأ المحرّك وهبط بخفّة تاركًا بابه مشرعًا. بهرتها صنعاء التي بدت طبقًا يتلألأ مع بداية زحف عتمة المغيب. لم تمرّ لحظات حتى صعد آخر خلف مقود السيارة يخفي وجهه خلف شال منقوش، أزاله عنه بعدما أغلق الباب وبادرها: أهلًا وسهلًا.

ودّت أن تسأله عن ذلك الشابّ الذي أتى بها، فضّلت الصمت ومراقبة ما يدور. تسترق النظر إليه، كان ممتلئ الجسم، بثوب أبيض، تعلو كرشه «جنبية» خضراء بحزام مزخرف. وجهٌ شكّلته تغضّناتٌ عمودية. التفت إليها مادًّا بغصن قات، ثمّ انشغل بسحب رفٍّ بينهما، وضع عليه كأسين فارغتين، وعاد يناغيها: «هيّا أزيلي أرديتك وتناولي القات، سنبدأ سهرتنا هنا ثمّ نكملها في مكان آخر».

لم تردّ عليه، فواصل: «أريد أن أسمع صوتك، هيّا لا وقت لديّ».

بدا قلقًا رغم ابتسامته الشائخة، فاجأها بمدّ أصابعه مزيلًا غطاء وجهها، مالت بعيدًا بخفر، ضحك: «هيّا بلاش دلع عادنا باقَشِع مَنزَل مَنزَل!» صمت قليلًا ثمّ أردف: «القات ونحن ننظر إلى صنعاء له طعم ثانٍ، هيّا ذوقيه».

التفتت راسمة على طرف شفتيها ابتسامة مغرية، مال نحوها هامسًا: «وأنا فدا للشفاه الكبيرة. كم عمرك؟».

أشارت بأصابعها بما يعني السابعة عشرة. ابتسم مادًّا بغصن آخر يهامسها في جذل: «هل أكلت القطّة لسانك؟» ندّت منها ضحكة وأشاحت بوجهها، واصل تساؤلاته: «هل رأيت صنعاء من هذا المكان من قبل؟». أومأت بالنفي، فأردف: «يعني أنا أول من يريكِ المدينة من هنا». كرّرت حركة رأسها بالإيجاب. عاد مشغولًا بإخراج قارورة من كيس بجواره. ملأ كأسًا ومدّها إليها،

كانت رائحتها غريبة، همّت بتناولها فأطبق على كفّها، مشيرًا بأصابعه الأخرى باتّجاه المدينة: «ذلك الشارع المضاء طولًا هو شارع الزبيري، وتلك الخطوط المضيئة التي تحتنا شارع الستين، أمّا المزهرة المتلألئة فصنعاء القديمة، وتلك...» ثمّ صمت هنيهة ليسألها: – أين تسكنين؟

تردّدت، ثمّ أجابت بصوت خجول:

– في السنينة.

– الحمد لله. أخيرًا نطقتِ. أتعرفين أين تقع السنينة؟

– لا.

ضحك عاليًا وهمس:

– سأخبرك أين تقع السنينة بعد أن تشربي.

تلك الرائحة عرفتها لأول مرّة، ارتشفت بتردّد، لتتغضّن ملامحها دافعة بالكأس. هزّ رأسه رافضًا: عليك إكماله لتري «السنينة».

ضحكت وارتشفت رشفة أخرى، ثمّ ثالثة حتى أكملتها، صفّق لها مشجّعًا، لتقول: – مذاقه خمج!

– سأريك كيف تشربين.

التقط كأسه ليتناولها جرعة واحدة، ثمّ صبّ لها أخرى ومدّها نحوها: – تناوليها دفعة واحدة كما فعلت أنا.

تتذكّر أنّها تجرّعتها دفعة واحدة، ليهلّل لها ثم يصيح ضاحكًا: – والآن هل رأيت أين تقع السنينة؟

– لا.

أشار إلى أسفل المنحدر:

– انظري أسفل، هي تلك الكتلة الباهتة، أترينها تحتنا؟

بُهرت وهي تتأمّل تداخل المنازل الصغيرة التي شُوّشت ملامحها إلّا من أنوار شحيحة. انشغلت بتأمّلها، تحاول تحديد أطرافها وتلك الربوة التي يقع بيتها عليها، لكنّها لم تستطع تمييز أيّ شيء، الكلّ متماهٍ في عتمته. صمتت متعجّبة وهي التي ظنّت أنّها ابتعدت كثيرًا عن حيّها، تذكّرت أنّها كانت ترى الشارع الذي تقف عليه الآن، ترى صفوف السيّارات في أعلى الجبل، وأنّ إحدى صديقاتها حدّثتها بأنّها صعدت مع سائق أجرة ذات نهار، واصفة كيف سحرتها رؤية كلّ شيء من الأعلى. ومن يومها وهي تحلم بأن تصعده.

احتواها صمت وقد تخلّل رأسها خدر لذيذ. أزالت طرحتها فمدّ لها بكأسٍ أخرى. تجرّعتها بصمت، لتشعر بنشوة لم تذقها من قبل.

قطع استرسال ذكرياتها صوت مؤذّن الظهيرة. اقتربت من وجه شنّوق تهامسه، فتح عينيه وقد شابت ملامحه حيرة.

39

رسالة وحيدة تنتظره: «لم تردّ على رسالتي، ولم تخبرني برأيك في الصورة التي بعثتها إليك، وأكرّر، إن أردت معرفتي تأمّلها، قد تجد ما يدلّك».

عاد لتمعّن تلك الصورة، ثمّ ردّ كاتبًا: «هذه الصورة لا تظهر وجه أحد، تعمّدت أن يكسوها الغموض مثل كلماتك، إن كنت مصرًّا على عدم ذكر اسمك فلا بأس، يمكنك ذكر اسم المدينة التي تسكنها، أو جنسك، ذكر أم أنثى، أو تحديد السنة التي كنّا فيها معًا. وإن رفضت أرجو عدم التواصل بي، لا أريد أن ألاحق سرابًا».

«لولا الملامة يا هوى لولا الملامة، لافرد جناحي في الهوى زيّ اليمامة، وأطير وارفرف في الفضاااااء». هكذا جاء الردّ. شعر بشجن للماضي. حاول تذكّر أول مرّة سمع فيها تلك الأغنية. استحضر سنوات اغترابه في شرق الجزيرة العربية. رآها سنوات بعيدة، كانت تلك الأغنية جديد وردة، ويومها شُغف بها، وكان لديه شعور طاغٍ بأنّها تعّبر عمّا يجيش في نفسه، ولذلك أهداها لـ«نجمة» في كاسيت رسولِ محبّة، تلك الفتاة الممتلئة الضحوك، زوجة عسكري كما أخبرته. لكنّه لم يره قطّ، أو أنّ نجمة ابتكرت ذلك الزوج لغاية يجهلها، قالت له: «إذا ما أردت لقياي، اجلس تحت نافذتي. ودندن بأيّ لحن من أغاني بلادك، واحذر أن يسمعك أو يراك أحد». وبالفعل ما كان يبدأ حتى تخرج وقد لفّت اكتنازها بعباءة سوداء. تبرز تكويرة مؤخّرتها، يتبعها إلى بقالة «البلوشي»، ذلك الرجل المُسنّ الذي يصعد سلّمه بعد أن تتعمّد نجمة طلب سلعة من الأرفف العالية. كانت تستغلّ انشغاله بالصعود لتمسك بكفّه، يعتصرها لهنيهات، مادًّا نحوها بهديّة صغيرة مع رسالة نحتها من مشاعره العطشى. بعد ذلك، يرمقها وهي عائدة إلى مسكنها بخطوات مغناجة.

يهامس نفسه: أيُعقل أن تكون نجمة؟ وهل ستظلّ تتذكّرني إلى اليوم؟ لكنّها لا تعرف كنيتي في الطفولة، «ابن الحاج»، أيُعقل أنّني أخبرتها يومًا ونسيت؟!».

قلّب صفحات ذاكرته أكثر من مرّة. تذكّر: «أم الهنوف»، و«المكّاوية»، «سعاد» و«مضاوي»... أخذت حبّات ذاكرته تكرّ مستعرضا عددًا من التجارب العاطفية الخائبة، التي كانت تلك الأغنية رسول مراهقته إليهنّ.

بعد عجزه، فكّر أن يعرض عليها تلك الأسماء، سألها إن كانت نجمة، فردّت بالنفي، سعاد، نجوى، حصة، عائشة، مضاوي، أمّ الهنوف. كرّرت نفيها. فهدّدها بقطع التواصل بها!

في آخر لقاء غادرته غزال حَنِقة لرفضه كشف سرّ مسامرته وزوج الشريفة، يكتب إليها: «أعدك بأن أحدّثك عمّا يدور، اشتقت إلى أماسيك». واعدًا إيّاها بأن يكون القلب المفتوح، لتردّ: «أريد أن أعرف فقط كي أطمئنّ عليك من نفسك!».

ما إن دلفت كعادتها بقدمها اليمنى حتى همست بأسماء الله الحسنى كعادتها، لكنّها لم تخلع ملابسها كالعادة، مصرّة على أن تسمع منه أولًا: – لن أحدّثكِ إلّا إذا خلعتِ.

قاطعته:

– احكِ أولًا.

صمت قليلًا يبحث عن بداية يسير عليها في حديثه: – أنا ريفي عشت في أكثر من مكان، حتى إنّي قضيت فترات متقطّعة من عمري خارج اليمن، ولي في كلّ مدينة أكثر من حكاية، لكنّ صنعاء تظلّ إحدى حكاياتي، وكذلك صداقتي بزوج الشريفة، وكذلك أنت إحداها.

تصغي دون أن يتبيّن لها ما يودّ قوله، لكنّها تشعر بالرضى وقد بدأ يحكي لها، تنهّدت هامسة: – سعيدة أنّك تحكي!

انفجر ضاحكًا حين أدرك أنّ خطّته نجحت: – ما دمتِ رضيتِ عنّي. الآن عليك خلع ملابسك وممارسة ألاعيبك، وأعدك بأنّني سأواصل حديثي.

بدأت بإسقاط ما على جسمها، ثوبها، ثمّ بقيّة قطعها، حتى اكتملت هالة بياض قوامها. مدّ ذراعيه واحتواها. أردفت: لكنّك لم تراقصني!

– أعددت لك مفاجأة!

قالها وقد حمل عريها إلى غرفة نومه، وبدلًا من وضعها على السرير، طرحها أرضًا، لترى الغرفة على ضوء شمعة تنعكس شعلتها على أطباق طعام فوق طاولة جانبية وعدّة كؤوس وقارورة دكناء. فغرت فاها دهشة، لتخمّن لحظتها أنّه يريد تتويهها، وبدلًا من أن يستمرّ بالحكاية التصق يقبّلها، ثمّ أمسك بالقارورة يصبّ سائلها على صدرها، وبدأ بلعقه، أعجبها ذلك مبتهجة، ومدّت كفّيها تحتوي وجهه وتقبّله، فكّرت أن يمارسا الحبّ وهما يشربان ويأكلان في آن واحد. دعته إلى ذلك، ليزرع بدنها بالطعام والشراب، حتى موطن لذتها، في تجربة جعلتها تدخل في هستيريا وتصرخ باكية: – أريد أن نكون معًا دومًا، وأن تقسم ألّا تهجرني!

احتضنها. لكنّها كانت ما إن تهدأ حتى تعاود بكاءها: – ذهبت بي بعيدًا، هربًا من أن تحدّثني عن سرّ مسامرتك مع زوج الشريفة! أم أنتما تمارسان ما نمارسه، هيّا اعترف!

ارتعش بدنه لكلماتها، محاولًا الخروج من بين ساقيها، نهرها: – كيف يخطر هذا على بالك؟!

– أخاف أن أفقدك، أنا بحاجة إلى رجل يكون لي وحدي. رجل يأتمنني على كلّ أسراره. وأنت ذلك الرجل.

تتحدّث باكية، ليدخل شنّوق في حوار مع ذاته. ثمّ لا يلبث أن يعود إلى محادثتها: – لم أتخيّل أن يصل بك الظنّ إلى هذا!

– أريدك لي. ولا أريد أن يشاركني فيك أحد.

– ألست معك؟

– نعم معي. لكنّك لست لي وحدي. وإلّا لحدّثتني عن نفسك!

– وما الذي أصنعه الآن معك؟

– أشتاق أن تعود لجرأتك وأنت تحدّثني في ليالي الفيسبوك، من أنت؟ أريدك أن تكون معي صندوقًا مفتوحًا، أريد أن نتحدّث إلى بعضنا في كلّ ما نخبّئه في أعماقنا، وها أنا أمامك صفحة مفتوحة!

– كلّي لكِ.

– فلم إذن لا تتزوّجني؟

صمت قليلًا، ثمّ نظر إليها مبتسمًا: – لكنّ لي زوجة.

– أمتزوّج أنت؟ متى؟ وأين هي؟

– ولي منها خمسة.
– خمسة أولاد!
– في قرية بعيدة.
صمتت بعض الوقت ثمّ قالت بصوت هادئ: – هل تزورهم؟
– مضت سنوات من القطيعة.
– أما زالت على ذمّتك؟
– ما زالت.
لجأ إلى صمته رغم إلحاحها. فدون أن تعلم كانت قد نكأت جرحًا دفينًا يداريه. وعلى مدى ثلاثة أيّام نجح في مراوغتها من دون البوح عن شيء، لتغادره بعدها حزينة.

38

تصل شنّوق رسالة من Adel، بعد ليالٍ من القطيعة: «أبهذه البساطة نسيتني، وأنا من ظننت أنّك أسكنتني قلبك. لكن لمن سيكون قلبك، وقد حوّلته إلى ماخور عبرته كلّ تلك الأسماء. تتذكّرهنّ وتنساني. أتساءل هل كنت قد أهديتهنّ نفس الأغنية، بينما ظننت واهمة أنّك لم تهدها إلّا إليّ، ألا تعرف أنّي لم أنسك منذ افترقنا؟ ودومًا مشغولة بالبحث عن وسيلة تصلني بك، حتى اكتشفت صفحة لك. بكنيتك التي حدّثتني عنها يومًا. يا للخسارة، بعد أن مثّل لي اكتشاف صفحتك ميلادًا جديدًا، واعتبرتها هديّة من السماء، لتكشف لي خيبة أملي. أعتذر عن إزعاجي لك. وداعًا دون لقاء!».

ما إن أكمل رسالتها حتى تذكّرها. كاد قلبه يسقط، لكنّه عاد إلى تردّده: أيُعقل أن تُبعث من قبرها؟! كتب إليها: «أرجوك أن تذكري لي اسمك»، لتردّ: «غريب أمرك. لقد اعتذرت عن إزعاجي لك، فأنت لست من أعني. فلست ابن الحاج الذي عرفته، لكن هل أنت تعرف شنّوق؟». «نعم هو أنا. أرجوكِ اذكري اسمك!».

«إذن هو أنت. مؤلم أن لا أجدني لديك، أشعر بالمهانة وقد ظننت أنّك أول ما أناغيك ستعرفني. وسيقفز قلبك لاحتوائي. في الوقت الذي تتذكّر فيه طوب الأرض لا تتذكّرني. مؤلم جدًّا!».

«صدقت. طوب الأرض، نساء عرفتهنّ في مطلع شبابي، يوم هاجرت إلى مدينة على ضفاف الخليج، كان ذلك قبل أكثر من أربعة عقود، بعدها عدت لأستقرّ. وتلك الأسماء تعود لنساء عشت معهنّ أحلامًا بائسة، وعلاقات واهمة. أكيد أنّك أنت مررت أيضًا بفترة مراهقة، وتعرفين تلك الأحلام والتجارب المعطوبة!».

«لن أطيل عليك، وسأطرح عليك سؤالًا أخيرًا، إن عرفتني كان بها، وإن لم تعرفني، فسأدعك وشأنك. واعتبر الأمر لم يكن. هل تتذكّر فتاة ارتبطت بك بعلاقة ما، بالتحديد عام 1984؟».

إحساس بغليان داخل جمجمته. وخرير يجتاح أوردته. بعد أن تيقّن بأنّها هي. ارتبك وهو يعيد قراءة سؤالها، غير مصدّق وقد خالط إحساس بدوار وغثيان مفاجئ. خيّل إليه توهّج الظلمة من حوله. أغمض عينيه في خوف للحظات محاولًا استعادة هدوء أعصابه، مردّدًا: ثلاثون سنة منذ رحيلها، كيف تعود لتعاتب نسياني؟ كيف أبدو الآن أمامها وقد استعرضت كلّ تفاصيل حياتي؟ أيُعقل أن تكون على قيد الحياة؟ لكن كيف تعود من الموت؟! ليست هي أنا على يقين بأنّها ليست هي! هدأ بعض الوقت يمسح جبينه. مردّدًا: قد تكون إحدى صديقاتها. وقد ثرثرت إليها يومًا بما كان بيننا.

عاد يحتضن جهازه بأصابع راجفة. ما إن كتب إليها: «من أنتِ؟!»، حتى ردّت: «لم تعرفني إذن. أو أنّك لست شنّوق». ردّ: «هل تريدين القول إنّك «البندرية» وإنّ الأموات يُبعثون من جديد؟!».

– الآن وقد عرفت اسمي، أنت إذن شنّوق، فلماذا تنكرني؟!

– لكنّك لست هي، البندرية قُتلت، فمن أنتِ؟

– لم أفهم كيف أكون أنا ولا أكون!

– قد تكونين مقرّبة منها، وتعرفين بعض حكايتها!

– وهي أين ذهبت حتى أحلّ محلّها؟!

– إن كنت مقرّبة منها فأنت أعلم منّي بذلك.

– لا أعرف إلّا أنّني أنا البندرية، وإن كانت لديك حكاية أخرى فأخبرني.

– كيف تكونين أنت البندرية وقد قُتلت؟!

– قُتلت! أتريد أن تبحث لك عن مبرّرات لنسياني؟

– لقد قضت البندرية قتيلة وأخويها جمال وحنان في حرب 1994. فهل أردت أن تتسلّي؟ اعلمي بأنّه لا يجوز العبث بحكايات الأموات! وأرجوكِ إلى هنا وكفى.

– لا تزال كما عرفتك. لم تتغيّر، عندما تريد التملّص تبحث عن مبرّرات واهية. ألم تجد إلّا الموت لي عذرًا لك؟ في الوقت الذي توقعت منك أن تعتذر لنسيانك!

– لن أزيد، أستحلفك بخالقك، كفى عبثًا بحرمة الأموات.

– تستحلفني بخالقي؟ منذ متى كنت مؤمنًا بالله حتى تستحلفني بخالقي؟ أم أنت تدّعي أنّك رجعت إلى الله، وتركت التشدّق بمقولة ماركس بأن الدين أفيون الشعوب؟ كان عليك البحث عن مبرّر أقلّ إيلامًا من أن تدّعي موتي وموت إخوتي. لو كنت صادقًا لسألت عنّي وبحثت عن طريقة للتواصل بي كما ظللت أنا أبحث عنك طيلة عمري. أنا البندرية، ولست إحدى قطيعك، ولا أتلاعب بك. أهفو إليك منذ عرفتك. حدّثني بلا لفّ أو دوران، هل ما زلت تحمل لي عاطفة ما؟

انتظرت ردّه، لكنّه ظلّ صامتًا، فأرسلت أخرى وكأنّها أرادت التأكيد أنّها هي: «طمئنّي عليك، هل ما زلت تعمل في إحدى المنظّمات التي أعرفها، أم عدت إلى حياة القرية، تلك التي كنت تحدّثني عنها وتتمنّى أن نعيشها معًا؟ أتذكر أنّني كنت أغبطك وأنت تحدّثني عنها بشجن، فهل عدت إليها؟ قد تجد بعض أسئلتي غريبة الآن، لكنّي أحاول أن أذكّرك ببعض ما كنّا نتحدّث عنه ونحلم به.

هل مازلت تخرج فجرًا إلى أطراف مدينتك، ذمار، كما كنت وقتها عندما كنت تصطحبني وتتركني أنتظرك بداخل السيارة، تذهب مهرولًا على التلال وحول المزارع، وحين تعود مبلّلًا بالعرق لاهثًا، أحتضنك وتلك الرائحة التي عشقتها تفوح منك، فتحرّك السيارة لنعود مشيرًا: أترين المدينة تتثاءب؟ شبيهة بامرأة تنهض من فراشها قبل أن تضع الكحل والمساحيق، هكذا أحبّك.

هل ما زلت تذهب عصرًا إلى أطراف المقبرة الكبيرة، حيث كنت تتركني في السيارة في مكان ما أتابعك بعد أن أدير أغنية لفيصل علوي، تكمل مشاركتك في مباراة كرة قدم، لتعود قبيل المغيب منهكًا، تشرب الكثير من الماء، بينما يصطبغ وجهك عرقًا غزيرًا أرقبك من خلف المقود وأظلّ حتى توصلني إلى مقربة من سكني؟

أنا البندرية يا شنّوق وهذا بعضي. فهل ما زلتَ مُصرًّا على قتلي؟!».

37

تغيّرت طقوس شنّوق بوجود غزال في حياته، ولم يعد يلهث في سهراته وراء قطط الفيسبوك، وجدها تسابق الزمن معه، تغتنم الملذّات وتستهلكها معه في وقت واحد. لكنّ ظهور البندرية جعله في حيرة، مقارنًا بينهما، فغزال جموحة ومتجدّدة، إذ إنّ مزج ممارسة الحبّ بالحكايات أمر يمنحه نشوة من نوع خاصّ. الجمع بين الطعام والمتعة. وتلك الأساليب التي ربطت كلّ شيء بالمتعة. يفكّر في دوافعها لكلّ ذلك النهم، يبحث في أحاديثها عن ذاتها، لتزيد من حيرته حين سألته: – هل جرّبت استخدام أجزاء بدنك؟

يردّ متعجّبًا:

– أنتِ لم تبقي شيئًا!

– أريد كلّي أن يستلذّ.

أمسكت بإحدى قدميه. قبّلت أصابعه، إصبعًا إصبعًا، وضعتها بين فخذيها، وهي تتأمّل عينيه مبتسمة. هامسته: – سنتحدّث الليلة وأنا أمارس مع أصابعك، سأحكي لك عن نفسي. شريطة أن تحدّثني بعد ذلك عن نفسك بعد أن تختار شيئًا من بدني تمارس معه. وعليك أن تستمتع وتفكّر بطرق لم تطرقها للمتعة.

يهمس مندهشًا:

– خذي منّي ما تريدين.

– لي إخوة. الأكبر من زوجة أبي المتوفّاة، وأخ وأخت من أمّي التي تزوّجت بعد وفاة والدي إلى قرية مجاورة. تعلّمت إلى الصفّ السادس، حتى أجدت القراءة والكتابة، قد تتساءل لمَ لمْ أكمل دراستي؟

– ها أنا أسألك!

– بعد موت أبي أخرجني أخي الكبير من الأول الإعدادي.

– مؤسف.

– كان أبي يناديني على الدوام بـالدكتورة، ويردّد: «إن أعطاني الله العمر فستدرسين حتى تعرفي أن تعالجي الناس»، ليجيبه أخي في كلّ مرّة: «البُنية يا أباه ما لها إلّا الزوج أو القبر»!

يردّ عليه بصوت حانٍ:

– العلم سلاح.

– إن كان كذلك، فلماذا أخرجتني من المدرسة؟

– أنت أكبر إخوتك. وأنا كما تراني كبرت، فمن يعولهم؟

كان أبي قد بلغ من السنّ ما قيّد حركته. بعد موته تزوّجت أمّي، وقام أخي الأكبر مقام والدي. أول خطوة قام بها كانت منعي من الذهاب إلى المدرسة، لأنشغل بجلب الحطب والماء، وبالغسل والطبخ. لم أتذمّر، كنت راضية بما أنا فيه. لكنّه ظلّ ينهرني ويشتمني، كي أجتهد في سبيل إرضائه، ثمّ فجأة بدأت تلين كلماته، حتى إنّها أمست غريبة عليَّ. في بداية تغيّره ظننته يشجّعني ويستحسن ما أقوم به، لكنّ نظراته بدأت تقلقني، إذ بدأ يرمقني بنظرات حانية، تجاوزها إلى طلبه أن أجلس عند تناول الطعام إلى جواره، يمسك بيدي ويتأمّل عينيّ كأنّه يريد أن يقول شيئًا، حتى ذلك اليوم الذي أرسل فيه أخي وأختي لزيارة والدتي، محمّلين بحبوب ذرّة هديّةً لها على غير عادته. طلبت منه مرافقتهم، فقد اشتقت لها. لكنّه زجرني: ومن يقوم بواجبي؟

فاجأني مساءً وقد هبط عليّ بثقله، مزيلًا سروالي بعنف مخيف. صرخت ليطبق على فمي بكفّه، وبالأخرى يمرّغ شيئه بين فخذيّ، كانت أنفاسه ولعابه ينسكبان على وجهي ورقبتي. حاولت مقاومته، لكنّه ظلّ يرجوني: «لا تخافي، لن أفعل شيئًا يؤذيك!».

ظلّ للحظات يدلّك شيئه حتى بدأت أطرافه ترتعش، وكلماته صارت مبتورة، انزاح بعدها عنّي لاهثًا. لم يكن قد آلمني، لكنّه أخافني. تحسّست ما بين فخذي لأجد سائلًا لزجًا، ومن تلك الليلة أصبح مختلفًا، بل وأخذ يدلّلني، كنت أخاف أن يعاود إرسال إخوتي لكنّه لم يعد يحتاج إلى إرسالهم، ليفاجئني ذات ظلمة بتسلّله إلى فراشي. لم أقاوم خوف سماع إخوتي ما يدور. تركته ينجز ما يريد، وهكذا، أمسى يتسلّل إليّ بين ظلمة وأخرى، كان لدلكه بين فخذيّ ملمس ناعم وممتع، حتى إنّني أمسيت أتمنّى تسلّله، وذلك السائل لم

تعد رائحته مقرفة، وفي إحدى الليالي، وقد تملّكتني لذّة عارمة، أمسكت دون إدراك منّي بشيئه محاولة إدخاله، لينهال عليّ بكفّيه لطمًا وهو يهمهم: أيّتها الوقحة، أتريدين تمريغ شرفنا؟

خلال تلك الأشهر تفتّح بدني، نما صدري وبرز ردفيَ. ولاحظ أخي الأوسط تدلّلي على الأكبر. حينها خاف الأكبر أن يفضح سرّنا، فسارع إلى الزواج بفتاة كانت صديقة لي. لكن ما إن حلّت بيننا حتى وجدتني أكرهها، ودومًا أبحث عمّا ينغّص عيشها. أحسّ أخي الأكبر بتلك الحرب الصموت. ولم يكن لأحد غيره أن يعرف سبب مضايقتي لها، فسارع إلى تزويجي لأول طارق، أو ربّما هو من بحث عنه. أرمل من قرية مجاورة يكبرني بعشرين سنة تُوفيت زوجته أثناء ولادتها الثالثة.

غادر بي القرية حيث ترك أولاده بعهدة والدته العجوز وأخت له لم تتزوّج. أسكنني بيتًا في صنعاء من غرفتين على سفوح أحياء «السنينة»، هناك حيث تتجاور منازل العسكر والمعدمين ويستشري الفقر، تلك المنازل الشبيهة بصناديق متجاورة، تسيل بين أزقتها سوائل تفوح بروائح سوداء، كنت سعيدة بحياتي الجديدة. أمست لي صديقات من الجيرة، نقضي أوقاتنا في المزاورة والمجاملة. لكنّ ما نغّص عليّ كان انتقال زوجي مع معسكره إلى «صعدة». كنت أظنّ أنّها قريبة من صنعاء، لكنّ غيابه في أول مرّة تجاوز الشهر، بعدها عاد لليالٍ قليلة ثمّ تركني لأشهر. كنت خلال غيابه أعاني العوز والحاجة. ومع كلّ عودة له كانت تنشب الخلافات بيننا. وفي كلّ مرّة كان يقمعني مهدّدًا بإعادتي إلى القرية. شكوت حالتي لجاراتي، لأكتشف أنّهنّ يتدبرن أمورهنّ حتى عودة أزواجهنّ. تغيّرت حياتي بالتدريج. وتناقصت مشاجراتنا. بعدما أصبح يعود ليجد ما يأكل ويشرب، حتى إنّني أحيانًا كنت أوفّر له أغصان قات تكفينا لنمضغها معًا. يحدّثني عن أهوال الحرب هناك في مواجهات الحوثيين، فأدعو له بالسلامة. يسألني مستفسرًا كيف أتدبّر أموري، فأخبره كذبًا بأنّ إخوتي قد زاروني في غيابه، وأنّهم يسلّمون عليه. أصبح كلّما عاد يطلب ما ينقصه، وأحيانًا يطلب منّي أن أتدبّر له أجرة العودة إلى معسكره في صعدة. لا أعرف إن كان يعرف كيف أتدبّر أمري لكنّه يتواطأ معي، أم كان يجهل ما يحدث في غيابه!

شهرًا بعد آخر تعرّفت إلى حريم ميسورات، يعشقن الحياة. نلتقي في صالات الأعراس ومناسبات أخرى. لكنّ ما غيّر حياتي فعلًا هو عاشق كان يغدق عليّ بكرمه، ألجأ إليه في الشدائد فلا يبخل. هكذا استقرّت حياتي، إلى ذلك اليوم الذي وصل فيه أحد الجنود يبلغني بخبر قصم ظهري: «نبلغك بشرف استشهاد زوجك وهو يدافع عن حياض الوطن ببسالة منقطعة النظير!». تلك الكلمات لا تزال عالقة في ذهني، كان ذلك في الحرب السادسة. تلك الحروب التي خاضتها السلطة على «الحوثي» في جبال مران بصعدة، على الحدود المتاخمة للسعودية.

حضر إخوتي وأقارب زوجي لاصطحابي وجثمان زوجي إلى القرية، أدركت يومها أنّني أمسيت على مفترق طرق، وأنّ أيّامي في صنعاء قد انتهت، وأنّني عائدة إلى جحيم لا أعرف لونه. صباح اليوم التالي لوصولهم، تأهّبت للرحيل معهم إلى القرية لدفنه هناك. حمل إخوتي أمتعتي إلى السيارة التي ستقلّنا. وقفت وحيدة وسط غرفتي الخاوية تغشاني الحيرة وتتقاذفني الرغبات، سائلة نفسي: أبهذه البساطة ينتهي كلّ شيء. تمنّيت لحظتها لو أنّي لم أعرف صنعاء، وأنّ زوجي أسكنني القرية. لبرهة، كان قلبي يركض بشدّة حتى تخيّلت أنّ الجميع يسمعون طبوله. لا أعرف ما عليَّ فعله بينما الأصوات من خارج البيت تستعجلني: هيّا اخرجي، الناس يستعجلوننا!

فكّرت في ما أنا فيه وقد تملّكتني رغبة للبقاء في صنعاء. صور صديقاتي تقاطرت في ذهني. تلك الأماكن التي أعرفها. رأيت صنعاء كبيرة، ذلك العاشق الكريم، سمعت نداء أعماقي: هيا أفلتي، لن يعرفوا طريقك، فرّي بسرعة!

لا أعلم أيّ جرأة تملّكتني حين خرجت وقد لففت قامتي بستارتي الملوّنة، لأواجه أخي: – لحظة، سأذهب لأودّع جاراتي.

صرخ غاضبًا:

– لا لحظة ولا اثنتين، هيّا السيارة تنتظرنا!

همّ بسحبي من ذراعي، إلّا أنّ نفرًا ممّن كانوا يقفون إلى جواره رجَوه أن يتركني لأودّعهنّ. امتدّت اللحظة تلك إلى أيّام وشهور بل وسنوات. وحتى اليوم ما زالت تلك اللحظات ماثلة أمامي. لم أحمل معي شيئًا، حتى هاتفي لم أتذكّر أين غطس! هرولت عبر الأزقة كالمجنونة بالاتّجاه المعاكس، حتى صرت أسفل المنحدرات. ابتعدت وأنا أتخيّلهم ينظر بعضهم في عيون بعض مذعورين

بعد مرور الدقائق، ثمّ يهرولون في كلّ اتّجاه، يطرقون الأبواب، يسألون العابرين. أرتجف وأنا أتصوّرهم يقتربون في إثري، أشعر بلهاث أخي الكبير يلفح رقبتي، فأسرع خطاي بدون تفكير.

36

ليلة بعد أخرى، يعود إلى رسالتها الأخيرة، تلك التفاصيل الصغيرة تزعزع قناعته بأنّها لم تقتل، لكنّه ظلّ يقاوم الردّ عليها، هو بحاجة إلى وقت ليزيح قناعة أثقلت روحه لعقود ثلاثة، ظلّ على موقفه بعدم الردّ، حتى وجد نفسه ذات مساء يرقن وكأنّه مسيّر، أو كأنّه في حلبة صراع. «مهما أوردت من تفاصيل تظنّين أنّها مقنعة، فأنا غير متقبّل أنّ الأموات يُبعثون. بدوري، أتمنّى لو تقرئين صحف حرب 94، تحديدًا أعداد شهر أغسطس، التي أوردت جداول قتلى دخول قوّات الشرعية مدينة عدن. وكان اسم البندرية وشقيقها جمال وصغرى أخواتها ضمن تلك الأسماء. هي لم تمت بداخلي. ولم أبحث عن مبرّرٍ لنسيانها. فأنا لم أنسها. فقط لم أتوقّع يومًا أن تراسلني متوفّاة. فإن كنت تجلّينها فاتركي العبث بها وبي!».

«لا يهمني هذيانك، فقد عرفتك معاندًا حدّ التطرّف، وما يهمّني هو أنّني وجدتك، وأنّك بخير. لا أريد منك شيئًا، فقط لأنّني أمرّ بظروف صعبة بعدما أقعدني مرض شلّ حركتي، فلا أستطيع التحرّك إلّا على عربة. وهذه الحرب الظالمة على اليمن جعلتني أكثر مرضًا وقلقًا، لذلك تصيبني نشرات الأخبار بالرعب.

آمل أن ألتقي بك يومًا بعدما تأكّدت من أنّك ما زلت على قيد الحياة، فنسير معًا في أزقة صنعاء التي أعشقها وأخاف عليها من الدمار. أرجوك حدّثني عن وضعها. هل تضرّرت؟ حدّثني عن قوس باب اليمن الملوّنة حجارته، الذي كان يشعرني حين أعبره باحتضانه لي، وهل ما زالت روائح التوابل في السوق القديم؟ حدّثني عن صخب المارّة عندك. سكون الأزقّة ليلًا والوجوه المستبشرة وهي تسير في دروب الصباح. الزخارف التي رأيناها معًا من

أسطح سمسرة النحاس، نزل العثمانيين القديم. دور الأحياء العتيقة وقد احتشدت متجاورة كأنّها في عرس جماعي. منارات الجامع المقدّس المشرئبّة نحو السماء. دار الذهب بعلوّها الباهر. حدّثني عن حمّاماتها التركية الجماعية، مطاعمها ومقاهيها! أرجوك جُلْ وتسكّع في ظلالها من أجلي، واترك لروحك أن تصلّي على أرصفة أحجارها العتيقة، ولعينيك أن تبتهلا في بياض قبابها وتغتسلا بدفء رذاذ أمطارها، زرها مرّة، وصلِّ فيها لأجلي، لأطمئنّ أنّها غلبت الحرب».

شعر بدموع عينيه تنساب. أيقظته كلماتها. وكأنّه يسمع صدى صوتها، ذلك الصوت المحبّب إليه، ليتراءى له أنّ ظلمات روحه تعبق بألوان لم يرها من قبل، ظنّ أنّه الجنون. أعاد قراءة رسالتها، ثمّ أخذ يرقن «حتى لو كنت البندرية، فأنا بحاجة إلى سنوات وسنوات كي أتجاوز فقدك، فكيف أُشفى من يقين مقتلك؟ فإن كنت أنتِ هي فهلّا ساعدتني على تجاوزه؟ سأعترف لك بأنّي منذ ادّعائك أنّك البندرية أمسيت شخصين، شخصًا يكتب إليكِ متصنّعًا قناعة زائفة، وشخصًا آخر مقتنعًا بمقتلك. فهلّا حاولتِ مساعدتي لأعود كما كنت بشخصية واحدة؟ ساعديني لأشفى من تأثير السنين.

حزين يا سيّدتي جدًا جدًا لحالتك الصحّية، وسعيد لأنّك على قيد الحياة. وإنّه لأمر يبعث على الحيرة. فلو كنت قُتلتِ لما كاتبتني. هل تقيمين في عدن؟ وإن كان فهلّا زوّدتني بعنوانك؟ أم انتقلت إلى مدينة أخرى؟ فقلقك وشوقك لصنعاء يوحي بأنّك بعيدة عنها. سأزور المدينة العتيقة من أجلك، وأطوف في أحيائها وأصلّي كما طلبت على حجارة أزقّتها، وسأكتب إليك بما هي تعيشه».

للحظات يقتنع بنجاتها، لتغشاه حالة من السعادة، متلهّفًا لأن يكتب لها المزيد من التفاصيل الحميمة، حتى يتعافى من يقين رحيلها.

لكنّها لم تترك له فسحة للحوار مع نفسه، إذ سريعًا ما وصله ردّها: «مضحك أمرك. فبدلًا من أن أتلقّى اعتذارك، أجدك تصوّر نفسك ضحيّة، منكرًا أنّي من تخاطبك، مصمّمًا على قتلي. تلك التفاصيل الصغيرة التي لا يعرفها سوانا ألم تقنعك، لتمضي في قتلي؟ عد إلى أيّامنا إن كان ما كنت تردّده عن حبّك لي صحيحًا، ثمّ اسأل قلبك، أم أنت لا تحمل قلبًا؟ ورغم ذلك ما زلت أعشقك وأشتاق إليك، لم يعد شوقًا غرائزيًا بل صار شوقًا روحيًا، أتمنّى رؤيتك، تأمّل وجهك الضخم، عينيك الصغيرتين، فمك حين يضحك وقد فُتح على

اتّساعه كأنّك تصهل، ليتحوّل وجهك إلى وجه دمية، وتلك الندوب المنتشرة على أطرافه. أتمنّى أن أرى ظلال قامتك السامقة. حين نلتقي ستجد أنّني ما زلت أحتفظ بتلك المشاعر التي حملتها يومًا تجاهك، ولم أدع السنين تعبث بها. صحيح أنّنا عشنا سنة أو تزيد قليلًا معًا، لكنّي أشعر بأنّها عمري كلّه. ففيها تذوّقت أولى المشاعر، وبكارة النشوة، ومنها استمددت عوالم سكنتني ولم تبرح تتفاعل فيَّ.

وأعترف لك بأنّي حاولت التخلّص من مشاعري نحوك، حتى أعيش حياتي. حاولت أن أنظّف ذاكرتي منك بسحق مشاعري، لأجد أنّ حبّي لك متجذّر في كياني، فكلّما سعيت لحبّ رجل، أجدك وقد استبطنته، وأجده يذكّرني بك بدلًا من أن ينفيك، فكلّ محاولة حبّ لي تنتهي بالفشل، لأكتشف أنّ حبّي لك مثَّل لي عاهةً مستدامة، حرمني من العيش كبقيّة النساء.

ثمّ إنّ هذا المرض الذي أقعدني كنت أنت السبب في ابتلائي به. وكان أملي حين أجدك أن تساعدني على استعادة حياتي. لكنّي أجدني قتيلة لديك، مرفوضة منك. فلمَ كلّ هذه القسوة والنكران؟ أرجوك ترفّق بي، فقد ابتُليت بأحزان كثيرة، كنت أنت المسبّب لها».

35

الليلة الأولى كدت أنام في الشارع، بعدما صدّني العاشق الكريم، حيث اتّصلت مستنجدة به من محلّ اتّصالات. أجهشت باكية: «أستنجد بك، لقد قُتل زوجي ويريد إخوتي إعادتي إلى القرية. هربت منهم ولم أجد مكانًا يؤويني، أريد...» فجأة قطع الاتّصال، ظننت السبب خللًا في الشبكة. عاودت ضغط أرقامه عدّة مرّات لكنّي لم أسمع إلّا رنينًا باردًا. كنت على يقين بأنّه لن يخذلني، أخبرت عامل المحلّ بأنّ هناك خللًا. طلب منّي الرقم، وبعد أن جرّب هزّ رأسه كمن يواسيني وقال:

– التلفون الذي تريدينه مغلق!

– مغلق؟ أرجوك جرّب مرّة أخرى، لقد ردّ عليَّ قبل قليل.

– إذن أغلقه بعد سماع صوتك!

قهرني ذلك العامل بتأكيده ذاك. خرجت من المحلّ وقد عرفت أنّني أخطأت في تقديري للأمور. وقفت بعدها محبطة أنظر في كلّ الاتّجاهات بخوف ورهبة لم أذقهما من قبل. أستعرض صديقاتي. لم يعدن كثيرات كما كنّ بالأمس. اخترت أقربهنّ إليَّ مكانة. لكنّهنّ اعتذرن واحدة بعد الأخرى عن مساعدتي.

مع اقتراب المساء، تملّكني ذعر وقد أمسيت مهدّدة بالبقاء هائمة على وجهي. كلّ شيء حولي برائحة الضياع. جلست حيث أنا وقد أصابني شلل مفاجئ. زادت دموعي واشتقت إلى أمان منزلي، لدفء فراشي. في لحظة عجز فكّرت في العودة، وصرت أفتّش بين الأعذار عمّا يشفع لي أمام إخوتي، لكنّ وجه الكبير أطلّ مكشّرًا، وكفّاه تنهالان عليَّ، عندها عرفت أنّ المضيّ بعيدًا أجدى من مغامرة العودة. مسحت عينيّ وأنا أردّد ما حفظته من القرآن

الكريم. وعاودت البحث عن بقيّة صديقاتي. ومن وسط عتمة يأسي أشرق وجه إحداهنّ. أرملة تعيش مع أمّها الهرمة... جمعتنا بعض ليالي المتعة. هي عطوفة وتحبّ المغامرة. سرت باتّجاه بيتها وأنا أدعو الله أن لا يخذلني. طرقت بابها متهالكة، شرحت حالتي باكية، بعد تردّد، أدخلتني خلسة خوف أمّها، أمست تتقلب جواري بانتظار الضوء كي أمضي، وبالفعل ما إن أقبل الصباح حتى جلستْ جواري تنظر إلى وجهي وبادرتني بصوت منكسر:

– والآن ماذا تنوين؟

– لا شيء، سأعود إلى الشارع!

– ألم تفكّري في العودة إلى إخوتك؟

– سيقتلونني.

نظرت إليّ ساهمة، ثمّ احتضنتني:

– تقدّرين وضعي، فأنا أعيش مع أمّي، وأمّي إن عرفت...

حاولت كتم بكائي، فزادت من ضمّي إلى صدرها تشاركني شهقاتي. ثمّ احتضنت وجهي بكفّيها تمسح دموعي: لقد فكّرت لك في حلّ!

تأمّلت وجهها، كان بؤبؤا عينيها يهتزّان وفمها مشرعًا عن ابتسامة، لم أنطق بشيء، أضافت: هيّا سأخرجك.

سرت بجوارها وهي تحدّثني عن امرأة تستقبل من يردن التفقُّه في دينهنّ. قالت بصوت فرح: «بيتها ليس ببعيد عن هنا. حدّثتني عنها بعض ممّن حضرن دروسها. فقط إيّاك البوح بأنّك هاربة، أو بأنّك أرملة. عليك أن تفكّري في حكاية مقنعة تحكينها لها. هي امرأة بنت شيخ علم كبير، والأهمّ أن تنسي حياة الأمس، وصِلاتك ببنات الأمس، حتى أنا انسيني. وجودك إلى جوارها يعني أنّك فتاة وهبت نفسها لله.

أوصلتني إلى أول الشارع. دسّت في صدري القليل من المال، وودّعتني دامعة وهي تلهج بالدعاء.

عرفت بعدما التحقت ببيت تلك الحرمة أنّ تلك الدروس التي تنظّمها هي بهدف تربية البنات على طريق الله، وقد توزّعت بين دروس منزلية ودروس دينية. ألحقتني ضمن من يخدمن في بيتها.

يوم قابلتها اختلقت حكاية لأستدرّ بها عطفها، حكيت لها أنّي قادمة من الريف، وأنّي خفت الله من زوج أمّي الذي أراد منّي ما يريده الرجل من

زوجته.

سألتني: «ألم تتزوّجي.»

أشرت بالنفي بهزّة من رأسي وعيني دامعة.

ردّدت وهي تتفحّصني من خلف نظارتها: «لا بأس عليكِ، سيرزقك الله بالزوج الصالح».

كانت تتحدّث بصوت هادئ، تسبق كلماتها ابتسامة آسرة أشعرتني بأنّي في أمان. أردفت: «ستبقين في خدمتي، وهنا ستعرفين الكثير عن دينك».

وأمسيت ضمن عدد كبير من الخادمات، لأجد نفسي خادمة للخادمات، ظننتها فترة وتنقضي، لكنّها دامت أشهرًا.

أول درس حضرته كان بعيد صلاة المغرب. كنّا في باحة مسجد ملحق بعدد من المباني. جلستْ شيخة على كرسيّ وثير في قلب بهو فسيح وقد تحلّقت حولها حريم كثر، كان الدرس عن أخلاق حريم النبي، لم أفهم شيئًا من تلك الدروس، فدومًا كنت أحضر بعقل شارد وعينين زائغتين. تجاوزت أشهرًا هناك ولم أشعر بأيّ سكينة أو أمان، فالجميع هنا يراقب الجميع. كان الظاهر عكس الباطن، فتلك الدروس تعدّ الحريم لمآرب غامضة. وجوه تختفي وأخرى تظهر. وذلك الحضور كان فيه المصرية والشامية والسودانية. كما كنت أسمع عن مجموعات يُكلّفن بأعمال خيرية تخدم الشيخ الأب وجماعته. كنت قد بدأت أقلق. وبدأت أفكّر في الهرب من ذلك الحصن. وقبل أن أقدم على ذلك، قالت لي إحدى الشيخات: «عليك الرحيل».

فجأة شعرت بالإهانة، وكأنّي لم أكن أفكّر في الهرب أصلًا. سألتها عن السبب. ردّت بصوت قاسٍ: «أنت كذوب! احمدي ربّك أنّ الشيخة تركتك بدون عقاب».

عندما أصبحت خارج أسوار ذلك الوكر بـ«بقجة» أحملها من ملابس وأشياء أخرى، لم يعد يهمّني إلّا أن أتدبّر أمري.

أحكي لك ما أكتمه بداخلي عن جميع الخلائق، لتعرف ثقتي بك.

– ولماذا تحكين لي دون من تعرفين؟!

– أريد أن أتقرّب إليك بمتاعب تعذّبني، وأن أعترف لك أيضًا بأنّ اسم غزال ليس اسمي.

34

رسالة بعد أخرى تؤكّد أنّها هي، وإن ظلّ موتها مستقرًّا في أعماقه. كي يخفي صراع روحه، يجتهد في محو سنوات موتها من داخله، بأن يكتب بواقع جديد.

«سيّدتي، أرجو أن تدركي أنّ ظهورك أعادني إلى أيّام أحبّها. ومثلما تعانين من ظروف المرض ومن ذكريات الماضي، ومثلما منح وجودي حالة أمل، أنتِ بالمثل مثّلت لي عودة أجمل أيّامي، نافذة جديدة، لكن أرجوك أن تتيقّني بأنّي لم أبتكر موتك. أنتِ تعرفين ظروف حرب 1994، أيّامها كنت قلقًا عليك، باحثًا عن خيط يصلني بأخبارك. تابعت ما تنشره الصحف عن تلك الحرب، حتى نشرت تلك الجداول لضحاياها في عدن. لحظتها شعرت بسقوط جزء من روحي. اليوم، هذا النقاش المحتدم بيننا حول موتك وعدمه، هو صراع مع ذواتنا. أحاول أن أتخلّص من يقين سكنني حول حبيبة سُفك دمها. وبقيت أعايش موتك أكثر من ثلاثين عامًا. أن أستعيد قناعتي بوجودك. قد لا تدركين صعوبة التخلّص من سنوات طويلة عشّش الموت في كلّ تفاصيلها. أن يعيش شخص ثلاثين سنة وهو يعلم بأنّ من أحبّ لا يرى الشمس، أو بصيص ضوء، ثمّ يجده وسط أضواء متداخلة. أرجو أن تعرفي مقدار الندوب التي تتركها الحروب فينا، لنكتشف أنّها لم تغادرنا يومًا، ولذلك، حين أكتب إليك عن سعادتي باكتشاف وجودك في هذه الحياة، فإنني أقاوم قبحًا مقيمًا بداخلي. أتمنّى أن تتحسّسي كلماتي برفق، فهي تحمل روحي إليك. عرفتك صاحبة قلب نقيّ لا تتعثّرين بالأمور الصغيرة، أنت من كنتِ تثيرين البهجة أينما حللت. أنت واحة من التسامح والمحبّة، وبعودتك أستعيد نفسي.

ظهورك من جديد يبعث فيّ أيّامًا عشناها معًا. أحاول استحضارها لأزيل قبح الحاضر. فبعد تلك الحرب لم يأت إلّا التشرّد والشقاء، هي دعوة لك لأن

تساعديني. عزيزتي، كم أسعدني خوفك عليَّ، وخشيتك على المدينة العتيقة من الدمار. أمس ذهبت لأطوف بأزقّتها وأحيائها، وأسواقها التي تعجّ بروائح الماضي وأصوات باعتها، جلت في «خاناتها» وهبطت حمّاماتها الساخنة في باطن الأرض، وقرأت سلامك على منارات صادفتها، وعلى كلّ قباب أطلّت ببياضها، وعلى سكون أزقّتها. ثمّ صلّت عيناي من أجلها، من أجل زوال الحرب التي هدمت الكثير، وقتلت وشرّدت، وما زالت رعشات الرعب تغشاها.

أكتب إليك وقد اقتعدت خلف نافذة بالدور الرابع، في إحدى دورها.

ولتعلمي أنّ المدينة تعيش حالة سريرية من البطش وتسلّط رايات الدم، ورغم ذلك تنتظر الفجر.

سألتني عن عملي، وهل أعمل في إحدى المنظمات الإنسانية. لم تعد هنا منظمات إنسانية منذ اندلاع الحرب. لقد أُغلقت جميعها، وغادر من كانوا يعملون فيها من الأجانب.

ذكرتِ في رسالتك أنّي كنت أمارس رياضة الجري ولعب كرة القدم. اليوم صنعاء تنام بُعيد مغيب الشمس، لتحتلّ شوارعها قطعان الكلاب، ومجاميع مسلّحة، وأسراب بائسة تبحث بين أكوام المخلّفات عمّا يسدّ رمقها.

لم يعد أحد يجرؤ على الخروج ليلًا، فما بالك عند الفجر ليمارس الجري. ولعبة كرة القدم أضحت مضيعة للوقت. أزقّة الأحياء هوامش معتمة، وكأنّنا نعيش في مقبرة كبيرة تُحتضر فيها حتى السحب العابرة. القراءة فقط هي ما يذكّرني بأنّي على قيد الحياة. وأعترف لك بأنّ الفضل يعود لك في عشقي للقراءة، فالكتب التي كنتِ قد أهديتِها ل هيي ما أدخلني هذا العالم السحري. وبفضل كتبك أجدني اليوم قد ورثت عنك الكثير.

اسمحي لي اليوم بأن أشكو لك قسوة غربتي، فمنذ سنوات أتخفّى بعيدًا عن عيونهم المنتشرة في كلّ مكان. حتى الريف الذي ظننته يومًا نظيفًا وجدتهم قد سبقوني إليه، كلّ الوجوه دون أفواه. فقط تشرئبّ بعيون وآذان. الكلّ يراقبك، يعدّ أنفاسك. وأجدني أتخفّى بظلمة سكني، أتنفّس عريي. مع الضوء، أفتح نافذتي لأطلّ على النهار، أصبحت متعتي رؤية المارّة، عمّال الحوانيت المحيطة بالصرحة الفسيحة، عراك الصبيان، غناء شجيّ قد يتسرّب من نوافذ الدور المحيطة، انزلاق خيوط الشمس على القمريات الملوّنة، تهجّد المآذن والقباب البيضاء.

لكنّ متعتي بعد ظهورك أصبحت استعادة لحظات عشناها معًا. تلك الليالي التي كنت تقفين فيها كتمثال أبنوس مصقول، تهتزّين بقامتك الرشيقة حدّ الإغواء. سرّتك المشتهى تقبيلها، ضفائر عانتك المتطايرة كسياط نارية حين تهتزّين راقصة. أنتشي لعريك إلّا من منديل أسود تحكمين به حول شعر رأسك، وأتذكّر اللحظة أنّني لم أرَك قطّ بدونه، حتى في لحظات نشوتنا، لتدفعني رعونتي في إحدى ليالينا إلى محاولة إزالته، مستغلًّا لحظات نشوتك. لكنّك فاجأتني ليلتها بصفعة مدوّية، ظلّ طنينها يصمّ مسامعي لبعض الوقت. لم تكوني لحظتها أنت.

بتلك الذكريات أحاول تجاوز يقيني بموتك. أخاطبك كما لو لم أقرأ ذلك الخبر يومًا».

«أسعدتني برسالتك وقد طفت في أزقّة صنعاء من أجلي. ذلك جميل منك. لطف أن تتذكّر شذرات من حياة عشناها معًا، لكنّك أفسدت لقاءاتنا الحميمة وأنت لا تتذكّر إلّا كيف هويت عليك بكفّي دون إرادة منّي. أتذكّر أنّني بكيت يومها بين يديك معتذرة، ظنًّا بأنّي بدموعي قد محوت ذلك من نفسك. لكنّك حتى اليوم ما زلت تتذكّر ذلك. فلماذا تفسد رسالتك؟ ما الذي تريد قوله؟ ألم تفكّر في أنّك ستجرحني؟ أما زلت مثلهم ترى أنّ كفّ امرأة حتى لو كان في لحظة نشوة، خطيئة لا تغتفر؟

وفي المقابل لا تتذكّر قسوتك عليَّ، أو ثوراتك التي لا تُعدّ. أنا سأذكّرك ببعضها. حين كنت تنفجر لأبسط الأسباب، تحطيمك لما تجده أمامك من أوانٍ، وإن لم تجد ما تحطّمه تأتي على زجاج النوافذ وتقذف بأصص نباتات الزينة كيفما كان، لتتركني بعدها وتغادرني فأنكفئ على نفسي دامعة.

أذكّرك بذلك المساء وقد شاركنا في لقاء سنوي لموظّفي المنظمة، يناقشون فيه ما أنجز، وكان لقاءً حميمًا أكثر منه رسميًا. كنت سعيدة بذلك الجمع لأنّه مثّل لي فرصة التعرّف إلى أكبر عدد من العاملين بمنظّمات تعمل في محافظات اليمن، وكان بين الحضور طبيب فرنسي، له سمعة جيّدة. وبعد نهاية اللقاء تقدّمت أنا نحوه، صافحته وتحدّثت إليه معرّفة بنفسي. أدهشني يومها حين ذكر لي أنّه قد سمع عنّي أخبارًا جيّدة، وهو يمدّ لي ببطاقة عرفت منها اسمه «جيرار». ثمّ ودّعني بقبلة على خدّي كما كان الجميع يقبّل بعضهم بعضًا. لم أعرف أنّك كنت تراقب ما يدور، لتتقدّم نحوي مغتاظًا، وأمسكت

بذراعي تسحبني بصورة مهينة لفتت انتباه من كانوا حولنا. وفي الخارج انهالت عليّ اتّهاماتك الجارحة، أتتذكّر؟».

33

«وكأنّك تبحثين عن سبب لتكيلي اتّهاماتك. سأتحمّل... ولتعلمي أنّني قد غفرت لك في حينها، فقط أستغرب لماذا لا تغفرين؟! لم تكوني يومًا بهذا النزق. وهذا ما يجدّد تساؤلي: هل أنتِ البندرية فعلًا؟!».

حين كتب تلك الأسطر القليلة. ظنّ أنّها ستكفّ عن نزق لم يألفه قديمًا، وستدرك تحاملها غير المبرّر، لكنّه فوجئ في ردّها تنتقي اللحظات السيّئة من ماضيهما، وأدرك أنّها لم تعد تلك النسمة التي كانت.

«لا أكيل لك، بل أذكّرك ببعض محاسنك إن أردت تصنيفها، وأذكّرك بمثالبك، ومنها ما كان منك ليلة دعوتني إلى مسكنك وقلت لي إنّك تعدّ لي مفاجأة. كنت متشوّقة، وقبل أن تخبرني سمعنا طرقًا على الباب. انتفضنا في وجل نداري عرينا وقد ظننّاهم عسكرًا أتوا لاقتيادنا. اقتربت أنت من الباب تستطلع الأمر، مشيرًا عليَّ أن أهدّئ من روعي. سمعتك تفتح الباب. أعقب ذلك صوتك تتحدّث إلى شخص لم أتبيّن من يكون، لكنّ هدوء نبرتك وتبادل الضحكات بينكما طمأنني بعض الشيء. ثمّ سمعت إغلاق الباب خلفك ليصمت بعدها كلّ شيء. ظننتك تُكمل حديثك مع الطارق خارج الباب وستعود، لكنّ الوقت كان يمرّ. الساعة الأولى، الثانية، نهضت أجاور الباب لعلّي أسمع حديثًا، لكنّي لم أسمع شيئًا. بعدها بدأت تتناهشني التخمينات. انتصف الليل وأنا أصيخ السمع. جرّبت أن أفتح الباب لأسترق النظر إلى الشارع، لأكتشف أنّه مغلق عليَّ من الخارج! أيقنت بأنّ من حضروا قد اقتادوك وقد أمسيت سجينًا، مكثت بقيّة الليلة أنتظر دوري، لكنّك تعود إليّ بعد شروق الشمس منتشيًا، تشرح لي كيف قضيت ليلتك مع صديق لم تلتقِ به منذ شهور.

أيضًا اسمح لي بأن أذكّرك بمحاسن أخرى. كان ذلك بعد انتقالي للعمل في صنعاء في بداية ربيع عام 1985. وأتذكّر أنّه كان يوم العطلة الأسبوعية، وقد دعوتك لنكون بمفردنا، شاكرة الله أن وهبني حبيبًا في غربتي، وأمسيت تمثّل لي الأمان، إذ إنّني كنت أرى أنّ كلًّا منّا يناسب الآخر، وكثيرًا ما راودني حلم بأن نتزوّج لتكتمل سعادتنا. وأتذكّر ليلتها أنّنا طبخنا طبق «القطار صفر»، ومع سفر الليل حملك الجنون لتطلب منّي الصعود وسط الظلمة عاريين لنتناول عشاءنا على سطح مسكني. ليلتها رأينا صنعاء معًا، مدينة تتنفّس الحبّ والأمان. شعرت ببرودة الليل. احتضنتني ثمّ تمدّدنا نتأمّل سماءً بدأت سحبها تزحف لتحجب ثريّات النجوم، لم يكن غير السكون، حين فاجأني بكاؤك. للمرّة الأولى أسمع حزنك. كان بكاءً شجيًّا، شعرت بالسعادة لمشاركتي دموعك. سألتك عن السبب، فأخبرتني أنّ رؤيتك لنجوم السماء أثارت شجنًا يسكنك منذ طفولتك في القرية. نسائم باردة دفعتنا للتداخل، رويدًا رويدًا توالج كلّ شيء فينا، لحظتها كانت السحب تواصل زحفها ملتهمة ما بقي من نجوم. ازدادت عتمة الوجود، وازددنا تمازجًا، وسط هطل مزن باردة على جسدينا. خلتنا نطير وسط لمعان برق ينعكس بقوّة على جسدينا وما يحيط بنا، تلاه هزيم رعود. تزايدت زخّات المطر انهمارًا، كأنّها تصهل لفرط اللذّة التي تمنّيت استمرارها دهورًا، فلم يرتوِ جسدي يومًا كما ارتوى تلك الليلة. أو أنّ السماء سكبت علينا من لبنها وبقينا ملتصقين، لتحملني بين ذراعيك هابطًا، بينما ظللت مغمضة العينين حتى لا أفقد متعتي، أو كنت فاقدة الوعي من فرط اللذة. فتحت عينيّ على دفء فراشي، انتابتني نوبة بكاء وأنت تحتضنني. لم ندرك أنّ هناك من كان يتلصّص لحظة وجودنا على السطح. حتى سمعنا وقع أحجار على نوافذنا. أتذكّر أنّنا لم ننم ليلتها. وقد توقّعنا اقتحام خلوتنا، وتحت وطأة الخوف مارسنا الحبّ بعنف مرّة أخرى كما لو أنّها آخر مرّة، في ذروة نشوتي هامستك: لمَ لا نتزوّج؟

وليتني لم أنطقها. فما إن سمعت همسي حتى تراخت ذراعك، وأعطيتني ظهرك ما بقي من الليل. بعدها لم ينطق أحدنا بكلمة. مع تسلّل الضوء، قبّلتني قبلة باردة ونهضت ترتدي ملابسك ثمّ انصرفت في صمت عائدًا إلى مدينتك القريبة. بقيت ساعات بين أغطيتي وصدى كلماتي يتردّد «لمَ لا نتزوّج؟». حين قلتها ظننتها نفس رغبتك أيضًا. أردت أن نكون قويّين أمام من يرجموننا، أن

أسير إلى جوارك في وضح النهار دون أن أخشى همس الآخرين. أن نجد ما ندافع به عن أنفسنا إذا ما اقتحموا أبوابنا. أذكّرك اليوم بذلك إن كنت نسيت ما كنت تفعله بي.

حين أعود إلى ذلك الماضي الذي يربكني ويبكيني كلّما استحضرته، أسأل نفسي: هل كان يحبّني حقًا كما أحببته؟

أتذكّر أنّك بعد تلك الليلة الماطرة انقطعت عن زيارتي شهورًا طويلة. حاولت التواصل بك دون جدوى. كنت أريد أن أعتذر لك عن أحلامي. أن أقول لك إنّني لا أريد منك شيئًا، فقط أن تعود إليَّ، لنظلّ معًا، لكنّ غيبتك طالت أيّامًا وشهورًا. ولم تعاود زيارتك بعدها إلّا مع شتاء نفس العام.

لا أقصد من تذكيرك هنا إلّا أن تخفّف من غرورك، وأن تعرف أنّك كنت تدمي قلبي مرّة بعد أخرى.

أعترف لك بأنّني تردّدت في إرسال هاتين الرسالتين، لأنّي حتى اليوم لا أريد أن أفقدك من جديد. وأتمنّى أن تحذفهما فور قراءتك لهما!».

32

في كلّ مرّة تهبط إليه غزال، يحملها الأمل بأن تسمعه يحدّثها عن نفسه، أن تشاركه حكايات ماضيه. لكنّه ما إن يبدأ بالحكي حتى يذهب بها إلى مواضيع أخرى. تحاول دفعه لإخراج المخبوء، تحتضنه كطفل عملاق يتأتئ، هامسة: – إن كنت لا تريد فليكن. لكنّني أريد أن تخفّف عن نفسك، أن أشاركك، كما تشاركني، لتشعرني حين أحكي بأنّي أهمّك.

– لكنّي لم أتعوّد الشكوى للآخرين!

دمعت صامتة، وهو لا يزال يحسبها من الآخرين... تشعر بظلم الحياة لها، مدّ أصابعه بعدما شعر بزفرات أنفاسها، وشرع يمسح بلل خدّيها، ثمّ ضمّها إلى صدره، لتجتاحها نوبة نواح حزين.

أخذ يتمتم: لستِ المطاردة الوحيدة، فعليكِ أن تعلمي بأنّني أيضًا مطارد. فنحن نتشارك نفس الخوف. تتخلّل أصابع يده شعرها وقد ازدادت مشاعره تجاهها حنوًّا، وأمسى يراها أقوى منه، رغم ما تعيشه من ظروف قاسية... بل وأشدّ قسوة منه. لكنّها، على عكسه، لم تستسلم لخوفها، بل سعت لمواجهة الحياة، بينما يرى هو في الناس مكامن محتملة للغدر، وفي عيونهم عسسًا يرقبونه. قبّلها مواسيًا، في الوقت الذي كان هو يحتاج إلى من يواسيه.

فاجأته ترجوه، وسط دموعها، أن يحكي لها، ليجد رجاؤها أثرًا في نفسه. زاد من احتضانها ليبحر بصوته: «أعترف لك بأنّ فرارك من سكني قد غرس خوفًا في نفسي، وبعد عودتك تضاعفت الشكوك وبقيت على حذري منك، لكنّ حكاياتك زادت من عطفي عليك، لأجدها تكشف مدى التشابه بين متاعبي ومتاعبك. فها أنتِ شبه شريدة، تتوقّعين الموت في كلّ لحظة، ومع ذلك تتوقين إلى حياة سعيدة. تلك هي تفاصيلنا المشتركة التي جعلتني أراك إنسانة

قريبة. لذلك، سأحكي لك شيئًا عن همومي. أنا سُجنت أكثر من مرّة، لأكتشف أنّ أقرب الناس إليَّ هم من كانوا وراء نكبتي. بعدها ظللت أتوجّس وأرتاب ممّن حولي، وأظنّ أنّ الجميع عسسٌ يلاحقونني.

عليك أن تعلمي أنّ الجميع مهووس بالتسلط. يجتهد العسس ليعتاشوا على تقارير يدبّجونها كذبًا. وقد حكيت لك كيف أنّ الفرانصي متحمّس لملاحقتي باطلًا.

– الفرانصي! من تتحدّث زوجته مفاخرة بأنّه دومًا يتربّص بأعداء الوطن؟

– هم يرون أمثالنا أعداءً للوطن.

– هي لم تذكرك، بل تحدّثت عن عملاء دول يقبضون بالدولار لتخريب البلد. وتقول إنّ زوجها يلاحقهم حمايةً للشعب.

– وتسألينني عن خوفي، أتعرفين أنّهم يصنّفونني تارةً بالاشتراكي، وأخرى بالإخوانجي فقط لأنّي سرت في تظاهرات «يسقط النظام». أشعر أحيانًا بأنّهم بملاحقتي، يقصدون شخصًا أخر، أو أنّهم مصابون بالعمى.

ممسكًا بكفّها الصغيرة، أضاف بصوت حنون:

– أجدني مشفقًا عليكِ وأبرّر تحفّظك، فهل تجدين تبريرًا لحذري؟

– لا. لكنّي أريد أن أعرفك أكثر.

– لم يعد بيننا ما نخفيه.

– كيف وأنت تبالغ في التخفّي.

– لقد تحوّل ذلك مع مرور الأيّام إلى أسلوب حياة. ولذلك أجدني حرًّا حين أسكن إلى نفسي.

– لم أفهم. هل ستقضي ما بقي من عمرك هكذا؟

لم يردّ. شعر بأبعاد ما تعنيه كلماتها. أحسّت بمرارة صمته، أخذت تربّت رأسه، تداعب بأصابعها شعر صدره، تقبّل رقبته. أدرك أنّها تحاول تغيير الموضوع، فأغمض عينيه مستسلمًا يحاول نسيان همومه. اعتلته موشوشة: – ونحن في هذا الوضع، أريدك أن تسمعني.

– أسمعك!

– نعم، حين أتحدّث تتضاعف متعتي، هيّا دعنا نتحدّث.

رسم على وجهه الكبير ابتسامة صامتة تاركًا إيّاها تصنع به ما تريد، أردفت: – أن أحكي وأنا في حالة التحام معك. هكذا أشعر بأنّك كوني، وأنّه أصبح في

الوجود ما يخصّني.

صمتت محرّكة جذعها بنعومة. تفكّر في الحديث عن سرّ يشقيها. سرّ يخيفها التفكير فيه: – أريد أن أخبرك بأمر، فهل ستتفهّم؟

وصله صوتها كالأنين.

– كنت متردّدة في أن أحكي لك، لكن من يشاركني همّي غيرك؟ أنا مريضة منذ آخر أيّام زوجي معي. مرض يسكنني ولم أعرف به إلّا بعدما ذهبت إلى المستشفى. كنت أريد معرفة سبب تأخّري عن الإنجاب. أدخلني الطبيب في دوّامة تساؤلات وهو يشرح لي أنّ رحمي به ورم. لم أفهم ما يعنيه. كلّ ما كان يهمّني هو أن أحبل فقط. سألته رغبتي لكنّه أشار بضرورة إجراء تحاليل وفحوص قبل أيّ كلام. بعد الفحوص، عرفت أنّ الورم خطير، وأنّ علاجه يحتاج إلى مال كثير. مات زوجي وهو لا يعلم ما أعانيه. أهملت الموضوع تمامًا. حتى الشهر الماضي عندما ازدادت آلامي، فقصدت المستشفى ليعاتبني الأطبّاء على إهمال ذلك. أوضحت لهم أنّي لا أملك المال. فنصحوني بزيارة جمعية تهتمّ بدعم ورعاية مرضى الأورام، قائلين إنّ العلاج يتطلّب استئصال الرحم، فغادرت المستشفى مرعوبة، إذ كيف أكون امرأة بدون رحم!

صوتها كمن سقط في بئر عميق. لم يجد شنّوق الكلمات ليواسيها. كان مصدومًا ممّا يسمع. ارتمت على صدره. ذوى شيئه واضمحلّت رغبته، بعدما بدأت بالبكاء. طوّقها يريد أن يقول لها شيئًا، أن يشجّعها، فوجد لسانه ميتًا.

31

بعد مغادرتها له بأيّام عادت لزيارته. لم يرد أن يتحدّث عن مرضها. بدورها بادرته بالرقص كعادتها، متجاهلة مرضها. استمرّ يراقصها وصدى صوتها يتردّد حول الورم. أمسكت بكفّه الكبيرة بكلتا يديها وسارت به نحو غرفة النوم. ترك لها نفسه تقوده وكأنّها كائن خرافي ضخم. طلبت منه أن يتمدّد مستسلمًا. تداعبه لبعض الوقت صامتة كما لو أنّها ترى تفاصيل بدنه وسط تلك الظلمة. امتطته، لتهتزّ كما لو كانت على ظهر ناقة. وللذّة دهمته صرخ ممسكًا بخاصرتها، لكنّها وضعت كفّها على فمه، همست له: – هل وصلت إليه؟

احتار في مقصدها. ظنّها تهذي لغلمة تجتاحها. اقتربت بوجهها من وجهه تعاود سؤالها: – هل تحسّ به داخلي؟

– لم أفهم.

– هل تلمس الورم بشيئك؟

انعقد لسانه. لا يعرف بما يردّ عليها، أضافت: – قبيل مجيئي إليك، دخلت الحمّام، قضيت وقتًا أدخل أصابعي محاولة لمسه، ولم أصل. يقولون إنّه مميت. أريد أن تحاول لمسه بشيئك، لتخبرني ما يكون!

ذهبت به التساؤلات: أحقًا أستطيع ملامسته؟ أمسكها من ردفيها وصار يضغط بكلّ قوّته. تسأله وهي تضمّه: «هاه؟ هل تحسّ بشيء؟». ظلّ يحرّك شيئه، لترتفع أصوات شبيهة بمضغ متواتر يريد أن يلامس الورم كي يطمئنها، لكنّ شيئه ذوى، صاحبه ذلك صراخ غضبها... تمدّدت يداها في محاولة لضربه صارخة: – أرجوك استمرّ!

ثمّ هدأ صوتها ومعه حركته:

– أرجوك حدّثني عمّا تحسّسته، فمنذ الصباح الباكر وأنا أشعر بألم لا يطاق!

صمت محاولًا تخيّل ذلك القابع بداخلها، متخيّلًا شكله، فاقدًا القدرة على الحديث. عادت تهامسه: قالوا إنّه سيقضي عليَّ.

تتحدّث إليه بينما يفكّر في ابتداع أحاديث تبعدها عن موضوع الورم. عاود ضمّها إليه وقد دهمته عاطفة أبوية غريبة. تتحسّس صدره بأصابعها كما لو أنّها تبحث عن أمان مفقود. استغلّ ذلك ليسألها: – بعد طردك من بيت الشيخة، ماذا صنعت بك الأيّام؟

سمع زفرتها، ولا تزال تتمسّح بصدره. كانت تعرف أنّه يهرب بعيدًا. بتردّد قالت: – دعني أتذكّر بقيّة حكايتي.

– أسمعك.

استمرّت أصابعها تتحسّس وجهه. بصوت خافت عادت تحكي: بعد طردي من مدرستها، لجأت إلى جمعية نسوية سمعت عنها أثناء وجودي خلف الأسوار، قيل إنّها تهتمّ بقضايا الحريم وتساندهنّ، طرقت باب مقرّها، ملأت بيانات وبصمت على أوراق، لم أخف عنهنّ حالتي، أحكي عن خوفي وتشرّدي وهنّ يكتبن، محتفظة بما لا يقال. كنت سعيدة بعد أن وجدت من يشابهني. حريم من مختلف الأعمار، وشابّات في مثل سنّي. صرنا نقضي لياليا نستمع بعضنا إلى بعض ونبكي، ثمّ نضحك ونعاود الحكي. التحقت بفصول نتعلّم فيها كيف نواجه مصاعب الحياة، ما زادني محبّة للحياة. علَّمونا أن لا نجعل من أجسادنا سلعة، ولا نمتهن أنفسنا، وأن نقاوم الظروف الصعبة بالعمل. قالت لنا إحدى المعلّمات: «هناك فرق بين الحبّ والدعارة. لك أن تحبّي وأن تمارسي الحبّ مع من تحبّين، لكن لا تبيحي جسدك لمن يرغب أو لمن يدفع، أو أن تسيّرك حاجتك».

في تلك الجمعية، اكتشفت أنّ ما تعلّمته في مدرسة القرية جعلني أفهم ما تردّده علينا المعلّمات أفضل من غيري، وشعرت بأنّني إنسانة جديدة، وأنّ عليَّ أن أعيش وأن أقاوم المصاعب. أحببت من في تلك الجمعية، وأمست بيتي. لكنّ ذلك لم يدُم، فمع نهاية السنة، نشرت الجمعية تقارير نشاطها، لينتشر اسمي، ما أصابني بالرعب، لم أحدّث أحدًا أو أستأذن بما نويت عليه. هربت وأنا أتصوّر أنّ ذلك التقرير وصل إلى أحد معارف إخوتي. ولذلك توقّعت وصول أحدهم إليّ في أيّ لحظة. في هذه المرّة كنت أظنّ أنّي سأجد عملًا. لكن ما إن أصبحت في الشارع حتى وجدت نفسي عاجزة حتى عن الكلام مع

من أصادفهم. ومرّ النهار الأول وأنا أهيم في الشوارع، حتى غروب الشمس. هدّني السير، لجأت إلى حرمة تمدّ يدها متسوّلة المارة منكمشة في زاوية رصيف وإلى جوارها طفلان. اقتربت منها، ظلّت تنظر إليّ متعجّبة. رجوتها الجلوس بجوارها، باحثة عن أمان أفتقده. لم تمانع لكنّها نهضت بعد وقت تاركة لي المكان وبعض خرق بالية. قضيت ليلتي بدون نوم، أراقب قطعان الكلاب السائبة، عمّال البلدية بسيّارتهم يثيرون ضجّة وقد هبطوا لجمع أكوام النفايات هنا وهناك، ثمّ يرحلون مخلّفين سكونًا مخيفًا. حمدت الله وقد بدأ ضوء الصباح يتسلّل. نهضت ورائحة عفن غريب كانت تفوح من جسمي، وقطيع كلاب لا تزال تجول، نفضت تلك الخرق وسرت على غير هدى، حتى دخلت وسط ضجيج سوق عرفت أنّه باب اليمن. وقفت على رصيف جانبي أتأمّل ذلك المكان. على رصيف مقابل مجموعة نساء يستندن إلى جدار كبير «القشلة»، ذلك المبنى العثماني الكبير، بدواجنهنّ وخضارهنّ وفواكههنّ وريحانهنّ جنبًا إلى جنب مع بائعات الفخّار والمشغولات الريفية المتنوّعة. اقتربت أرقبهنّ حين نادتني إحداهنّ: «أنت يا بنيّتي ما لك ساهمة؟» امرأة وسط صفّ نساء أمامها ربطات ريحان وأغصان مزهرة. لم أجد ما أردّ به عليها. تركتني لبعض الوقت ثمّ أشارت بكفّها أن أقترب. أمسكت بكفّي ناظرة في عينيَّ: «أنتِ تائهة والّا بتدوّري على حدا؟».

لم أردّ، اغرورقت عيناي بالدموع، ففاجأتني بأن مدّت كفّها وبدأت تمسح دموعي: «لا عليش يا بنتي، صلّي على النبي».

التقطت شطيرة من وعاء إلى جوارها، ثمّ كأس شاي، وابتسمت لي واضعة يدها على كتفي، مردّدة بصوت يذكّرني بصوت أمّي: «هيّا اصطبحي».

تركتني وانشغلت بنساء يشترين منها ريحانًا. ظللت أتابعها لوقت، شعرت بألفة تجاهها، تجرّأت وسألتها: – هل أساعدك يا خالة؟

هزّت رأسها مبتسمة ولم تردّ عليَّ. مرّ الوقت حتى ارتفع صوت مؤذّن الظهيرة، سألتني: – أين تسكنين؟

تغلّبت عليَّ حيرتي، وقد عادت دموعي تحجب الرؤية، همست بتردّد حتى لا تسمعني من يجاورنها: – ليس لي سكن!

– يا لطيف الطف!

توقّعت أن تتحاشاني بعد ذلك، لكنّها تابعت وقد ركّزت نظراتها في عينيّ: – انتظري حتى أفرغ من بيع ما بقي من مشاقر الريحان، وسأستمع إليك بعد ذلك.

لم أتمالك نفسي وقد اقتربت لاحتضانها أقبّل وجهها. حينها أخذت جاراتها يتأمّلنني بنظرات إشفاق.

مع تصاعد أصوات مؤذّني العصر اقتربت سيّارة قديمة بمحاذاتهنّ، وما لبثن أن نهضن يجمعن أغراضهنّ، حتى تلك المرأة كانت تلملم أوانيها. تقدّمت ألملم معها بقايا حبال، وخرقًا بالية، بينما سائق السيّارة يستحثّهنّ الإسراع. تكوّمن في قاع حوضها، ولحقت بهنّ تلك المرأة. وقفت مرتبكة، ظننتها نسيتني. حاصرتني خيبة الأمل، حتى التفتت رافعة كفّها تشير إليّ بسرعة للّحاق بها. وجدت نفسي أندفع صوبها وأصعد متلهّفة. أجلستني إلى جوارها كما لو كنت إحدى قريباتها. لم أعرف أنّ السيارة ستخرج بنا من صنعاء إلّا بعد أن قطعت شارع الزبيري إلى شارع الدائري الغربي المحاذي لمنحدرات السنينة حيث كنت أسكن، ثمّ شارع مذبح، ومنه إلى شملان، ومن هناك كنّا بين جبال متتالية. تملّكني هاجس مخيف، متسائلة: هل ستعود بي إلى قريتنا حيث إخوتي؟ طريق يتلوّى وسط جبال قاحلة. أردت سؤالها، لكنّها كانت مشغولة بالحديث مع الأخريات عن يومهنّ في السوق. لم يطل بنا الوقت حتى دخلنا قرية صغيرة، منازلها تتجاور أسفل جبل يطلّ على وادٍ كثير الخضرة. بعد نزولهنّ جميعًا، تبعتها عبر أزقّة متربة تشابه أزقّة قريتنا، استقبلتنا كلاب بزمجراتها، أشارت بكفّها لتهدئتها وهي تردّد: هيَّه، هيَّه!، ليخفّ سعارها، وكأنّها تجيد لغتها، وصلنا حتى باب بيت خرج منه ثلاثة صبيان، طوّقوها بأذرعهم، عرّفتني بأسمائهم، ثمّ أشارت إليَّ: «أعرّفكم بمساعدتي الجديدة»، ثمّ صمتت تتأمّلني كما لو كانت تريد أن أنطق اسمي، ثمّ أشارت إليَّ: «هيّا أزيلي خمارك وعرّفيهم باسمك». تلعثمت ولم أنطق، استمرّت أعينهم تتفحّصني بخجل.

في المساء تمدّدت جواري، ولم يكن أحد يشاركنا تلك الغرفة، سألتني: – هيّا عرّفيني إلى نفسك!

ظللت متردّدة، لكنّها أعقبت هامسة بحنوّ: – يا بنتي، عليكِ أن تحدّثيني بما تعانين، نحن نساء نعرف بمتاعب بعضنا، حين رأيت دموعك صباحًا رقّ قلبي،

وحدست بأنّك في محنة، ونويت أن أساعدك، لكن كيف لي ذلك وأنا لا أعرف عنك شيئًا؟ احسبيني أختك الكبيرة.

قاطعتها مندفعة:

– صحيح أنا في محنة، لكن لا أريد أن أثْقِل على أحد.

– لا عليكِ، هيّا حدّثيني.

تلك الليلة شكوت لها «غُلبي»، دون أن أكبح دموعي، بعد أن أنهيت احتضنتني صامتة، ولم تعلّق سوى بكلمات قليلة: «هيّنة، يختار الله ما فيه الخير».

ظللت أسأل نفسي: ما الذي أفعله الآن هنا، برفقة حرمة لا أعرفها؟ ليسكتني الصدى: وهل أمامك طريق آخر؟ أنتِ اليوم بلا أهل، ولا مأوى!

لا أعرف كم غفت عيناي، حتى شعرت بتسلّل ضوء لطيف. خرجت تلك المرأة بي صباحًا، لنجد أعشاب الريحان والشذّاب مكدّسة في حزم أمام بابها، وقد اصطفّت مجموعة من الصبايا يتضاحكن، أشارت إليهنّ تحدّثني: «أترين ما أحلاهنّ، لقد أتين من الوادي بهذه الحزم، هؤلاء هنّ صبايا الفجر».

نقدتهنّ عدّة ريالات من كيس صغير أعادته إلى ثنايا ملابسها، ما زاد من ضحكهنّ وسعادتهنّ. مع خيوط الشمس الأولى كنّا مجدّدًا على نفس سيّارة أمس المتهالكة، مع نفس حريم السوق بأقفاص دواجنهنّ وسلال فواكههنّ، متّجهات صوب صنعاء. يعدن مجدّدًا بسلعهنّ إلى رصيف القشلة، يصطففن مجدّدًا وكأنّهنّ لم يبرحن أماكنهنّ منذ أمس. ما إن مرّ بعض الوقت حتى تقاطرت اللواتي يبتعن ريحانها، التفتت إليَّ باسمة: – ستعملين مثلهنّ ببيع باقات الرياحين والمشاقر.

– كيف؟

– ألا ترين كيف يبتعن منّي حاجتهنّ كلّ صباح ويذهبن لبيعه بعد لفّه في مشاقر صغيرة؟

صمتُّ محتارة. أردفت:

– هاه ما قولك؟

اقتربت بخجل أهامسها:

– أخبرتك بأنّي بلا مأوى!

– صحيح.

أدخلت كفّها في ثنايا ثيابها وأخرجت خيطًا تدلّى من طرفه مفتاح صغير. قرّبت وجهها من وجهي: هذا مفتاح غرفة في قاع اليهود، أنزل بها في بعض الأيّام، ستكون من اليوم سكنك وستستضيفينني متى جئت إليك، وعليك من اليوم دفع إيجارها. وأنبّهك إيّاك والغلط، اليوم لديك عمل. وأنا من اليوم خالتك، فلا تسودّي وجهي. من اللحظة انسي اسمك الأول، أسمّيك غزال.

– غزال!

قاطعتني مبتسمة:

– من الأفضل استبداله.

ظللت أقلّب الأمر في صمت لبعض الوقت. أرى اسمي الذي أحببته يسقط منّي. أردت أن أتمنّى بقاء اسمي لكنّها سبقتني. وأردفت: – اسمك سيدلّهم عليكِ. احتفظي به لنفسك!

أدركت حكمتها، وتذكّرت كيف ورد اسمي في تقرير الجمعية المنشور في الصحف، فابتسمت لها راضية، وأومأت بالموافقة.

واصلت:

– ستأتين إليَّ كلّ صباح وتبتاعين حاجتك من الريحان والشذّاب» وزهر اللزّاب. سأعلمك كيف تشكّلينها في باقات صغيرة، لبيعها «مشاقر».

ومن ذلك اليوم أصبحت بائعة ريحان، وتلك المرأة أصبحت خالتي، ألجأ إليها في كلّ وقت، وأبوح لها بكلّ شيء.

هذه حكايتي حتى يوم التقيت بك. ولم أعد أخفي عنك شيئًا.

30

يحيّره تذمّر رسالتيها الأخيرتين. لا يقلقه ما تكيل له من تهم منتقاة من ماضي علاقتهما، بل ما يعكسه نزقها عن تحوّلها، يتمنّى فقط أن تعود كما كانت، تلك الفتاة السمحة المحبّة.

يعيد قراءة رسائلها على أمل أن يجد فتاته التي كانتها. يغمض عينيه محاولًا استحضارها عندما كانت تقبّل كنسمة مرحة، روح بهيجة، نكتة ساخرة، عاطفة باذخة.

يعود إلى رقن رسالته إليها، وحين يكملها يراجع ما كتبه مرّة وثانية، يحذف ويعدّل حتى يتأكّد من خلوّها من مفردات قد تدفعها للتذمّر والشكوى، متسائلًا: أيُعقل أن تفعل بها السنون كلّ هذا؟ أم هو المرض الذي تعاني منه؟ وجد عينيه تدمعان وهو يردّد تلقائيًا: وماذا عنّي أنا بعد كلّ هذا العمر؟ هل أكون تغيّرت إلى الأسوأ من دون أن ألحظ، فالمعتوه لا يعرف بعتهه!

هزّ رأسه ساخرًا من بين دموعه، دافعًا بتلك المشاعر بعيدًا. يتوق للقياها ليدحض شكوكًا ما تفتأ تعكّر سعادته. يتشوّق لمعرفة عنوانها، وإن كان على يقين بأنّها ما زالت تسكن مدينتها عدن.

ضغط زرّ الإرسال «نعم، أحببتك، ولذلك أنتقي من بين ما أتذكّر أجمل اللحظات التي عشناها، حتى تعرفي أنّي ما زلت أعيش أجمل ذكراك، لكنّك أنتِ تنتقين أسوأ حماقاتنا، لا لشيء، إلّا لتدينيني.

لن أردّ على جميع ما ذكرتِ في رسالتك الأخيرة. فقط سأوضح عن تلك الليلة، حين شربنا ورقصنا معًا تحت المطر. ما زالت انعكاسات لمع البرق ماثلة على قامتك، ومفاتنك تغتسل بمزن منهمر. صدقت حين ذكرت أنّنا عشنا نشوة فائقة، حتى الأشجار المحيطة حرّكت فروعها العملاقة لتشاركنا رقصنا.

وأذكّرك بلحظات اقتراب السماء وقد استلقينا على السطح، وتلامست شفاهنا، بعدها شهقت سحبها من فرط الغرام، ليحتجب كلّ الوجود عنّي إلّا أنتِ. كائن فريد بفتنته يتمدّد جواري. لم نكن نحن، ولم يعد يعنيني بعدها من كان يراقبنا من أسطح الدور المحيطة، ولا من قذف شبابيكنا بحجارته.

قد أكون أخطأت حين ودّعتك بقبلة هادئة، لأختفي بعد تلك الليلة شهورًا طويلة. أنتِ تعرفين أنّ سبب اختفائي لم يكن تهرّبي من طلبك الزواج، بل لأنّهم أودعوني السجن في اليوم الثاني، فكيف تطالبين طيرًا نُزع ريشه بأن يحلّق!

هي تجربة مريرة أن يساق المرء من غير أن يعرف من وراء اقتياده، ولا لماذا يُسجن في مبنى سيّئ السمعة، كان في ما مضى يتحاشى حتى النظر إليه حين يحاذي أسواره.

فجر اليوم الثاني لليلتنا الماطرة جاء من يقرع بابي. اثنان منهم. اصطحباني، وأجلساني بينهما على مقاعد سيّارة، سار بنا سائقها وسط عتمة الشوارع، لينتابني شعورٌ مخيف، أثناء ذلك كان داخلي يرتجف، أو كأنّني في هزيمة غامضة. دخلوا إلى ساحة شاسعة أراها لأول مرّة تبعثرت فيها أشجار فلفل عملاقة تحت أنوار ساطعة، حاجبة ما خلفها. كانت هناك أيضًا سيارات تبدو مهملة منذ زمن، منتشرة على الأطراف. مساحات موحشة تحجب أجزاءها فروع أشجار هرمة. هبطا يسحباننني في طريقٍ فُرش بالحصى الأسود، ظهر في آخره مبنًى حجري على زواياه أنوار. صعدا بي سلّمًا حجريًا حتى وصلنا إلى صالة خالية إلّا من الخوف. دخلا إلى غرفة واسعة يتوسّطها مكتب فخم، خزائن زجاجية، مقاعد وثيرة، وطاولة اجتماعات طويلة تعلوها صورة الزعيم بنياشينه وشاربه الكثّ الذي تعمّد أن يطيله ليخفي تشوّهًا خلقيًا في شفته العليا، وقد أُطّر فخامته بإطار مذهّب، إلّا أنّ حجم شاربه تجاوز الإطار واحتلّ ثلث الجدار. انتبهت من تأمّلي حين خبطا بأقدامهما على الأرض لأداء التحيّة العسكرية لرجل خمسيني لا أعرف من أيّ باب دخل ببزّة عسكرية وشعر رأس كثّ. كان يتحرّك بتؤدة ككائن يحفظ بيئته عن ظهر قلب. رفع عينيه بتكاسل تمساح الأنهر الضحلة.

– أخيرًا شرّفت!

ظننته يحدّث أحدهما، لكنّ أحدهما لكزني:

– أجب الفندم يا لوح!
نطقت مرتجفًا:
– حاضر.
فردّ ساخرًا:
– يحضر لك الخير.
صمت قليلًا يتأمّلني ثمّ أشار عليهما:
– لا وقت لديّ الآن. اسحباه إلى «جيم»، وبعدها سأبلّغكما بما يجب عمله.
سحباني وأنا أفكّر في من يكون جيم. هل هو مكان أم موظّف؟ هبطا بي من باب في طرف الصالة تحت الأرض. درجات أفضت إلى ممرّ طويل تحت المبنى بأضواء باهتة، وأبواب حديدية على الجانبين. عرّجا بي على غرفة جانبية غطّت جدرانها رفوف عديدة، كان أحدهم يجلس وحيدًا هناك، كفأر الجحور العميقة. وكان يتصرّف ببرود. أخذ يدوّن في سجلّ طويل ما أردّ به على أسئلته: اسمك. عنوانك. عملك. سنّك. أسماء الأقارب. المعارف. الأصدقاء. عناوينهم وأعمالهم وأعمارهم. سبب قدومك. احترت في سبب قدومي، لم أجد ما أجيب عليه، لتنهال صفعات مرافقيّ وكأنّهما كانا ينتظران تلك اللحظة.
بعد ذلك سجّل جردة ما أحمله في جيوبي من نقود ومفاتيح وأوراق ومناديل ومقلمة أظافر وقلم، قبل أن يصادره. حتى الشال الذي أهديته لي يومًا، أخذوه. ثمّ أمرني في النهاية بخلع حزام بنطالي وسترتي وحذائي ليضعها في كيس من النايلون. بعدها، أدخلوني خلف أحد الأبواب الحديدية وحيدًا. سألت مقتاديَّ: هل هذا جيم؟ فلم يردّا عليَّ. أغلقا القفل ومضيا. لكنّني سمعت صدى صوت من بعيد: «أهلًا بك في جمهورية جيم!» لتعقبه همهمات من زنازين عديدة.
شهور عشتها دون أمل بالخروج، عرفت خلالها من المودعين زنازين مجاورة أنّ سجون ذلك المبنى تنقسم إلى أربعة أقسام. «ألف» و«باء» و«جيم» و«دال» وكلّ سجن يتكوّن من عشرات الزنازين. إلّا أنّ دال كان له صيت مرعب، فلا يُعرف له موقع، وهو مخصّص للمغضوب عليهم، لا ينتقلون منه إلّا إلى قبورهم، وإذا ما حدث وأُفرج عن أحد منهم يكون بأمر من الزعيم شخصيًا!

استضافني رجال جيم لأيّام بضيافات متعدّدة أخجل عن ذكرها. بعدها استفاضوا في التحقيقات، وتفنّنوا في استخدام أساليب عدّة لانتزاع ما يمكن انتزاعه منّي من معلومات، خلال جلسات كانت أشبه بمباراةٍ هم اللاعبون فيها وهم حكّامها.

خلال تلك التحقيقات، طالبوني بتسليمهم ما تركه والدي من وثائق الجبهة الوطنية، وبالذات سجلّات أعضاء الجبهة. ولأنّ أبي لم يترك خلفه أيّ وثائق أو كشوفات، أخبرتهم بالحقيقة أن لا شيء لدينا، ليتّهموني بعلاقتي ببعض التفجيرات، وبعلاقاتي بأشخاص لم أسمع بهم قطّ، وآخرين سمعت بهم أو أعرفهم معرفة سطحية. كنت أرتعب كلّما وقفوا بي أمام عازل زجاجي كي أسمع وأرى الذين يحقّقون معهم وأرى أساليب تعذيبهم، قبل أن تحين حصص التحقيق معي. تلك التي يردّدون فيها أنّي أخطر الناشطين من أعضاء الحزب الاشتراكي فأستغرب. لكنّ ما أثار رعبي فعلًا، هو اتّهامهم لي بالنشاط مع جماعة تبشيرية تدعو الشباب للتنصير، وأنّني تابع لطبيب يعمل في مستشفى جبلة المعمداني.

لم يتركوا تهمة إلّا ساقوها إليَّ، مؤكّدين في كلّ مرّة أنّ لديهم معلومات تدينني. وتلك أساليبهم من أجل أن أرضخ، استمررت أجيبهم بصدق، لكنّهم دومًا كانوا يصرّون على اتّهامي بما لا أعرفه.

بعد الإفراج عنّي، عرفت أنّ من قدّم ضمانات إطلاقي شخصية اجتماعية معروفة، لها صلات بالحزب الاشتراكي، لكن لا تربطني به معرفة سابقة. بعدها زارتني مجموعة من عناصر الحزب، وطلبوا أن أنضمّ إلى حزبهم، مبرّرين بأنّ والدي يوم قُتل كان من مناضلي الحزب الكبار.

وتعرفين أنّ أول شيء قمت به بعد الإفراج عنّي هو زيارتك. أردت أن أفاجئك. ومع أول المساء كان شوقي يقرع بابك في صنعاء، مرتّبًا في ذهني ما سأقوله لك، شاكيًا لك ما قاسيته، نعيش ليالي في تعويض ما فاتنا، لأفاجأ بدوري بشابٍّ أنيق يجلس على أحد مقاعد صالة سكنك، ويتابع حضوري بملامح باسمة. حتى إنّك لم تبدي لهفة لعودتي، تملّكني غيظ مرّ. صرت أتأمّل وجهه الأبيض، وتلك الابتسامة الواثقة التي ارتسمت على شفتيه وتوحي بأنّه ربّ البيت. ظننتك تزوّجتِ خلال أشهر احتجازي، لكنّك قدّمته بصفته أحد زملاء العمل. أحسست بأنّه ليس عابرًا، وبأنّني العنصر الفائض. فكّرت في

الانسحاب، ثمّ عدت عازمًا على البقاء والدفاع عن مشاعري تجاهك. أثناء ذلك، لفتت نظري رقعة شطرنج كانت على طاولة جانبية، تبدو من صفوف عسكرها أنّها رُصّت لدور قادم، أوحت إليّ بفكرة النزال. دعوت «الأبيض» لدور، وأضمرت أن تكون النتيجة هي الحكم بيننا، فإن هُزمت أغادر، وإلّا فسأبقى وليكن ما يكون. جلست موحيًا بعدم معرفتي لفنون اللعبة، يبدو أنّه فهم نظراتي المتردّدة. جلسنا متقابلين لنبدأ المبارزة. وقفت أنتِ بيننا وقد وضعت كفّك على فمك تتابعين ما يجري. ظهر في بداية نقلاته مرتبكًا، ليلقى ثلاثة من جنوده واحدًا بعد الآخر مصارعهم. لم أفطن إلى أنّه ينصب لي شركًا، فاندفعت إلى نقلات الواثق من ضعف منافسه. بعدها أخذ يطيل التفكير. ظننته عاجزًا عن مواصلة الدور، لكنّه فاجأني قائلًا بصوت يحمل التحدّي: كش ملك!

أدركت أنّني صُرعت. رفعت ناظريّ، فرأيت غريمي راسمًا ابتسامة ساخرة حول عينيه. التفتّ إليك مستنجدًا. لكنّك كنت تنظرين إلينا نظرة محايدة. لم يكن ذلك هو وجهك ولا العينان عينيكِ. نهضت متصنّعًا أخلاق الفرسان لأصافحه، وأمام الباب مددت كفّي إليكِ مستأذنًا بالانصراف. فقط رددت عليَّ بصوت هادئ: «إن كنت مُصرًّا على المغادرة فليكن!». حتى إنّك لم تسأليني عن غياب شهور مضت. خرجت بعدها أهيم في شوارع صنعاء ليلًا، ألعن نفسي إن بقيت فيها، عدت إلى مدينتي الصغيرة مهزومًا».

29

همّ بعد آخر تحمله غزال من خلال حكاياتها، حتى أمسى أمامها مستلبًا، يبيح لها أن تصنع به ما تريد. فكانت تدمع عيناها لأبسط خطأ، أو كلمة لا يقصدها. لم يعد يراها كما كانت في أولى لياليها. تزايد شعوره بالمسؤولية تجاهها، وحاول إبعادها عن التفكير في متاعبها. أمسى يكثر من الحديث عن حياته، لتزيد غبطته حين يشعر بسعادتها لظنّها أنّه يتحدّث عن أسراره. يبعث إليها بعد مغادرتها برسالة على غير ما كان في سابق لياليه: «أتعلمين أنّ الأيّام القليلة التي عرفتك فيها جعلتني أفكّر في حياتي. حكاياتِ عمرك، وكيف تعيشين الحياة رغم من يترصّدك بالموت، دفعتني للتفكير في حكاياتي. أنت مختلفة. أقارن ما تواجهينه بمشاكلي. فها أنا أنزوي، بينما أنت تخالطين الناس وتواجهين الحياة، متناسية من يسعون في إثرك، وما تتوقّعين دومًا من طعنة في الظهر أو رصاصة قد ترضي كبرياء زائفة. لقد رأيت ذاتي ضئيلًا أمامك، رأيتني رهينة مبرّرات ضعفي. حبّك يدعوني لأن أغيّر حياتي. لم أكن أعرف أنّ خلف ذلك الوجه الرقيق كلَّ تلك القوّة، وخلف تينك العينين الساحرتين بصفائهما إرادةً صلبة. أحبّك حبّ الحبيب والأب والأخ، فأنت حكايتي الجميلة».

ظلّ يكتب لها طيلة تلك الليلة، لإيمانه بأنّ للكلمات سحرًا سيشفيها من معاناتها، أو أنّه بكتابته إليها يحاور نفسه ليتجاوز ما يكبّله.

كانت لحظتها منزوية في غرفتها، تقرأ ما يصلها دامعة، وتقبّل هاتفها بين فقرة وأخرى. لم تردّ عليه، متمنّية استمرار تدفق كلماته. تشعر بأنّه مع كلّ كلمة تقرأها تتخلّق بداخلها كينونة جديدة، لتبتسم ثمّ تبكي لتغيّرات تصنعها كلماته في روحها.

تتمنّى لو تمتلك القدرة على الوقوف على الرصيف لتحكي لكلّ الناس حكاياتها، أن تصرخ لتعرّفهم من تكون وكيف تمرّدت لتعيش كما أرادت، أن تدعو كلّ فرد لأن يتحدّى ويعيش كما يحبّ.

في إحدى زياراتها له فاجأته بلمبة إضاءة. ركّبتها لينتشر الضوء من الحجرة الوسطى. بدا لها المكان غريبًا. موقد الجمر، الأبواب، زوايا المسكن، كلّ شيء تراه بوضوح. لكنّه سارع لإطفائها: – أريدك أن تخرج من ظلمتك، أن تعيش.

– ومن قال لك إنّي ميت؟

– النور حياة، أريدك أن تكسر خوفك.

ظلّا لبعض الوقت في جدل، لم تصل معه إلى حلّ. كان يظهر عنادًا جافًّا وهو يدافع عن أسلوب حياته.

وضعت بقيّة اللمبات أرضًا وانصرفت غاضبة: – لن أعود لزيارتك إلّا إذا خرجت من ظلمتك.

لأيّام ظلّ يفكّر أن يتجاوز خوفه، وأن يخرج للبحث عن عمل.

28

استقبل ردّ البندرية، متمنّيًا أن تكون شُفيت من أسلوبها التهكّمي وضيق خلقها «نعم، عرفت أنّهم اقتادوك بعد أيّام من غيابك. لكنّي لم أكن أعرف أنّك قضيت كلّ أيّام غيابك سجينًا.

لكن أعتب عليك وقد ذكرت ذلك الشابّ الذي صادف وجوده عند زيارتك لي، لتوحي بأنّك ضبطتني متلبّسة، وبأنّني لم أكن مشتاقة إليك. ولتعلم أنّ حيائي قد منعني من إظهار لهفتي وشوقي إليك أمامه. وحين غادرت حسبتها حركة ذكيّة منك، متوقّعة أن تمكث في زاوية معتمة ترقب خروجه، لتعود إليَّ. انتظرتك طيلة تلك الليلة بعدما غادرني هو، لكنّك لم تشرّف. والغريب أنّك لم تتحدّث في لقاءاتنا اللاحقة عن تلك الليلة وظننتك تفهّمت ذلك، لأكتشف اليوم أنّك حملتها ضغينة في قلبك.

تضحكني حين تضع نفسك موضع الضحيّة. صحيح أنّك لم تصرّح بذلك، لكنّي قرأت ما بين سطورك. مهما غالطت نفسك فأنت تعرف في أعماقك أنّ مقاطعتك لي كانت بسبب عرضي الزواج. وأعترف بغلطتي إذ كيف يتزوّج قبَليٌّ ريفي بعدنية متبرّجة تعمل وتخالط الرجال؟ ظننت ليلة عرضت عليك الفكرة أنّك ستفرح وقد طهّرك الحبّ من عقدك. دعني أسألك: أين تأثير تلك الكتب التي تدّعي أنّك قرأتها؟ وأين الأفكار الاشتراكية التي كنت مجرّد بوقٍ لها؟ كما قلت لك سابقًا أكرّر: الحبّ لديك مجرّد ركض نحو الفراش. فعل تمارسه مع أيّ امرأة تصادفها، وقد تفاخر وأنت تحكي لأقرانك عن رصيد فحولتك، من غير أن تعي أنّ الحبّ سموّ وأخلاق.

هذا أنت اليوم في رسائلك كما عرفتك قبل ثلاثين سنة، لم تتغيّر. وها نحن نختلف من جديد على نفس الأفكار التي كنّا نناقشها دومًا، وما زلت ذلك

الريفي المدّعي، فأيّ تغيير تتوهّمه؟

لا تزال ذلك الجامد الذي عرفته، كنت أظنّ أنّ السنين غيّرتك، لكن يبدو أنّ ما تشعر به من تغيير ليس سوى قشور تخفي تحتها شهوانيتك المشوّهة. مؤسف أنّ غرائزك هي التي تتحكّم في علاقاتك بالآخرين.

ها أنا أكتشف خديعتي بك بعدما ظننت أنّي أمسكت بحبل نجاة! وكم أنا ناقمة على مشاعري تلك، وأنت تتعمّد أن تضعني في موقع الشك والريبة. أرجوك، كفّ عن اتّهامي، يكفي ما أعيشه من آلام المرض».

ما إن أكمل قراءة كلماتها حتى سارع لكتابة ردّه: «تعرفين أنّ هناك محطات في علاقتنا أفضى بعضها إلى بعض، منها أحداث صغيرة لم نكن نلقي لها بالًا، لكنّني اليوم أدرك مدى تأثيرها. تفاصيل صغيرة كان لها أثر عميق على أرواحنا. يا سيّدتي، أتعجّب لقولك إنّي لم أتغيّر! فلا يوجد أحد لا تغيّره السنين. التغيير حتمي. فقط هل تغيّر إلى السلب أم كان إيجابيًا. فمثلًا قد لا تدركين مدى تغيّرك، بينما أنا مصدوم من تغيّرك، حتى إنّك لم تعودي البندرية التي عرفتها يومًا. فجميع رسائلك محشوّة بالتذمّر والشكوى اللذين لم يكونا من شيمك، ما يجعلني أقف متسائلًا: من أين لك بكلّ هذا التهكّم والتذمّر؟ فمن غيّر تلك الفتاة التي كانت يومًا ملاذًا للبسمة والتسامح؟

ألا ترين أنّك تلصقين كلّ ما هو سيّئ بي، وتنسين أنّنا شريكان في ما عشناه. فأنا لا أكتب إلا لأوضح ما تتّهمينني به. هل تفضّلين ألّا أردّ على رسائلك؟ أبحث الآن لك عن مبرّرات لتغيّرك، وأظنّ أنّه العمر الذي يحوّلنا إلى نثارة بائسة، إضافة إلى المرض. لكنّي على يقين بأنّك ستتجاوزين مرضك، وأنّ قلبك يحمل من الجمال ما لا أتوقّعه، ولا يزال نقيًّا، وأنّك ستحلّقين نحو النور كالعنقاء.

أرجوكِ دعينا نتّفق على أن نتقبّل بعضنا كما نحن، أن نضع كلّ ذكرى مؤلمة جانبًا، ونقتطف من ماضي أيّامنا ما يبهج نفوسنا. وسأبدأ أنا، أبرهن لك أنّي لم أنس تفاصيلنا البكر، في أول يوم التقيتك فيه. تلك اللحظات التي مثّلت لي السعادة الخالصة، ولا تزال تجسّد أجمل ذكرياتي، لأنّك أنت من كنت أميرتها. أراك الآن وقد قفزت إلى المقعد المجاور لي قبل تحرّكنا في سيّارة «لاندروفر»، ترافقك ثلاث طبيبات سويديات متخصّصات في رعاية الأمومة والطفولة، وفتاة محلّية مساعدة لهنّ تقاربك في العمر لم أعد أذكر اسمها،

وأنت تقومين بالترجمة بين السكّان المحلّيين والسويديات. وكانت مهمّتي الذهاب بكنّ إلى مناطق ريفية ضمن برنامج توعية المرأة على رعاية الأطفال، والاعتناء بالحوامل والمرضعات. ما إن خرجنا يومها من شوارع المدينة حتى صدح صوتك بإحدى أغاني رجاء باسودان: «دق القاع دقه لا تمشِ دلا. واعط القلب حقه من دنيا السلى. دق القاع دقه ما دامك حلا»، لتثيري جوًّا من الألفة والمرح، بعدها، صرتِ تنثرين نكاتك الساخرة، خفيفة الظلّ، فشعرت كأنّني أعرفك منذ زمن بعيييد. كنت تضحكين طويلًا، ويضحك من حولك، وأعترف لك بأنّك بهرتني من أول يوم. جرأتك. أناقتك، وثقافتك. وتانك العينان الصغيرتان الباسمتان على الدوام. وجهك الوضّاءة ملامحه بابتسامة محبّبة. لون بشرتك الكاكاوي، شفتاك الصغيرتان. تسيرين برشاقة راقصة. ومنذ يومها، أصبح موعد خروجي إلى العمل موعدًا مبهجًا، وأصبحت الأوقات التي أقضيها ذهابًا وإيابًا معكنّ أوقات سعادة لي.

أتذكّر أول خلوة حميمة بيننا. كان ذلك بعد شهور من لقاءات تخلّلتها القبلات الدافئة. كنّا في سكنك، داخل مبنى حجري أسود تقدّم مالكته «المقهوية» المأكولات الشعبية، وقد أثّثت الطوابق العلوية نُزلًا للإيجار، كان سكنًا لموظفي المنظمة التي نعمل فيها.

للحظات صوّبت عينيك في عينيّ، فأحسست بشلّال ضوء يتخلّلني. كان ذلك قبيل مغيب شمس شتوية تسلّلت بقايا خيوطها الملوّنة من زجاج القمريات الملوّنة، ما صبغ لحظتنا بسحر لا يقاوم. اختفت خيوط الضوء وغمرتنا ظلمة المساء. فاجأتني بإسقاط قطع ملابسك قطعة بعد أخرى، لتهمسي بوضوح: «هيّا اخلع».

مررت بأصابعي على صدرك لأجده عاريًا، تشجّعت وخلعت ملابسي، همستِ: هيّا راقصني.

لا أعرف كيف أراقصك. أمسكتِ بكفيَّ ودرتِ بي على إيقاع إحدى أغاني بالفقيه، وبقايا ضوء يدور حولنا... دار المبنى. الشوارع المحيطة. المدينة. كلّ شيء كان يدور وصدرك ملتصق بي. دُرت أقلّدك. وأنت تدورين وتدورين، دارت بي كلمات بالفقيه حتى فقدت بوصلتي وسط ظلمة امتزجت بنا. تلك الليلة كانت فاتحة حياة جديدة لي، علّمتني فيها أنّ العري حرّية، وأنّ الظلمة سلام وسكينة للروح، ونصحتني هامسة: «حين تسكن إلى نفسك لا تدع شيئًا

يشاركك حرّيتك، لا ضوء ولا خرق. عش حرّية لحظتك». ومن ليلتها تحضرني همساتك فلا أشعل ضوءًا، ولا ألبس إلّا جلدي، لأعيش حياتي كما أردتِ!».

ابتسم معجبًا بما رقن، متمتمًا: «عداك العيب، لم تترك لها ثغرة للتذمّر». وضغط على زرّ الإرسال، متخيّلًا مقدار السعادة التي يشعر بأنّ هذه الكلمات ستبثّ في روحها أضعافها.

27

لم يتوقع سرعة ردّها. فما إن أنهى تخيّل مراقصته لها، حتى وصل ردّها. يقرأ بشغف: «حتى حين تريد أن تبدو حميمًا لا تستطيع. ألا ترى أنّك تخلط؟! فما ذكرته لم يكن أول لقاء. لقد انتقيت ببساطة ما يحلو لك. أنا سأذكّرك. كان ذلك في الأول من يناير من عام 1984، في مكتب منظمة «أكسفام» البريطانية التي كنتَ أنت تعمل بها. أمّا ما ذكرته أنت فهو أول يوم عمل لك معنا سائقًا في منظمتنا السويدية التي كانت تُعنى برعاية الأمومة والطفولة.

تنتقي ما ادّعيت كونه اللقاء الأول كي تذكر أنّي قفزت لأكون إلى جوارك، وكأنّي فتاة مبتذلة. هل تريد أن تغيظني؟ ما لا تعرفه هو أنّني ظننتك شابًّا تلقائيًا وفطريًا حين التقينا. فكثيرًا ما سمعت عن الريف وطبيعة سكّانه. وحين سمعت أنّك ريفي، أردت أن أكتشف ذلك العالم من خلالك، متغلّبة على رهاب الآخر بداخلي.

أتذكّر أنّنا زرنا مقرّكم، وقابلنا مديركم طالبين إعارتنا سائقًا ريثما يعود سائقنا المتغيّب منذ أيّام. دعاك مديرك ليقدّمك لنا. لحظتها لفت انتباهي طولك وغرائبية وجهك، ومظهرك الفوضوي. بدوت شابًّا عفويًا. أثنى المدير على إخلاصك في عملك. حتى إنّني مددت يدي لمصافحتك من باب الفضول. بدأت عملك معنا في اليوم التالي واستمررت لأيّام. بعدها تمنّيت ألّا يظهر سائقنا المتغيّب، وبالفعل لم يعد. علمنا بأنّه سافر للعمل في السعودية، فتحوّلت أنت بمذكّرة من منظّمتنا لمنظّمتكم من سائق معار إلى دائم معنا.

كانت ثرثرتك وتلقائيتك تروقانني. وجدت نفسي مع كلّ صباح أستعدّ للقياك بفرح فطري، وأحرص على أن أكون على المقعد المجاور لك. أتعمّد أن أتساهل معك. أن أتواضع في مناقشتك، وأسمعك لأكتشف إنسان الريف. لا

أخفيك أنّني كنت قد أعجبت بأسلوبك التلقائي. وكنت أتوقّع منك أن تعبّر عن إعجابك بأيّ شيء فيّ إلّا أنّني لم أسمع منك أيّ تعليق على هندامي ذاك الذي كنت حريصة عليه. عرفت لاحقًا أنّ تجاهلك وأيضًا تلك التلقائية ما هي إلّا تصنّع تجيده للإيقاع بي، لتقلب مفهومي عن براءة يقال إنّ أبناء الريف يتطبّعون بها، وأنّهم كائنات ساذجة، ولتعترف لي لاحقًا بأنّ تلك الأساليب التي كنت تتبعها تجاهي ما هي إلّا للفت انتباهي، وما يؤكّد لي ذلك وهو ما أتذكّره، وأعترف بأنّه قد أسكرني حينها، من تغزّلك بجمال عينيّ وأنا لم أسمع من يتغزّل بهما يومًا، فهما تشبهان عينيك في صغرهما، بنقاء سمرتي، وقد أخذت تصفني بحبّة البنّ المحمّص، وتارة بالكاكوية، في الوقت الذي كنت أنتظر فيه أن تتغزّل بأناقتي ورشاقتي وصوتي الذي عادة ما أسمع ثناءً من حولي عليه بعد كلّ أغنية أصدح بها. وقتها، استقرّت كلماتك عن جمال عينيّ وسمرتي في وجداني، وغشيتني سعادة غامرة. فكنت أقف أمام المرآة لساعات، أتأمّل تينك العينين الخرزيتين. أتعرّى لعلّي أكتشف حبّة البنّ التي عنيتها، حتى إنّني أخيرًا تصالحت مع سمرتي وأحببتها التي لطالما اعتبرتها مخزية، وأمسيت أحبّ عينيّ وأعتني بهما. يا لكِ من ثعلب أتذكّر أنّك أسعدتني بمكرك!

ها أنا أُذكّرك بأول لقاء. فهل زال الآن يقينك بأنّي بين ضحايا مجازر صيف؟ أدعوك للتخلّص من ألاعيبك الريفية، فأنا أعرف أنّك لم تحبّني يومًا، ولو أنّك أحببتني لما كنت لتخونني مع تلك الفتاة التي تدّعي نسيان اسمها، وتصفها بالموظّفة المحلّية. تلك المتباهية ببياض بشرتها والتي استهدفتك من أول يوم، وأخذت تتابع حركاتك وكلماتك. هي تشبهك في خبثها، وسعة عينيها، وتلك الأساليب التي اكتسبتها من تجاربها مع رجال كانت تحكي لي علاقتها بهم. لها تجارب امرأة في الأربعين رغم أنّها لم تتجاوز الثالثة والعشرين. ذلك أنّها كانت تقبل على المتع بنهم غريب!».

أعاد قراءة ردّها، مستنتجًا أنّ احتدامها أضحى جزءًا من طبعها، وأنّ عليه تقبّلها كما هي. من المستحيل أن تظلّ فتاته التي كانت. هو أيضًا يعرف أنّه لم يعد هو. ويعرف أن لا أحد يستطيع استعادة نفسه.

عاد يصوغ ردّه بتمهّل وحرص. لا يريد أن يثرثر كما في الرسائل السابقة. حتى إنّه لم يردّ على شطط رسالتها. أكمل ببساطة ما يودّ قوله مرسلًا ما كتب «تجاوزي كلّ ذكرى تفسد عليك سعادة تنشدينها. وإن كنت ترين الماضي

تعيسًا فدعك منه. وأدعوك لأن تحدّثيني عمّا تعيشينه الآن. عن حياتك، وماذا تصنعين بأيّامك. هل تزوّجتِ؟ هل لديك أولاد؟ وأين تسكنين؟ هل ما زلتِ على صلة بتلك المنظّمة السويدية؟

أرجو أن تطمئنيني عنك بذكر عنوانك ورقم هاتفك كي أتواصل معك. فأنا في شوق لسماع صوتك. في شوق إلى لقياك، والجلوس إليك. والاعتذار عن كلّ كلمة أو جملة كتبتها وأغاظتك».

«علام تعتذر؟ عن اتّهاماتك لي، أم عمّا اقترفته بحقي؟ أم عن هروبك من واقع عشناه؟ لست مع أن ننتقي من ذكرياتنا ما كان جميلًا. فذلك هروب، وتلك التي تدمي القلب أليست من خلقنا؟ هل عدم ذكرها يعني أنّنا لم نعشها؟

أنا أعيش فراغًا مرًّا، الوقت يقلقني. ولذلك تجدني أقلّب أيّامي وذكرياتي لأملأ فراغي. أجد بعضها سعيدة، وأخرى مؤلمة تبرز فجأة دون أن أبحث عنها، فتطعن قلبي بشدّة، ومنها ذلك المساء الذي احتضنتك فيه أهامسك بأنّي حامل. كان ذلك بعدما قضينا عدّة أسابيع في عدن. كان ذلك بداية 86. ويا لفرحتي بك حين قبّلتني، ناظرًا في عينيَّ، ثمّ تلثم عنقي بفرح غامر، وتحدّثني عن قادم أيّامنا وقد أصبحنا ثلاثة. حينها بذرت في نفسي ثقة بغد أروع، ورأيت الدنيا بألوان الربيع.

لكنّك جئت إليّ بعد أيّام بملامح كئيبة، ترجوني ضرورة إنزال ما في بطني. أحالك رجاؤك إلى كائن قبيح. تمالكت نفسي بعد أن بدأ صوتك يرتفع كي لا يحتدم الخلاف بيننا، وتحطّم، كعادتك حين تصل إلى طريق مسدود، كلّ ما تصادفه في طريقك. كنت مصدومة وأنت تغادرني دون تنظر في وجهي حتى أو تعدني بزيارة أخرى. ظننت طلبك نزوة، وأنّك لن تلبث أن تعود لتصالحني كما تفعل بعد كلّ خلاف، لكنّ ذلك المساء انقضى، وبعده المساء التالي، وتوالت الأسابيع والشهور. وبخوف قاتل أتساءل: كيف أبرّر لزميلات وزملاء العمل المحلّيين حين يلاحظون تكوّر بطني. لجأت إلى إحدى الزميلات السويديات بعدما حكيت لها عن حبّي لك، لتساعدني بعدها على الانزواء والعناية بي في سكنها، حتى لا يفضحني بطني. وظللت أبحث عن أخبارك، لأسمع أنّك اعتُقلت من جديد. مرّت شهور الحمل مريرة، كأنّها سنوات. وضعت ما في بطني مع أواخر 86، وكان قد بلغني قبلها أنّهم أفرجوا عنك. ولذلك انتظرت زيارتك بفارغ الشوق، لكنّك لم تأتِ. فوجدت نفسي أشدّ الرحال إلى

مدينتك التي جمعتنا يومًا. كنت واثقة بأنّك ستفرح بعد رؤية ما أحمل إليك. وصلت مع الظهيرة، وسريعًا ما استدللت على سكنك. وقفت طارقة بابك بقلب طافح بالبشر، لحظة أطلّ وجهك بعظام بارزة. وتكسو بشرتك حرافيش ضبّ صحراوي، وتدلّى فمك أو أنّك نسيت أن تغلقه. ارتبك قلبي لصمتك المريب، وصرت تتلفّت يمينًا وشمالًا بنظرات مذعورة. انتظرت صوتك. أن تمدّ يدك لتحتضن ما أحمل. أن تدخلني بابك، وتسألني عن حاجتي إلى رشفة ماء أو لقمة طعام. أن تضمّني لتزيل خوف ما يقارب السنة على غيابك. لكنّ نظراتك ظلّت تائهة، ثمّ خرجت وأغلقت الباب خلفك، لم تتفوّه بكلمة بل سرت بخطوات متسارعة، أتبعك عبر أزقّة متربة. لم تراعِ إرهاقي ممّا أحمل بين ذراعيّ، استمررت تسير وأنا أجاهد اللحاق بك، حتى خرجت من أطراف الأحياء الجنوبية. هناك، أخذت تصعد تلّة قاحلة، وعلى صخرة كبيرة استويت صامتًا. صعدت جوارك وكلّي أمل أن تلتفت إليّ. أن تحدّثني. نقّلت ناظريّ من تلك التلّة نحو مدينة شبيهة بمقبرة كبيرة. أفقها يتلوّن برائحة جافّة. طال صمتك في تلك القفار. لم أجد ما أفعله غير الجلوس صامتة، أخبّئ ما بين ذراعيّ من لفحات الريح. أتذكّر الآن أنّك حتى تلك اللحظة لم تلمسني أو تنظر في عينيّ، تمنّيت لو أنّك مددت أصابعك لتلامس تينك الكفّين الصغيرتين اللتين كانتا تجذّفان في الفراغ، ناظرة إلى الفراغ، أن تلفّ ذراعك حولي بعدما بدأ البرد يتسلّل إليّ. لكنّك ظللت على صمتك تنظر إلى البعيد، وأخيرًا فاجأني صوتك باردًا يسألني: ما الذي أتى بكِ؟

التفتّ، فلم يكن صوتك ولا الوجه يشبه وجهك الذي عرفته. شعرت بدوار مفاجئ، كدت أسقط. تمالكت نفسي وداريت دموعي وقد خجلت من انكساري وضعفي أمامك. تأمّلت الأفق البعيد، كان قرص الشمس يميل إلى الزوال. تذكّرت أن لا سقف يؤويني في هذه المدينة. المدينة التي شهدت لقاءاتنا، ففيها تلاقت عيوننا لأول مرّة، وفيها كانت شهقات أشواقنا. المدينة التي اصطخبت أيّامًا بأحاديثنا وضحكاتنا وآمالنا. تلك التي ظننتها يومًا ستضمّنا إلى الأبد، تغدر اليوم بي. لففت ما بين يديّ، نفضت تذلّلي، ثمّ وقفت دون أن ألتفت إليك، وهبطت من تلك الصخرة مبتعدة في منحدرات حجرية باتّجاه المدينة. ظللت أسير. لم أعد أعبأ بك، فقط أردت أن أفرّ من صلفك، وسيّان أن تلحق بي أو تظلّ على صخرتك، فقد صمّمت على المضيّ بعيدًا عنك حيث

لا أسمع صوتك، أو أرى وجهك أبدًا. كان بكاء مَن بين يديّ قد ارتفع ليزيدني تصميمًا على الهروب بعيدًا، بعيدًا أسابق الشمس قبل أن تغرب. اقتربت من أطراف المدينة. التفتّ لأرى الفراغ. فقط صخرة تجثم وحيدة على المنحدرات. لا أحد غير رياح باردة. تساءلت: هل كنت واهمة بوجودك؟ صدّقني ما زلت أتساءل حتى اللحظة، غير متأكّدة.

تدعوني لأن نلتقي، وأن ندع الماضي وجراحه، وأخرى أن نعيش اللحظة. وتنسى أنّنا نبات الأمس، ثمّ ألا تعرف أنّ الماضي يحاصر وحدتي، فارضًا نفسه عليّ. أحتاج الآن إلى استعادة ملامح وجهك بعدما أفقدتني إيّاها السنون. نبرة صوتك هي الأخرى أريد أن أستردّها. مللت حروف رسائلك الميتة. ثلاثون سنة وأنا أبحث عن طريق إليك، واليوم أفكّر محتارة: هل كنت جادًّا، أم أنت ابتكرت موتي، ولم تتخيّل أنّني سأصل إليك يومًا!

وإن حدّثتك عمّا أعيشه، فقبل أيّام استطعت تحريك ساقي، إثر خضوعي لبرنامج علاج طبيعي. ثمّ استطعت الخروج من منزلي لأول مرّة. سرت أتّكئ على مشّاية معدنية. قطعت مسافة قصيرة على الرصيف الموازي للمنزل. لكنّ ساقي اليمنى خذلتني لأسقط أرضًا».

26

بعد تردّدٍ غامَرَ بزيارة عدد من معارض بيع السيّارات، برّادات تخزين الفواكه والخضار، ورش متنوّعة، عارضًا عليهم حاجته لأيّ عمل، لكنّه قوبل في جميعها بالرفض لكبر سنّه. إلّا أنّه قرّر اللجوء أيضًا إلى ذلك الشخص الذي ربطته به علاقة تعامل منذ بدأ صديقه يرسله لشراء ما يحتاجان إليه من شراب. وجدها مجازفة لكنّه قرّر أن يجرّب.

سأله:

– هل تجيد قيادة درّاجة نارية؟

– نعم.

– هناك من يأتون إليّ. والبعض يفضّلون إيصال حاجتهم إلى أماكن يحدّدونها. وهم الأكثر سخاءً. ستعمل أنت على إيصال ما يطلبون.

اكتشف بعد حين أنّ العمل لم يكن مجهدًا. لكنّه لم يحذّره من الوقوع بأيدي مسلّحي الحواجز المنتشرة في شوارع المدينة. يومًا بعد يوم عرف كيف يتفادى تلك الحواجز بسلوك أزقّة وشوارع خلفية، وزيادةً في الحيطة كان يحمل على ظهر الدرّاجة أكثر من «خرج» يخفي قواريره تحت طيّاتها ثمّ يحزم القليل من ربط العلف من الأعلى، أو كمّية من الخضروات والفواكه.

– هل قصّرت معك في شيء حتى تذهب باحثًا عن عمل؟ وأيّ عمل، موزّع خمور، لو عرف سكّان الدار؟

– إلى متى أظلّ عالة.

– لماذا إذن لم تسألني، فمعارفي كُثر. وأستطيع توفير عمل مناسب لك بعيدًا عن المخاطر. إن لم تكن قلقًا على نفسك، فإنّي أخاف أن تجرّ قدمي معك إن وقعت.

كان ذلك عتاب صديقه طنهاس بعد ملاحظته تلك الدرّاجة النارية التي تكرّر إدخالها إلى دهليز الدار. حتى إنّه صعد غاضبًا دون أن يكمل مسامرة تلك الليلة، وهو الذي لم يغاضبه يومًا.

25

بعد عتاب صاحبه تلك الليلة كساه إحباط شديد. حاول الهروب بالكتابة إلى البندرية يشغله ما وضعته قبل أكثر من ثلاثة عقود: «كنت دومًا أحلم بزيارة عدن، إلّا أنّ الخلاف بين نظامي صنعاء وعدن الذي أدّى إلى مواجهات مسلّحة على الحدود كان يمنع من المغامرة، حتى زرتها برفقتك، ليعبر بنا الحبّ من الجمهورية العربية اليمنية إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

رسالتك أعادت لي ذكريات كثيرًا ما أحاول وأدها. تعاتبينني فيها على رفضي لما كان في بطنك. صحيح أنّني كنت فرحًا لحظة سماعي منك بالخبر، لكنّي ظللت أفكّر طيلة الأيّام التي كنت خلالها في مدينتي، كيف سيتقبّل المجتمع حمل فتاة عزباء! ثمّ بعد الولادة ما هو وضع الولد أو المولودة في مجتمع جامد بعقيدته. لم يكن رفضي أنانية منّي، بقدر ما كنت أشفق عليك وعلى ما في بطنك من مجتمع أبسط عقابه الموت.

وحين غادرتك كنت أنوي أن أعود لأعتذر لك، ولنفكّر معًا. ولم أنوِ تركك تواجهين تلك المحنة وحيدة، لكنّ ما منعني كان فوق احتمالي. فقبيل غروب شمس ذلك النهار الذي كنت عائدًا فيه إليكِ من مدينتي، صادفت على السيّارة التي كنت أستقلّها إلى صنعاء أصدقاء، ينوون حضور حفل إيقاد شعلة الثورة في ميدان التحرير مساء تلك الليلة. دعوني لنحضر معًا. فكّرت، ثمّ رأيت أن لا ضير من ساعة أو ساعتين معهم، وأمامي ليل طويل، بعدها أقرع بابك. غصت برفقتهم وسط جماهير غفيرة ملأت التحرير، نسترق النظر من خلف صفوف عسكر صنعوا من أجسامهم سياجًا مطوّقين ساحة العرض. نرى رئيس الوزراء ورئيس هيئة الأركان وكبار رجال الدولة على منصّة في أطراف الساحة. بعد وقت بدأت الفرقة العسكرية عزفها للمارش، لتظهر طوابير الكشّافة

والمرشدات بأزيائهم المتميّزة. منظر يثير البهجة. هتفت الجماهير «الله، الثورة، الجمهورية»، لتردّد صدى هتافها جدران المباني المحيطة، وتملأ الأجواء حماسة.

شكّل الكشافة والمرشدات على أرض الميدان دوائر متتابعة حول برج الشعلة، أثناء صعود رئيس هيئة أركان الجيش سلّم البرج، حاملًا مشعلًا، يتبعه مفوّض الكشّافة ووزير الشباب، لإيقاد شعلة العام الثالث والعشرين للثورة. تصاعدت ألعاب نارية من محيط الميدان. وشاركتها قمم الجبال المحيطة بالمدينة زخّات من الرصاص اللاهب شكّلت قبّة حمراء تغطّي السماء. في غمرة تلك المشاهد، شعرت بمن يلامس كتفي. التفتّ، رأيت وجهًا باسمًا، وعينين باردتين تنظران في عينيّ. أشار عليّ أن أتبعه. سرت بين الزحام متسائلًا من يكون. ليسألني: «الأستاذ شنّوق؟» بادلته الابتسامة هازًّا رأسي بالإيجاب. أردف: «لو سمحت، كلمتين بعيدًا عن هذا الضجيج وتعود». أشرت له بالموافقة، ولأصدقائي بالبقاء. خرجنا إلى أطراف الميدان تحت هدير يصمّ الآذان. انشغلت أثناء ذلك بمحاولة تذكّر ذلك الوجه الذي بدا مألوفًا. ما زاد من دهشتي معرفته لاسمي. كنت محرجًا أن أسأله عن اسمه. تحدّث وما زالت آثار ابتسامته على وجهه، ونظراته الباردة تلامس عينيّ مباشرة. أشار إلى شخص آخر ظهر فجأة إلى جواره:

– عفوًا منك، أتعرف هذا الشخص؟

تأمّلت ملامحه، ثمّ التفتّ إلى صاحب محدّثي وأومأت نافيًا. أردف:

– يدّعي أنّك اقترضت منه مبلغًا من المال، وأنّك تماطل في سداده!

– كيف أقترض من شخص لا أعرفه؟

– واضح أنّ في الأمر لبسًا، لكن علينا إنهاء الأمر. إذن لو سمحت امضِ معنا إلى قسم شرطة باب الحرّية.

– ولماذا قسم الشرطة؟

ردّ وقد اتّسعت ابتسامة وجهه:

– هي دقائق وتعود لمواصلة مشاهدة الحفل!

مضيت معهم تلاحقنا الهتافات الصاخبة. دلفنا بوّابة شرطة باب الحرّية عند أطراف الميدان. عبرنا ساحة داخلية تقف على حافاتها عربتا إطفاء، وعربة

للشرطة. صعدنا درجات متآكلة، ثمّ دلفوا بي إلى غرفة افترش زواياها عدّة جنود يمضغون القات وأمامهم مشروبات غازية:

– تمام يافندم، أحضرنا من أمرتم بإحضاره.

ضاربًا الأرض بقدمه اليمنى وقد رفع كفّه ملوّحًا بالتحيّة، ردّ أحد ماضغي القات:

– اتركوه لنا وانصرفوا.

قالها دون أن يرفع ناظريه إليّ. بعد وقت أنهى سيجارة ظلّ يمجّها، ضاغطًا ببقاياها على بلاط الأرض، مشيرًا إلى من حوله:

– هيّا قوموا بعملكم!

إلى تلك اللحظة كنت على يقين بأنّ في الأمر لبسًا. لكنّ ثلاثة من ماضغي القات نهضوا وبدؤوا بتكتيف يديّ إلى الخلف وعصب عينيّ. حاولت الاعتراض والرفض، فوجّهوا لي عدّة صفعات سريعة حتى ركعت أرضًا. كدت أستفرغ حين ركلني أحدهم في كليتي بشدّة، عرفت حينها أنّني في مأزق. سُحبت معصوب العينين لكنّي قدّرت أنّ تلك الدرجات التي يهبطون بي عليها هي تلك التي دخلت عبرها. قذفوا بي بعد ذلك في جوف سيّارة سريعًا ما تحرّكت، لم أعرف في أيّ اتجاه يسيرون، إلّا أنّ أناشيد الميدان ظلّت تلاحق مسامعي بوضوح، حتى بعدما توقفوا وسحبوني ليصعدوا درجات قليلة.

أجلسوني على مقعد أحسست بصلابته وبرودته. سمعت بعدها احتكاك معدن يبدو على أرضية المكان وصوت ارتطام، ثمّ صدى صوت جهوري يسألني أسئلة لا تمتّ إلى موضوع من اقتادني من الميدان بصلة. أسئلة تدور حول وجودي في عدن، وكم مرّة سافرت إليها، ومن قابلت هناك، وأسئلة أخرى عن الأماكن التي زرتها، وصلاتي بالأشخاص الذين التقيتهم.

تلك الأسئلة وغيرها أوحت إليّ بمعرفتهم بتفاصيل كثيرة عن رحلتنا، ابتداءً بيوم مغادرتنا صنعاء، وطوال إقامتنا في عدن. عنوان السكن. الشواطئ التي زرناها. الأفلام التي شاهدناها في دور السينما. الأسواق. صعودنا برج الصمت «الزرادشتي». الصهاريج. حتى المقاهي التي جلست على مقاعدها. استمرّ ذلك الصوت الجهوري يستنهض ذاكرتي وكأنّه رافقنا في الذهاب والإياب، بل إنّه أورد حوارات دارت بيني وبين البعض، حتى إنّه حدّد محتويات حقيبتي التي

ذهبت بها ومحتوياتها لحظة العودة من عدن. دهشت لمعرفتهم بكلّ تلك التفاصيل.

ظلّوا أكثر من سبع ليالٍ ينزلونني مع منتصف الليل معصوب العينين إلى تلك القاعة حيث يتردّد صدى الصوت الجهوري نفسه بأسئلته المتكرّرة، ثمّ يصعدون بي آخر الليل. تعوّدت مع تكرار الهبوط والصعود إحصاء تلك الدرجات، وكأنّي أبحث عن شيء يبعدني عن خوف ينخرني، أو أبحث عن ألفة ما في المكان الذي لا أعرف أين يكون.

في إحدى الليالي، أرعبني صدى ذلك الجهوري حين ضرب الطاولة التي تفصل بيننا مهدّدًا، ثمّ أعقب ذلك بصفعات انهالت على وجهي وكأنّه يمتلك عشرات الأذرع. ليلة بعد أخرى ترسّخ لديّ انطباع بأنّه فارع الطول قويّ البنية، شبيه بمحققي الأفلام الهندية لناحية تكرار ضربة سطح الطاولة والكفوف التي تدمي وجهي.

كلّ شيء كان يتغيّر. المحققون والأدوات والأساليب. كلّ شيء عدا الأسئلة التي ظلّت تتكرّر، حتى إنّني حفظت تسلسلها عن ظهر قلب، سألتهم ذات حفلة أن يوضحوا لي ما عليّ قوله حتى أُعتق، لكنّهم ظلّوا يكرّرون ولم يغيّروا فيها كلمة حتى شككت أن تكون تلك الأسئلة تأتيني عبر جهاز تسجيل!

أنا الثامن في الزنزانة، زنزانة تجاور زنازين لا أعرف عددها، إلّا أنّني كنت أسمع صراخًا ليليًا متفرّقًا، ما يشير إلى كثرة من فيها. وكذلك تأكّدت من تعدّد مباني السجن، فقعقعة الأبواب الحديدية ليلًا هي الأخرى تزيد من تصاعد الشعور بالرعب، إذ يحلو لهم اقتياد المساجين إلى أقبية التحقيق في تلك الأوقات المتأخّرة، وكأنّ المحقّقين بحاجة إلى سكون من نوع خاصّ كي يديروا حفلاتهم.

كانت الزنزانة التي ألحقوني بها تدلّ على أنّها ضمن مبنى سكني كبير، أو قصر قديم، وقد حوّله العسكر إلى معتقل. فعلى سقفها بقايا زخارف جصّية، وجدرانها غُطّيت بأحزمة شجرية، وفي زواياها عدد من الرفوف الجصّية بينما سُدّت فتحات نوافذها الواسعة و«قمرياتها» العالية بخليط من الإسمنت وأحجار سوداء صلدة، كما استُبدل بابها بباب حديدي يُسحب جزؤه في أسفله من الخارج لإدخال الطعام، وسحب الأواني بعد إفراغها. وفي إحدى زواياها يقبع دلو بلا لون لقضاء الحاجة، ويداري من يقضي حاجته ببقايا خرق يمسكها

أحدهم حتى يفرغ. لا يُسمح لنا بالذهاب إلى دورات المياه قطّ، وبذلك ظلّ الجميع بدون اغتسال. مع مرور الأيّام تلبّست أجسادنا طبقات دبقة وطالت أظافرنا وشعر رؤوسنا ووجوهنا، وتعوّد الجميع على الروائح النتنة. البعض تسلّخت آباطهم وبين منابت أفخاذهم. نتحايل بشطف تلك الأجزاء الملتهبة بما يبقى من ماء يُجلب مع الطعام للشرب، وبذلك نستخدم الماء كدواء نادر.

لا منافذ للضوء، لكنّنا كنّا نقدّر الوقت بالنظر من شجوج الباب الحديدي، وكذلك من خلال مواعيد الطعام ومواعيد التحقيق.

أدمنت انتظار اقتيادهم لي، ليس لشيء إلّا لعدّ درجات الهبوط والصعود. تلك المتعة التي كانت تشعرني بأنّي أستطيع إنجاز شيء ما. مع الأيّام طرأ أمر جديد، فبعد عدّ تلك الدرجات هبوطًا وصعودًا، لفت انتباهي تداخل خطوط الرطوبة على جدران الزنزانة وسقفها، لأبدأ بمتابعة تداخلاتها بمتعة، وأراها وقتًا بعد آخر تتجدّد في تقاطعها وتوازي بعضها مع بعض، لتمثّل لي متاهة مفتوحة أقضي معها جلّ وقتي، وأرى ما لا يراه من حولي. فتارة أراها روافد تتدفّق لتشكّل نهرًا كبيرًا، وطورًا تبدو لي غابة من السيقان والفروع. وأخرى أراها صفوفًا لجنود يتأهّبون لهجومٍ ما، أسراب حمام محلّقة عاليًا، حِمْلانًا تتكاثر على سهول دكناء. شغلني ذلك عن متابعة ثرثرات من حولي التي لا تنتهي، يحاولون سحبي إلى عالمهم، لكنّي ظللت ضمن عالمي، فلا أشاركهم شيئًا عدا الطعام وإمساك الخرق لمداراة عورة أحدهم عند التغوّط. مع الأيّام تركوني، وصاروا يتحادثون ويتحرّكون وكأنّي غير موجود. حتى عندما يحتدم النقاش بينهم ويتطوّر إلى عراك لا أتدخّل. أمسوا يتحاشونني كأنّني مختلّ، بينما أراهم أنا معتوهين، وخاصّة حين ينشب العراك بين أنصار «الإسلام هو الحلّ» ومؤيّدي «الدولة المدنية». نقاشات لا تنتهي ومشاحنات تبعث على الغثيان، لتنتهي بتدخّل العسكر وإخماد الجميع.

كنت أظنّ أنّ جلّ تلك الخلافات مبالغ فيه، وأنّ من يحرّكها عسس زُرعوا بيننا، لكشف المخبوء في عقولنا.

ترعبني حكايات بعض من أتوا بهم من سجون أخرى. يعدّدون ما تعرّضوا له من أصناف تعذيب. أسهلها تعليق السجين بالخطاطيف من السقوف وإطفاء السجائر في أماكن حسّاسة وصعق الأعضاء التناسلية بتيّار عالٍ. لا أصدّق حين يعدّدون تلك القباحات. هل يهذون أم عقولهم المريضة تدفعهم لتصوّر ذلك؟

يومًا بعد يوم يزداد يقيني بأنّي لن أخرج من ذلك المكان، فلا أحد يسمع بي، ولا أحد يعرف مكاني، رغم أنّنا في وسط المدينة، نسمع الكثير من أصوات الباعة، وما تردّده المآذن من ضجيج متواصل. إلّا أنّ أحدًا لا يسمعنا أو يعلم بنا. تفتك الفطريات بالمساجين. كلّنا نتشابه بطول سوالفنا ولحانا، بتلك الأظافر المدبّبة التي سكنتها الأوساخ منذ حين، وطبقات غيّرت ألوان جلودنا وبقايا أسمال اهترأت تبدي أكثر ممّا تخفي من أعضائنا. ولم يعد لأحد أن يستحي ممّن حوله وقد تساوى الجميع في كلّ شيء.

ولكثرة ما كنتُ أتذكّر تلك الحيلة التي استدرجوني بها من وسط صخب التحرير، كنت أهذي، أفكّر كيف عرفوا أنّي هناك في الميدان، وكيف استدلّوا عليَّ وسط ذلك الزحام، وبماذا تحدّثهم ضمائرهم بعد الإيقاع بي، وتركي لمصير مجهول؟! لكنّ ما كان يخفّف عنّي هو خطوط تلك الجدران التي تمتدّ إلى خارج الزنزانة. أتابعها وأتخيّلني أسير في خطوطها حتى خارج الجدران، فأرى أناسًا في الشوارع، في المقاهي، وعلى أبواب المساجد يتسوّلون. وأرى كائنات لا يراها غيري. ودومًا أضحك من أشكالها وحركاتها، وأصواتها. يسألني من في الزنزانة عمّا يضحكني؟ فأشير إلى الجدران، مشغولًا بتتبّع تلك المناظر المتجدّدة. وذات يوم، أمسك أحدهم بتلابيبي وانهال عليّ صفعًا. بالكاد خلّصني مَن حولي منه. ميّزت صراخه وهو يشير إليَّ مهدّدًا: «إيّاك وتصرّفات الهبل، وما يتهيّأ لك. ستقودنا إلى الجنون». ظلّ صدى كلماته يتردّد. وظلّ لأيّام يترصّدني مهدّدًا، كي أبتعد عن تلك الحيطان وما تشكّله، حتى صرت كلّما دعتني تلك الخطوط لأن أتوه معها أسمعه ينهرني مهدّدًا.

جزم المحققون بانتمائي للحزب الاشتراكي، وإيماني بمبادئه الأممية، وسعوا لمعرفة أسماء أقاربي. أصدقائي. زملائي. مهنهم. عناوين مساكنهم، لأعرف بعد خروجي أنّ كلّ من ذكرتهم قد فُتّشت منازلهم، واستُجوب بعضهم، لتحديد مدى صلاتهم بي ومعرفة المزيد عن أنشطتي وعلاقتي بالآخرين، بحثًا عمّا يمدّهم أثناء اعتقالي بمعلومات ضدّي. وما زاد دهشتي أنّهم كانوا يعرفون ما كنت أقرأه من كتب، الأماكن التي زرتها، ومن التقيت بهم. يسألونني عن أسماء لا أعرفها، وأخرى أعرفها.

كان المحققون يعلمون كلّ شيء وكأنّهم كانوا يرافقوننا، بينما غابت عنهم تلك الأوقات والأماكن التي كنت أذهب إليها بمفردي. لذلك كانوا يلحّون

بأسئلتهم لمعرفة الإجابة. خجلت أن أحدّثهم بأنّي كنت أذهب وحيدًا إلى مشرب السلام في حيّ كريتر أو بار البحّارة في التواهي. بعد وقت ضقت بإصرارهم، فأخذت أحكي لهم بإسهاب مملّ عن ليالٍ تردّدت فيها على تلك البارات، لكنّهم ظلّوا يبحثون عمّا لا أعرفه.

ما زاد حيرتي وصفهم ليوم مغادرتنا عدن عبر تعز إلى صنعاء، وقد أظهروا معرفة شاملة بالتفاصيل: رقم مقعدي على الحافلة، نوع الملابس وألوانها التي كنت أرتديها، ما تفوّهت به مع من حولي أثناء الطريق. وما أثار عجبي أنّهم لم يذكروك رغم أنّ مقعدينا متجاوران، ويضع كلّ منّا رأسه بين فينة وأخرى على كتف الآخر مثل كلّ المحبّين.

بعد الإفراج عنّي، أمسيت أرى كلّ من حولي عيونًا تتربّص بي، وأصابعهم أقلامًا تدبّج التقارير عن تحرّكاتي. قد لا تعلمين مقدار الرعب الذي عشته وأعيشه من جرّاء ذلك حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها إليك، فأنا لم أعد أثق بأحد، ولا أجالس أحدًا، وأتجنّب الناس. ليس لديّ أصدقاء. يصاحبني رعب تلك التحقيقات، وتلك العبارة التي كانوا يردّدونها عليّ: «لا تُخف عنّا شيئًا، فنحن نعرف عنك ما لا تعرفه أنت».

فلا تلومي جفائي وقد رأيتك فجأة أمام بابي بعد الإفراج عنّي من سجن أكثر من سنة. نظرت إليك مرعوبًا حين فاجأني حضورك، متسائلًا: كيف استدلّتِ على عنوان سكني، وأسئلة أخرى كثيرة أدارت صراعًا في نفسي. فكيف كنتِ تريدين أن أستقبلك وأنا مهزوم محطّم؟ خرجت محاولًا أن أهرب منك، لأجدك تحثّين الخطى في أثري حتى الأطراف. أكتب إليك اليوم بكلّ صدق، لأنّنا لم نلتقِ بعد ذلك، وقد طغى عليّ هاجس الفرار. فلم أكن قادرًا على فضيلة الغفران، وقد تأكّد لي أنّك كنتِ جلّادتي. لا علينا، فقد ذهبت تلك الأيّام ولا نستطيع استعادتها. لكن كان عليّ أن أذكّرك بما لا تجهلينه. وأتمنّى أن تتلطّفي وتخبريني عمّا أتيت به بين يديكِ، هل كان بنتًا أم ولدًا. قلبي يتساءل ولا أجد له أيّ إجابة. أرجوكِ، أتوسّل إليك إخباري».

24

كتب إلى غزال مرّة ومرّتين يدعوها إلى ظلمته. يريد أن يحدّثها بأنّه أصبح يخرج للعمل، لكنّها لم تردّ، كتب لها: – سأترك بابي مواربًا مع مغيب شمس هذا اليوم. هذه دعوتي الأخيرة؛ فإن لم تأتي، فلن أكرّر.

لتفاجئه:

– سآتي. لم أعد أحتمل غربتي عنك. وأخبرك بأنّي كلّما حاذيت بابك أخفّف الخطو، وتزداد خفقات قلبي. أصعد أو أهبط كالمسحوبة على وجهي.

ما إن دخلت حتى هبّ يحتضنها واضعًا فمه على أذنها يهامسها: – لديّ مفاجأة!

ردّت مضطربة:

– كلّي آذان تكلم.

– لن أتحدّث إلّا بعد أن نمضغ قليلًا من القات.

سحبته إلى حيث النارجيلة:

– والآن ماذا لديك؟

– لا شيء، فقط أصبحت أخرج في عمل، وأعود متأخّرًا.

فغرت فمها:

– منذ متى؟

– منذ بداية غيابك!

– ولماذا لم تخبرني في رسائلك بذلك؟

– فضّلت دعوتك لنحتفل معًا.

أخذت تقبّل وجهه بنهم، ثمّ تضربه بدلال، متمرّغة بين الدموع والضحك: – لقد خرجت من شرنقتك إذن. من اليوم لن أخاف عليك. حتى وإن عانيت،

تحمّل. لا أحد يعرف مقدار ما عانيته أنا في أيّامي الأولى من رصيف إلى آخر لبيع الريحان.

شعر بصدق مشاعرها، ثمّ قال لها: – هذا بفضلك ياصغيرتي!

– لن تصدّق أنّ عاطفة مختلفة تغشاني وأنا أسمعك. عاطفة لم أشعر بها تجاه إخوتي أو زوجي. أشعر بصوتك كما لو كنت طفلي رغم كبر سنّك.

غشيته سعادة وهي تعبّر عن فخرها به، متمنّية أن لا ينتكس ويعود إلى ظلمته.

– لكنّني قد أترك العمل.

– تتركه؟

– حين علم صاحبي غضب.

– وعلامَ يغضب؟

صمت للحظات ثمّ نطق مرتبكًا: – أنا موزّع خمر!

– خمر؟ كيف ذلك؟!

– زوّدني صاحب العمل بدرّاجة نارية. أحمل ما يريد إيصاله إلى عناوين محدّدة.

صمتت تقلّب ما سمعته. ثمّ قالت: – عاد قلقي عليك. أنصحك متى ما توفّر لك عمل آخر أن تتركه.

فضّل أن يغيّر موضوع حديثهما. سألها: – أتسمعين عمّا يدور؟

– لم أفهم.

– من خلال مروري بين أحياء المدينة لاحظت تكاثر حواجز المسلّحين.

– أرى ما تراه، وأسمع من الناس أنّ الرئيس قد حوّل سراديب جامع الصالح إلى مخزن للأسلحة. وكذلك بيوت مناصريه الفخمة في أحياء مختلفة. ويقولون إنّ أنصار الله، في المقابل، يحشدون عناصرهم من الأرياف لإحكام قبضتهم على العاصمة.

– إذن حرب الشوارع قادمة.

– أسمع الشريفة تردّد «حان قطف رأس عفّاش». لكنّي لا أفهم كيف يقطفونه وهو يعمل معهم!

– الكلّ يا غزالي أدوات، مسيّرون لمن يدفع من الخارج.

– لو سمعك أحد تتكلّم هكذا لبطشوا بك.

– ما يدور يحزنني. فإن اختلفوا فعلى دمائنا، وإن اتّفقوا فعلى دمائنا.

23

«يا لقلبك المتسلِّط. كنت أتوقّع أن تظلّ بتلك القسوة. تأكّد لي لماذا أردت إلغائي من حياتك بموت ابتكرته. أستنجد بك، أستعطفك، أشكو لك حالتي، فتشهر عليَّ قسوتك، لقد أدميت قلبي بإيحائك. قبل أن تدين الآخرين عليك بإدانة نفسك.

لن أردّ عليك. حتى ما جئتك أحمله بين ذراعيّ لن أحكيه. تعارفنا بدايةً في مدينتك الصغيرة، لأعيش معك ما ظننته حبًّا. وبعد انتقال عملي إلى صنعاء استمرّت علاقتنا. تأتيني بين وقت وآخر كحبيب لنطرّز لياليا بمتع باذخة. حتى زرتك في مدينتك أحمل بين ذراعيّ ثمرة ذلك الحبّ. وذلك اللقاء كان آخر عهدي بك. لكنّك لا تعرفني قبلًا. وأسمح لنفسي بأن تحكي نفسها، حكاية فتاة حلمت يومًا أن تكون طبيبة. فمنذ نعومة أظفارها ظلّت تجدّ في دراستها في سبيل معانقة حلمها. أن تنال مجموعًا يؤهّلها لدخول كلّية الطبّ. وتجاوزت اختبارات الثانوية العامّة 1980 بمعدّل مرتفع. لكنّها صُدمت بعدم قبولها دخول الكلية/الحلم. فقد ملئت المقاعد الشاغرة لأبناء المتنفّذين في الحزب. لم تيأس، وظلّت تحلم. أثناء اصطخاب أحلامها، زار عدن ضابط كبير ضمن وفد رسمي لسلطات الشمال، ذلك الكبير كان على صلة قرابة بوالدها، وقد عرّج للسلام عليه في منزله البسيط. حدّث والدها ضيفه عن طموح ابنته لدراسة الطبّ، من ضمن أحاديث تناولاها عن أحوال الأسرة. ولم يغادرهم الكبير إلّا بعد أن وعد بتوفير منحة لدراستها الطبّ خارج اليمن، على نفقة سلطات صنعاء، مشترطًا أن تصل إليه في صنعاء.

ولأسابيع، حاول والدها الحصول من الأجهزة الأمنية على إذن بسفرها، لكنّهم رفضوا. حينها رضخ الأب للواقع، لكنّها ظلّت تحلم، إلى ذلك المساء،

حين سمعت من إحدى صديقاتها عمّن يغادرون عدن دون علم السلطات، ليداعبها الأمل. صارت تلحّ على أبيها أن تغادر فيجيبها: الذين يهربون هم رجال. فالمسالك خطيرة وأنتِ بنت!

لجأت إلى أمّها، على أمل أن تقنعه فلم تفلح، لتفاجئ والدها ذات مساء وقد لبست ملابس أحد إخوتها. لم يتعرّف إليها بداية الأمر، قبل أن تهرع أمّها كاشفة عن حيلتها، وبعد إلحاح وافقا على مساعدتها.

لم يكن لأحد من أسرتها علم بما يدور، عدا والدها ووالدتها التي ملأت كيسًا بالطعام وآخر بالملابس، وملفّ يضمّ جميع وثائقها. ودَّعتها ذات فجر دامعة من دون صوت. رافقها والدها باتّجاه حوطة لحج. وطوال الطريق كان يتأمّلها مرعوبًا، مكرّرًا عليها ضرورة أن تبدو طوال الطريق فتى قاسيًا: كلّ من معك رجال. والطريق مقفر!

من الحوطة ركبا إلى المسيمير، ومن هناك سلّمها للمهرّب، ليعود وحيدًا مضطرب القلب. قدّمت نفسها باسم كمال، ولعدّة ليالٍ يسير بهم عبر جبال موحشة، في برودة قارسة، يتبعونه في طابور وسط تضاريس معتمة خوف السقوط في جروف سحيقة، حتى اجتاز بهم المناطق الحدودية، علقت في ذاكرتها مشاهد نجوم معلّقة فوق الرؤوس، وأصوات تثير الرعب من ليالي عبور الحدود.

في الفجر الثالث، وقف المهرّب مشيرًا: «تلك هي بلاد ماوية من بلاد الشمال. سأمضي بكم حتى أولى قراها. وتكون بذلك مهمّتي قد انتهت، فبعدها ستجدون الأمان، ويسلك منها كلٌّ إلى وجهته. لكن عليكم الحذر فهناك بعض العيون، منهم من يعمل لأجهزة عدن ومنهم لأمن صنعاء».

انشغلت حينها بالبحث عن تلك الحدود الفاصلة، فلم تجد ما يميّز شطرًا عن آخر: جبال متلاحمة، أودية متداخلة، منحدرات متتابعة، وأشجار تتجاور في كلّ اتجاه. حتى السماء هي السماء.

تركهم المهرّب على مشارف أول قرية، لتجد نفسها عالقة بين مجموعة من الذكور، تسير متوجّسة من قرية إلى أخرى. الذين يصادفون من السكان قلّة يشفقون عليهم فيقدّمون لهم الطعام والماء، والبعض يتجنّبونهم، حتى دخلوا مركز ماوية تلك القرية الكبيرة. أووا فيها إلى «مقهاية»، الجميع ينامون على الأرض تحت سقف واحد دون فواصل. انزوت الفتاة بـ«المقهوية»

مفصحة عن سرّها، ورغبتها في غرفة خاصّة بها. قادتها إلى غرفة وحيدة على سطح. وطمأنتها: لا تقلقي، أنتِ في أمان.

جلست إليها بعض الوقت منبهرة وهي تحكي مغامرتها. وقبل هبوطها نبّهتها إلى إغلاق الباب جيّدًا. أطفأت الضوء ليغشاها نوم عميق. استفاقت فزعة لشيء ما يلامس جسمها، وسماع حركة مريبة، كما لو كانت في كابوس، لتدرك شخصًا يجاورها، وقد نجح في خلع أسفل ملابسها. نهضت مرتبكة تدفعه، صارخة بذلك الكائن الذي لم يتبيّن لها من يكون، بينما ظلّت ترتجف مرعوبة، تسمعه يترجّاها: «اسكتي. لا تخافي، أرجوكِ سأخرج!». تسلّل ضوء من خارج الباب، وسماع جلبة أقدام، لتظهر المقهوية تحمل فانوسًا، وجه شاب ما زال يقف في حالة يُرثى لها من الخزي. ما إن لمحته المقهوية حتى رفعت صوتها:

– يا سبحان الله عليك يا فتّاح القرن! هو أنت. وتجي منك هذي المخازي؟!

وقف خانعًا. ثمّ ردّ بتلعثم:

– لم يحدث شيء، حتى اسأليها، أنا مخدوع!

لم تفهم الفتاة ما كان يعني. اقتربت منها المقهوية تحتضنها وهي تؤنّبه: «كيف يسخى قلبك تبهت بُنيّة مسكينة؟». أجابها بكلام لم تعرف الفتاة معناه، ظنّته مخبولًا في عقله.

شكّت للحظة في أن تكون المقهوية وراء تلك الخديعة، لكنّها استبعدت ذلك، فقد كانت مضيفتها توبّخ ذلك المخبول وهي تطرده قبل أن تتّجه صوبها، وتهدهد دموعها لشعورها بالوحدة والقهر، كانت تبكي وصدى صوت والدها يلاحقها «أنتِ بنت»، بينما المقهوية تهدّئ من هلعها، تخبرها أنّ من حاول الاعتداء عليها شابّ ساذج. ثمّ أطفأت السراج ونامت إلى جوارها. مع الفجر أحسّت بها تنسحب بهدوء، لتعود بخبز ساخن مشبع بالسمن، يتبعها ذلك المعتدي. ما إن رأته الفتاة حتى تحفّزت. لكنّه جاء يردّد اعتذاره:

– أنا آسف. هو من خدعني!

ردّت المقهوية تهدّئ من روعها:

– لقد جاء معتذرًا.

ثمّ أخذت تقبّل وجهها وأردفت:

– أحد رفاقك أوحى له بأنّك تنتظرينه. واختفى بعدما تسلّم ثمن خدعته!

عندها فهمت، ولم تعلّق بشيء.

ودّعتها المقهوية رافضة أخذ أجرة المبيت أو ثمن الطعام، وقالت لها: «سيرافقك عبد الفتّاح حتى يصل بك إلى إب، تكفيرًا عمّا اقترفه. لا تقلقي يا بِنتي، لولا خساسة رفيقك لما كان ما كان، الدنيا أمان».

كانت وجلة وهي تجلس إلى جواره بداخل سيّارة امتلأت ببائعي القات. ظلّت طوال الطريق صامتة. بدوره احترم رغبتها حتى وصل بها إلى إب، ودّعها بعدما أمّن لها مقعدًا في سيارة «بيجو» متّجهة إلى صنعاء، دافعًا للسائق الأجرة برغم رفضها، وداسًّا القليل من أغصان القات في حجرها، موصيًا السائق بها خيرًا. عبرت بها تلك البيجو أودية خضراء، صاعدة تتلوّى فوق جبال عالية لترى طبيعة لم تتخيّلها قطّ. ولأكثر من أربع ساعات، اجتازت أسواقًا وقرى ومدنًا تمنّت معرفة أسمائها لكنّها لم تجرؤ على سؤال أحد برغم لطف من حولها. وخلالها عبرت مدينة ذمار، التي سيكون لقلبها فيها حكايات وحكايات.

ندمت بعدها لأنّها لم تتحدّث إلى فتّاح، أو تملِّ ناظريها من وجهه، أحسّت بأنّه يحمل نبلًا برغم ذلك. وكلّما تذكّرت ذلك المساء تمنّت أن تتكرّم عليها الأيّام بالعودة إلى ماوية، لتزور تلك المقهوية الكريمة، وتلتقي بفتّاح حتى تشكرهما، لكنّ السنوات مرّت وظلّت الذكرى عالقة.

استقبلها الكبير في منزله، كما رحّبت بها زوجته فخصّصت لها غرفة مستقلّة، كما منحتها ملابس كثيرة عرفت بعد وقت أنّها من ملابس بناتها. في الأيّام الأولى شعرت بألفة. تدعوها ربّة البيت للقيام ببعض الأعمال، فتلبّي وتجتهد، منتظرة تحقيق ما وعد به ذلك الكبير، مرّت الأيّام لتكتشف أنّها قد أمست ضمن خادمات البيت الكبير، وأنّ الجميع يأمر. لمَ تواطأ الكبير بتحويلها إلى خادمة؟ هل لسمرة بشرتها؟ أم لوحدتها؟ وما زاد من قلقها نسيانه أو تناسيه وعده لأبيها. انتصفت السنة منذ وصولها، وحيرتها تزداد. أثناء ذلك تعرّفت إلى شاب كان يتردّد على الكبير. عرفت أنّه يعمل تحت إدارته في جهاز الأمن الوطني. دمث، خدوم، يسألها دومًا عن أحوالها. بعد تردّد، شرحت له بالتفصيل ما حصل معها، لتُفاجأ به يشجّعها على الهروب من ذلك البيت. لم تتقبّل الأمر بدايةً، فهي لا تريد أن تجد نفسها في الشارع. لكنّه أخذ يلحّ عليها، واعدًا بتوفير سكن صغير تأوي إليه إذا قرّرت الهرب، بل وعدها بإلحاقها

بالدراسة. ظلّت على تردّدها، ساخرة: أيّ سكن، وأيّ دراسة تلك؟ كانت تخشى أن تكون له مآرب خسيسة وأنّه ينوي استغلال وحدتها. صارحته بهواجسها، ليزرع فيها الأمان بكلمات قليلة، بل ويطمئنها بأنّ هناك وظيفة بمرتّب ثابت تنتظرها.

بعد هروبها، ألحقها لدراسة اللغة الإنجليزية في المعهد الأميركي. طالبًا منها أن تكون عينًا راصدة لما يدور داخل المعهد. زوّدها بقائمة أسماء طلّاب وأساتذة تستهدفهم في تقارير متوالية.

بدا لها شابًّا خارق القدرات. وقد غيّر حياتها. فها هي أمست في سكن يخصّها، وتواصل تحصيلها المعرفي، ولها مرتّب ثابت. وما كان يحيّرها أن يكون لعسكري بسيط كلّ تلك القدرات، لكنّ حيرتها لم تدم، فبعد مدّة عرفت من يكون وراء كلّ ذلك.

ولم تكمل العام من التحاقها بالمعهد الأميركي، حتى سُجّلت للدراسة في جامعة صنعاء، كلّية الطبّ، قسم العلوم الصحّية، لتعرف أنّ نقلها إلى الجامعة لم يكن إلّا لمتابعة بعض الطلّاب والأساتذة هناك... وما دراستها إلّا غطاء لنشاطها الخفيّ. لم تكمل السنة، حتى ألحقت للعمل في منظّمة أوروبية تعمل في مجال رعاية الأمومة والطفولة. وكانت وظيفتها المعلنة مترجمة. أمّا غير المعلنة فكانت رفع تقارير عمّا يدور من أنشطة داخل تلك المنظّمة، وعلاقاتها بالمنظّمات الأخرى، إضافة إلى متابعة أنشطة العاملين بها.

بعد نقلها إلى تلك المنظّمة بأشهر، وضع القدر في طريقها شابًّا يعمل سائقًا في تلك المنظّمة. استنتجت مع مرور الوقت أنّها كانت بدورها مراقبة، ما كان يدفعها للحرص والمثابرة في رصد كلّ صغيرة وكبيرة. إلّا مع ذلك السائق، حيث كانت تتعمّد تدوين عمومياته، وبما لا يضرّ به. تصفه بالساذج والعشوائي، متجنّبة ذكر ما قد يدينه، مثل المبادئ الشيوعية التي يتشدّق بها دومًا، وتباهيه بميوله الإلحادية.

تلك هي حكاية أحلام شابّة وجدت نفسها في سياق لم تختره، منقادة لخطوة تقودها أخرى دون إرادة منها.

أحكي لك هذه الحكاية كي ترى أنّنا نتاج لظروف قد لا نكون اختراها، وإن ادّعينا عكس ذلك.

قرأت رسالتك، ولم أجد لها وقعًا في نفسي، تتحدّث عنّي موحيًا بأنّي وراء عذاباتك. أنت تتحدّث عن إنسانة ليست أنا، ولذلك حاولت أن أتخيّل حياتك بعد سجنك الأخير، لكن وجدت خيالي غير قادر. فأرجوك أن تحكي لي كما حكيت لك عن حياتي. بي شوق لمعرفة كيف تقبّلتك الحياة بعد ذلك؟ هل تزوّجت؟ امنحني بعض الراحة، ودعنا نفتح صفحة جديدة».

22

قرأ رسالتها أكثر من مرّة، لتؤكّد صدق ظنونه بأنّها وراء خراب لحق به يومًا. كتب إليها: «جاءت رسالتك الأخيرة، بدعوة فتح صفحة جديدة، أن أحكي لك حالتي بعد الإفراج عنّي. لكن قبل كلّ شيء دعيني أخبرك أنّ من قابلتِه في آخر لقاء لم يكن أنا، بل كان حطام إنسان يخاف الناس، فبرؤيتي لك على باب سكني، تملّكني رعب. توقّعت أنّ وصولك إليّ مؤشّر لعودة ملاحقاتهم لي. فقبل ذلك، عشت خوفًا أوصلني إلى التفكير في الانتحار حتى أقطع عليهم الطريق، ثمّ اخترت أن أهجر المدينة وأعود إلى الريف، إلى قريتي حيث من الصعب وصولهم إليه. غادرت المدينة حالمًا بلقاء من بقوا من أصدقاء الطفولة. نلتقي في «مقايلهم»، نمضغ القات ونتسامر بعيدًا عن عيون العسس، زرت «المعلامة»، تلك التي كنّا نتحلّق فيها حول سيّدنا الأعور، ليعلّمنا الحروف وحفظ القرآن. هبطت الوادي، صعدت الجبال، دخلت سلسلة من كهوف أعرفها. لكنّي لم أجد القرية التي تركتها يومًا، من كانوا في سنّ أبي ماتوا، وشاخ من بقي على قيد الحياة. إخوتي تفرّقوا ولم يعد منهم إلّا واحد يعمل بالأجر اليومي في مزارع قات الآخرين، تاركًا أرض والدنا صلَبًا. أصدقاء الطفولة لم يعودوا كما كانوا، انشغل من تزوّجوا بهموم الحياة، والأكثرية هاجروا ولم يعودوا. إلّا قانح، ذلك الذي ظلّ بعفويته وكأنّ السنوات لم تبلِه. ظلّ مثلي بدون زوجة، وبذلك وجدت من يشابهني، وجوده كان عزاءً لي، هممت بأن أغادر من حيث أتيت لكنّه أبقاني. صرنا نلتقي لنتشارك مضغ القات. فهو من القلائل الذين يمضغون القات كمادّة غذائية، يلوك أغصانه في كلّ وقت، قعودًا أو سائرًا، لكنّ ما كان يبهجني هو حكاياته المشوّقة، وضحكاته العفوية، تلك الضحكات التي تحوّله إلى كائن يتلوّى.

أمسينا لصيقَين، ليسرّ إليّ في إحدى جلساتنا بأنّه عضو في إحدى الخلايا السرّية للحزب الاشتراكي، وأنّه مُكلّف بتجنيدي في التنظيم، نفرت منه شارحًا له خذلانهم لي بعد أن وعدوا بحمايتي من ملاحقات السلطة، قلت له: «إن أردت أن تستمرّ صداقتنا انسَ الموضوع. أريد أن أعيش بعيدًا عن ضجيجهم وأكاذيبهم».

لكنّه لم يملّ من ملاحقتي، ما إن نلتقي حتى يدعوني للتحاور: «لن أغصبك على شيء. لكن دعنا نتناقش كصديقين».

بعد شهور من عودتي إلى القرية، وجدته وقد زوّجني بشقيقته. انشغلت بعدها بفلاحة الأرض وإضافة غرفة علوية إلى بيت أبي. رُزقت بداية بطفلة، ثمّ بأخرى، ولم تمضِ بعض السنوات حتى كان لي ثلاث بنات وولدان. أمست أسرتي هي محور حياتي. خلال استقراري في القرية تحقّقت الوحدة بين الرئيسين البيض وصالح، ما جعل قانح منشرحًا، مردّدًا: «ما تحقق يا نسيبي العزيز ثمرة كفاح طوابير من المناضلين وعلى رأسهم والدك. دمه لم يسفك هدرًا. لك أن تفخر بأنّك من أسرة مناضلة، وبأنّك ابن شهيد، وعليك أن تمضي في طريقه الذي اختطّه لنا».

لم أعد أحضر مقايل القرية ولا مناسباتها إلّا في ما ندر. اعتدت الانشغال بالوادي والعودة إلى بيتي. بدورهم اعتادوا غيابي. يأتي صديقي بقاته ونصعد إلى سطح المنزل المطلّ على أغوار المنحدرات. تشاركنا أخته. نمضغ القات ونرتشف القهوة. نتابع تلك السحب القادمة من أسفل السماء، وتلك الطيور التي تسكن الأجواء لتشرب الريح. أختلس النظر إلى أطفالنا وهم يتلاحقون هنا وهناك. لم أفكّر يومًا في مغادرة قريتي.

كان قانح هو من يزوّدني بآخر أخبار خلافات السلطة، وخطط الحزب الاشتراكي لمواجهة تنمّر الرئيس صالح، ملوّنًا الحياة بألوان مبهجة، لأرى الغد بعينيه وقلبه المشرق. إلى ذلك المساء الذي جاء إليَّ فيه محذرًا إيّاي من حملة ملاحقات لأعضاء الحزب الاشتراكي، موضحًا أنّ الخلافات التي نشبت بين صالح والبيض قد تشعّبت إلى فكّ الشراكة. حاولت إقناعه بأنّني بعيد عن صراعاتهم، وأنّ من يتصارعون همّهم مصالحهم ولا يضعون للوطن أيّ قيمة، فأكّد لي أنّ من يتولّون الملاحقات من جماعة صالح لا يعرفون إلّا أسماءً مدوّنة لديهم.

اختفى بعدها صديقي قانح، أخذت أهوّن الأمر على نفسي، وعلى زوجتي، حتى بعد أن تردّدت أخبار انفجار الوضع عسكريًا بين الحزب الاشتراكي بقيادة البيض وبين قوّات صالح، بدايةً في معسكرات عمران، قبل أن تمتدّ إلى معسكرات ذمار، لتشمل بعدها بقيّة معسكرات الطرفين في عرض البلاد وطولها.

وكما تعرفين، لجأ بعدها البيض إلى عدن، حيث أعلن إلغاء اتّفاقية الوحدة، وعودة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. تجلّدت متمسّكًا ببقائي بين أسرتي في غياب قانح، لتصلنا أخبار بأنّه التحق بصفوف مقاتلي الاشتراكي ضدّ قوّات صالح.

تواردت أخبار اتّساع المعارك في أنحاء الجمهورية، صاحبتها ملاحقات واسعة، ليأتي من يقتادني إلى سجن إدارة أمن محافظة ذمار. لم أكن وحيدًا. كنت بين العشرات ممّن جُمعوا من مديريات مختلفة، لأدرك أنّ سطوة صالح قد تغلّبت على البيض وحزبه، وأنّ المدن والأرياف قد عمّها الخراب. ولم يكن السجن الذي أودعونا فيه سجنًا، بل عدّة غرف بسيطة للحجز، لم يخضعونا لأيّ تحقيق، ولم يتّهمونا بأيّ تهمة، والعجب أنّهم تناسونا مشغولين بمتابعة تطوّرات الحرب التي عمّت أرجاء الوطن والتي انتهت كما تعلمين بهروب البيض إلى حضرموت، تلاحقه قوّات صالح، وعبوره المهرة فارًّا إلى عُمان، يتبعه قادة آخرون للحزب الاشتراكي فرّوا عبر البحر إلى جيبوتي.

بعد أيّام من انتصار الرئيس صالح، اجتمع بنا المحافظ مهنّئًا بانتصار الوحدة وهزيمة الانفصاليين، مبشّرًا إيّانا بصدور أمر بإطلاق سراحنا، ناقلًا تحيّات رئيس البلاد إلينا، مختتمًا كلمته بهتاف: «الوحدة أو الموت، الوحدة أو الموت». ردّدنا من بعده وكأنّنا على خشبة مسرح نقوم بأدوار هزلية. هامسني أحد رفاق السجن بأنّ إطلاق سراحنا ليس إلّا تمثيلية، مؤكّدًا وصول معلومات بأنّ صالحًا أصدر أوامره بمصادرة مقارّ الحزب في عموم الوطن، وتجميد أرصدته، وملاحقة عناصره، ناصحًا إيّاي بالبحث عن مكان أختفي فيه وبعدم العودة إلى القرية، ليصبح عام 94 بمثابة عام النكبة للاشتراكية في اليمن والجزيرة العربية.

وحين طالعتنا أكثر من صحيفة ببعض أسماء شهداء عدن من المدنيين، صُعقت لوجود اسمك بين من استُشهدوا، وبذلك شعرت بصفحة من حياتي

تُطوى، وأخرى تُفتح على المجهول.

بقيت أتتبّع الأخبار ليصلني خبر استشهاد صديقي قانح إثر مواجهات عنيفة دارت في الضالع. بعدها فقدت البوصلة. فكّرت في أن أتسلّل إلى القرية لأعزّي زوجتي بمقتل شقيقها. أن أحملها وأولادنا ونهرب معًا، لكنّ التحذيرات كانت تتوالى، مفيدة بأنّ صالحًا فتح أبواب سجونه بعد انتصاره العسكري، وقد اقتيد المئات إليها. ومن لحظتها قرّرت عدم العودة إلى القرية، والتخفّي عن عيونهم، فولّيت وجهي شطر صنعاء، ومن يومها وأنا أتخفّى. لا أعرف شيئًا عن أحوال أسرتي، فقط تركت لهم بيتًا يأوون إليه وقطعة أرض يفلحونها، وعشت متخفّيًا بين أحياء صنعاء، لا تستقرّ لي حال، بعد أن سكنني الشك من كلّ شيء.

هذا أنا في تيهي، حتى إنّني حين أجالس نفسي لا أجدها.

الآن أكتب إليك وأنا أجالس خوفي، بعد أن قرّرت العودة لمواجهة الحياة. أن أنفض الخوف والانزواء، وأعيش مخالطًا الناس ما بقي لي من أيّامي كما يعيشها غيري، وأن لا أدع الماضي يكبّلني، أريد أن أعود للحياة».

وداعًا صنعاء

21

خلال عمله في توزيع ما يُطلب منه، تعرّف شنوق إلى صنعاء، تلك الممتدّة من جنوبها حتى حدة وبيت بوس وحزيز، وحتى الحتارش وبلاد أرحب شمالًا، ومن أحياء سفوح الجبال الغربية شملان ومذبح والسنينة وعصر، إلى أحياء جبالها الشرقية سعوان ونقم وشارع غولان حتى الخفجي، مدينة تتمدّد طوليًا، وأحياء تتناثر صاعدة سفوح وشعاب عدّة جبال.

يمرق بين صفوف العربات بدرّاجته في مرونة، لإيصال طلب أحد الزبائن حين تردّد فجأة على مسامعه صخب انفجارات هزّت الأرض من تحت درّاجته. فرّت العربات في اتّجاهات مختلفة، وسارع الباعة لإقفال محالّهم وأكشاكهم، ليقفر كلّ شيء في غمضة عين. انحرف بدرّاجته عبر شوارع فرعية متداخلة حتى أطراف أزقة المدينة العتيقة، ليغشاه بعض الأمان. واصل متسلّلًا حتى كان أمام دار الشريفة، ما إن دخل سكنه حتى سارع لفتح جهازه ليتأكّد من ذلك الهول الذي هزّ المدينة. لكنّه فوجئ بخدمة النت معطلة، فلا مواقع تُفتح ولا رسائل تصله.

زاره صاحبه ليلًا. قال له محذّرًا: «ميادين صنعاء تملأها الدبّابات، والمواجهات في هذه اللحظات على أشدّها في الأحياء الجنوبية والغربية، وقد سيطر مسلّحو الحوثي على بقيّة أجزاء المدينة، وكذلك على جامع الصالح وميدان السبعين، واقتحموا مساكن أنصار صالح، وهم في طريقهم لتطويق منزله».

أدرك لحظتها حقيقة تلك الانفجارات التي لم تكن قصفًا لطيران الأشقّاء، أو لقوّات هادي التي تتموقع على مشارف صنعاء، نهم شرقًا، بل هي معارك داخل صنعاء بين أنصار الله وأنصار صالح. فأدرك خطورة الوضع.

أمست صنعاء تلك الليلة تتنفّس الخوف، بعدما أقفرت الشوارع والأسواق بينما يتناقل الناس أخبارًا عن اقتحام الميليشيات بقيّة معسكرات طوق العاصمة ومقارّ الدولة. ظهر الرئيس صالح منتصف تلك الليلة على شاشات الفضائيات يدعو الشعب للثورة على طغيان أنصار الله، موجّهًا نداءاته لقادة المعسكرات وموظفي مؤسّسات الدولة ومشايخ القبائل في عموم البلاد بالانقضاض عليهم وتطهير البلاد من شرورهم.

في اليوم التالي، عرف الجميع أنّ ظهور صالح على شاشات التلفزة، كان بتسجيل مسبق، وأنّ مسلّحي الحوثي قد أحكموا الحصار على منزله، ليعلن مساء يوم 4 ديسمبر عن مصرعه مع عدد من قادة حزبه. دبّ الذعر بين السكّان، ونشطت ملاحقات تستهدف من بقي من مناصريه، لتنتشر فرق الموت محمولة على سيّارات «جيب» تتعقّب الآلاف، كما حوصرت مئات المنازل، وفُجّرت أخرى في صنعاء ومدن متباعدة بتهمة استجابتهم لنداء صالح قبل مقتله.

أثناء ذلك، ظلّ شنّوق حبيس مسكنه، يطلّ من نافذته متابعًا سماءً تظلّلها روائح الموت، وأصوات المآذن مردّدة «حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله...».

هي المرّة الأولى التي تنتابه فيها مشاعر الخوف على غزال. فتاة وحيدة مصابة بمرض عضال، في جوّ مشحون بالبارود والدم. يتحسّس مشاعره تجاهها. يجدها وقد خالطتها مشاعر أبوّة، متمنّيًا لها الأمان في تلك الأوضاع الكافرة.

ظلّ قابعًا بداخل مسكنه، يهزّه تكرار الدويّ ليل نهار، يعاود النظر من نافذته متابعًا زقاقه الخالي. الصرحة الواسعة مقفرة إلّا من عابر مسرع الخطى. المحالّ القليلة مقفلة. أرهف لوقع خلخلة مغلقة الباب. نهض ليجد صديقه يهمّ بالدخول: – أتيت اللحظة لأتحدّث إليك في أمر هامّ.

وجم لصوت ضيفه الجادّ، وقد كست وجهه الصغير ملامح كئيبة. سأله بصوت واهٍ: – ما الأمر؟

– أتيت مقترحًا عليك عملًا بديلًا!

– أيّ عمل في هذه الأوضاع الكارثية؟

– الحوثيين أعلنوا أنّ من ليس معهم فهو عدوّ لهم.

– وما شأني بهم؟
– لم يعد هناك من معارض لهم. أنت تعرف أنّي أنفّذ ما يملونه عليَّ حبًّا في السلامة، ولذلك أتيت إليك، وأمرك يهمّني.
– أنت تخيفني.
– يخبرني البعض في شكّهم بإخلاصي لهم.
– لكنّك زوج الشريفة، فكيف تظلّ في دائرة الشك؟!
– بل الشكّ والتقيّة عقيدة الشيعة.
– زوجتك، سندك؟
– زوجتي بدأت تتغيّر تجاهي.
– وما العمل؟
– عليك من اللحظة أن تظهر مناصرتهم حتى تأمن شرّهم.
– مناصرتهم؟
– اليوم اختلف الأمر، والجميع يلتحقون بالجبهات.
– أترضى لي في هذه السنّ أن أكون قاتلًا؟
– لم يعد اليوم لأحد منّا خيار.
– لا أستطيع.
– هل تثق بي.
– لكنّي لا أثق بهم.
– ما بيننا الكثير. فما زال أول لقاء بيننا ماثلًا أمامي. أتتذكّر يوم رأيتك بين أيدي مجموعة من السابلة بباب الجامع الكبير؟
– نعم أتذكّر.

نهرتهم وسحبتك من تحت أيديهم، ولم أكن أعلم بسبب اعتدائهم عليك. وحين ابتعدت بك أردت أن أتركك تمضي في حال سبيلك، لكنّ رغبتي لمعرفة سبب تجمّعهم عليك جعلتني أسألك عن سبب شجارهم. لحظتها ظللت منكّس الرأس صامتًا. نظرت في وجهك، لأراك شاحبًا، ونظراتك مشوّشة، وتلك الرائحة المحبّبة التي تزفرها تؤكّد أنّك ثمل. قلت لنفسي أيّ رجل هذا الذي يجرؤ على شرب المنكر في بيت الله؟! أعدت تأمّل عينيك الضيّقتين فلم تشيا بشيء. وجهك الغرائبي. فقط رائحتك جذبتني، وإن ظللت أظنّك معتوهًا، أو من أولئك الدهماء. اصطحبتك واستمعت إليك، لأندهش من أسلوب حديثك

ومنطقك. تأكّد لي أنّي وجدت فيك ضالّتي، وقرّرت إسكانك بجواري. وفي لقائنا التالي استأنس قلبي إليك أكثر، تجاذبت معك أطراف الحديث، يومها أدركت أنّك من أبحث عنه منذ زمن، ومن يومها أحرص على سلامتك.

– أتذكّر.

– تعدّدت مسامراتنا، لأجدك ليلة بعد أخرى أقرب إلى نفسي، أجد أنّك الكائن الذي كانت تبحث عنه روحي. لم أبخل عليك بشيء ممّا يسّره الله لي، ولم أتركك تواجه شظف العيش. اصطفيتك خليلًا، وما بيننا من حياة لا يعلمها غيرنا.

صمت لبعض الوقت، كمن يسترجع تلك الأيّام. ثمّ أردف: – واليوم، لا أريدهم أن يقتادوك منّي. أريد أن تسمعني وتطيعني كما أطعتك منذ أول يوم تعارفنا.

– لكن فيمَ أطيعك؟ هل أذهب لأقاتل؟

– لا.

– فماذا إذن؟

– يا صاحبي، علينا أن نرضى بأقدارنا، وأنا خائف عليك.

– لم تكن لغزًا يومًا مثلما أنت الآن. ما المطلوب منّي؟ أتريدني أن أغوي الصبيان بفضائل الجهاد، وأن ألقي دروسًا في رفعة مكانة الشهيد زورًا، وأن أدفع آلاف المغفّلين إلى مهالكهم؟

– أيضًا لا. فقط سأعيرك قطعة سلاح، وأريدك ألّا تخرج إلّا وهي على كتفك، معلنًا أنّك نصيرهم، فتسبقهم ولا تعطيهم فرصة للنيل منك. أريدك أن تخالط الناس في مقايلهم، وفي مساجدهم، وتشاركهم كلّ مناسباتهم. أريد أن تكون عينًا وأذنًا لكلّ حرف يتفوّهون به، وكلّ حركة يتحرّكونها.

– تريدني أن أكون من عسسهم؟

– لكي تحمي نفسك من بطشهم.

– قضيت عمري أعاني من العسس، واليوم تدعوني لأمارس ألعن عمل. سأفرّ. إي نعم، سأغادر هذه المدينة. أرض الله واسعة.

ظلّ صاحبه تلك الليلة يحاول إقناعه، وقد بدأت أطرافه ترتعش، وعيناه تدمعان وهو يتذكّر عذاباته من سجن إلى آخر: – أتظنّهم سيتركونك؟

– إن لم تفرّ معي، فسأفرّ بمفردي.

– لن يتركوك. ستكون هدفًا سهلًا لهم.
– أفضّل الموت على أن أكون من العسس.
– حسنًا. إن كنت مصمّمًا، فعليك أن لا تحدّث أحدًا بما نويت.
– لا وقت لذلك أصلًا، سأرحل عند الفجر.

هبط صمت ثقيل بينهما، حاول شنّوق رسم ابتسامة حانية يلطّف بها الجوّ ملحًّا على صديقه: – عليك أن تفرّ معي.

– لا أريد أن أموت بعيدًا عن مدينة عشت عمري فيها.

عاد الصمت ثالثهما، وعلى غير العادة بقيا طوال تلك الليلة معًا حتى تعالى منادي الفجر. عانقه صديقه دامعًا، ثمّ مدّ له برزمة من المال.

20

خرج شنّوق حاملًا على ظهره كيسًا جمع فيه بعض حاجاته، واضعًا جهازه في حقيبة صغيرة علّقها على كتفه، مودّعًا كتبه وتلك الزوايا التي احتضنته لسنوات. النارجيلة.. متّكأ غزال إلى جوار متّكئه خلف النافذة.

سار وسط عتمة أزقة عتيقة تفيض خوفًا. قباب ببياض كئيب. منارات متّشحة ببقايا ظلمة. صور صبيان على الجدران تبوح برائحة الموت. شعارات يتكرّر فيها الله ومحمّد. حاذى الجامع المقدّس. تذكّر تلك الـ«منزلة» التي سكنها يومًا. عرّج على الممرّ ليرى بابها، يراهم يسحبونه من داخلها ثملًا، ويودّع عمرًا بدأه بمعرفة صديقه هنا يسحبه من بين أيديهم، ثمّ باتّجاه باب اليمن، رصيف القشلة خالٍ من بائعات الريحان والخضروات والدواجن. حاذى «القبر الأبيض». على امتداد الشارع تمركزت عربات مجنزرة. المدينة أصبحت ثكنة مسلّحين. لا أحد في الشارع. لا شيء غير قطعان كلاب سائبة. رأى سيّارة وحيدة في أحد الأزقّة الفرعية. اقترب بحذر يسأله، عرف أنّ سائقها ينوي الفرار من المدينة، لكنّه يخشى الإصابة برصاص المتقاتلين.

عرف شنّوق بخبرته البسيطة كموزّع للخمر شوارع فرعية ملتوية، فراح يدلّ السائق حتى وصلا إلى الأطراف الغربية، وهناك لا مفرّ من أن يسلكا الطريق الوحيد صعودًا إلى مرتفعات عصر، نحو أرياف بني مطر، لتبرز عدّة حواجز مسلّحة حيث تحتشد سيارات كثيرة أمام كلّ حاجز. ينزلون الناس في صفوف لاستجوابهم في العراء. والبعض يجري اقتيادهم والعودة بهم إلى أحشاء المدينة.

صعدت بهما السيّارة حتى كانت أمام هضبة فسيحة. أبهجه ذلك الأفق الواسع، مزارعون منهمكون في حقولهم، رعاة يقودون قطعانهم في مروج

قريبة. يتأمّل سحبًا نقيّة تزيّن وجه السماء، ذلك الإيقاع الرتيب كأن لا موت في الجوار.

طريق أسود يتراقص تحت عجلات السيارة، باتّجاه سوق متنة، وتلك القرى الوادعة على سفوح جبل النبي شعيب الملامس لأطراف السماء، يلتصق به جبل اللوز بخضرته اللافتة. ومع دخولهما سوقًا اصطفّت محالّه على جانبَي الطريق، توقّف السائق من جديد رافعًا صوته: «الحمد لله، وصلنا إلى متنة. نحن في أمان. يمكنك النزول وتدبّر أمرك».

هبط حاملًا كيسه، مكتسبًا القليل من الثقة، سائلًا العابرين عن اتّجاهات الطرق من ذلك السوق الذي يعرفه لأول مرّة. أشار أحدهم نحو الغرب: «بهذا الاتّجاه جبال حراز ثمّ يصلك الطريق إلى الحديدة على البحر. وإذا سلكت طريق الجنوب عبر جبال وعرة، تقودك إلى مجاهل عدّة أودية حتى تصل إلى ذمار، وإذا...» لم يدعه يكمل، فقد عقد النيّة على الاتّجاه جنوبًا. فوسط تلك الجبال يتمدّد واديهم حيث تقبع قريته. سريعًا ما وجد سيّارة متّجهة جنوبًا امتلأ حوضها بأعلاف وغلال طازجة ونفر تشبّثوا بأطرافها. ركبها لتنطلق بهم على طريق ترابي لتخلّف دواليبها دوّامات من الغبار. تجاوزوا عدّة قرى، حتى كانت المحطّة الأخيرة حمام جارف. عرف من هناك اتّجاه قريته عبر شعاب الجبال جنوبًا. فضّل السير محاذيًا لجداول الينابيع الكبريتية، ولم ينتهِ به النهار حتى كان قد أشرف على وادٍ غائر بين الجبال، ركن إلى كهفٍ على سفح منحدر حتى الصباح. سحره منظر الطبيعة المتشعّبة بالسكينة والهدوء، سار تحت شقشقة العصافير وتموّجات رياح أشجار تتلاحم من الجبل إلى الجبل، ليتراقص الوجود على خرير مياه تتدفّق في شلّالات متصلة. هبط بين جذوع الأشجار محاذيًا لصخور مجاريها، يرفع ناظريه. جبال شاهقة تحيط تلك الشعاب. سكن قلبه سلام غامر. يتمنّى لو كانت غزال رفيقته. زاره طيف صاحبه. حتى إنّ صدى صوته في آخر لقاء لا يزال يتردّد على مسامعه. ابتسم هازًّا رأسه في أسًى وهو ينحدر في طريقه.

تسلّق فروع أشجار يميّزها منذ كان صبيًّا، باحثًا عن ثمارٍ تسدّ رمقه، تذكّره تلك الأحراج والشعاب الساكنة بشعاب قريته، فازداد وجدًا إليها، وقد رأى نفسه مستقرًّا بين أولاده، يذهب كلّ صباح إلى الوادي كما كان يفعل.

صادف في طريقه أحد الرعاة، الذي أخبره بأسماء تلك القرى المعلّقة، ودلّه إلى دروب تؤدّي إلى بلاد بعيدة، محذّرًا إيّاه: «لا أحد يجرؤ على دخول شعاب تلك الغويبات إلّا مسلّحًا، أو برفقة أشدّاء. وإلّا أمسى في بطون حيواناتها المفترسة». يسترجع لحظاته وحيدًا ليومين مضيا، فيشعر بقشعريرة الموت تسري في مفاصله.

حاذى عدّة قرى متجنّبًا تلك الأغوار التي بدا منظرها من المرتفعات غامضًا ومخيفًا. تجاوز أودية وسلسلة جبال شاهقة، هابطًا مجاري سيول جافّة، حتى وصل مع ظهيرة ذلك النهار إلى تخوم سوق السبت، ليجده كما عرفه قبل سنوات خلت. مجموعة من السقائف عند مفترق أودية هابطة من قريته. بعض الباعة يقفوا بمواشيهم، وباعة البهارات والقات وسلع متنوّعة ما زالوا يعرضون سلعهم. مجاميع فلّاحي القرى المجاورة بمنتجاتهم الزراعية. تجاوز السوق باتّجاه قريته متجنّبًا رفقة العائدين والغادين، حتى لا يتعرّف إليه أحد. صادف رجلًا أعمى تقوده صبيّة عائدًا على مشارف قريته. عرف الأعمى دون أن يصرّح له عمّن يكون:

– السلام عليكم يا بصير.

– وعليكم السلام. من الأخ؟

– عابر سبيل يا بصير!

ليندمجا بعد السلام في أحاديث عن الأوضاع المعيشية، وأحوال الحياة التي تسوء يومًا بعد يوم. ثمّ سأله بصير:

– من أيّ البلاد أنت يا خبير؟

– بلادي بعيدة، لكنّي أتسوّق دومًا من سوق السبت.

ذاكرًا له بعض من يعرفهم من كثرة تردّده على سوق السبت. سأل البصير عن بعضهم في حذر، حتى وصل ليسأل عن نفسه:

– وشنّوق هل عاد إلى قريته؟

– أتعرفه؟

– عزّ المعرفة، ولو أنّها قديمة.

– لم يعد منذ سنين طويلة. حتى إنّ أخباره انقطعت.

صمت البصير قليلًا ثمّ تابع:

– كان شابًّا لطيفًا، وإن كانت تصرّفاته تشوبها الغرابة. لا يستقرّ على حال. ترك زوجته وأطفاله، وقيل إنّه سُجن لأنّه شيوعي، وخبر آخر بأنّه طاح في الأرض مجنونًا حزنًا على نسيبه قانح الذي قُتل في حرب البيض وصالح.

– وأولاده من لهم؟

– عمّهم، الذي تزوّج بأمّهم، بعد وفاة زوجته.

صعقه الخبر. وهو الذي فكّر في العودة والاستقرار. شعر بمرارة لاذعة عقدت لسانه، ودوار خفيف، حتى إنّه لم يعد يسمع من حديث البصير إلّا طنينًا. حاول أن يتماسك، أن يتغلّب على مشاعر قبيحة اجتاحته. بعد خطوات استعاد توازنه ليقاطعه بصوت واهٍ:

– أخوه؟! أيجوز ولها زوج؟

– تزوّجت بعد أن نصحها الناس بفسخ زواجها من السابق، لغيابه وانقطاع أخباره، فقد ساءت أحوالها المعيشية، ولم تجد ما تقتات به وأولادها.

– ثمّ ماذا؟

– هي امرأة صبورة، فقدت شقيقها ثمّ زوجها، لتصبر على قسوة الحياة، مثابرة في تربية أولادها.

ظلّ صدى صوت ذلك البصير يتردّد: «تزوّجت بأخيه، تزوّجت، تز...». رفع شنّوق وجهه إلى السماء، نحو تلك الجبال التي طالما شاهدت ذهابه وإيابه إلى الوادي، باحثًا عن صدى صوت يتردّد في أعماقه. الطريق كأنّه أفعى تحت رجليه. تردّد بين المضيّ أو العودة، فلم تعد له حاجة إلى قريته.

يزيد صوت البصير من إيلامه وهو يواصل حديثه: «شيخ القرية يتسلّم مبلغًا عن كلّ صبيّ يلحقه بالميليشيات، وقد تحوّل إلى تاجر موت، حتى إنّ ابنها الكبير لم يعودوا به إلّا صورة سُلّمت لتستقبل التهاني باستشهاده».

– ابن من يا بصير؟

صوت شنّوق يخرج مهزومًا، ليردّ عليه باستغراب من لهفة صوته:

– ابنها الكبير استُشهد في حرب بعيدة، لكن بقي لها الأصغر الذي أصبحت تخاف عليه من أن يبيعه الشيخ أيضًا كأخيه لتجّار الموت باسم الله.

انهارت قواه، وغامت الرؤية ولم يعد يرى موضع قدميه. ترك البصير يسير بينما اقتعد صخرة على طرف الطريق لا يريد سماع المزيد من الفجائع، لكنّ

صدى صوت البصير استمرّ ينهشه: «ابنها الكبير لم يعودوا به إلّا صورة... لقد تزوّجت، تزوّ...».

استعاد تماسكه لتظهر مباني القرية من مرتفعها المطلّ على الوادي. نهض يسير، استغرب اهتزازها، كلّ ما حوله يهتزّ على وقع خطواته، حتى الجبال العالية تهتزّ، والسماء كذلك، ومزارع الوادي وأشجاره.

عاد يجلس تحت ظلّ شجرة محاولًا استيعاب واقع لم يكن على باله، ليرى حلم الاستقرار سرابًا. تمنّى لو يكون حديث ذلك البصير مجرّد توهّمات، وأنّ زوجته سيجدها في انتظاره.

فكّر أن يتوجّه إلى بيته، أن يعتذر لها ويعاهدها على عدم تركها مجدّدًا حتى الممات، أن يجمع أولاده حوله كما كان في الماضي، لكنّه عاد يحدّث نفسه: ماذا لو كان حديث ذلك البصير حقيقة. كيف سأبدو وأنا تركتهم كلّ هذه السنين؟

يبحث عن مأوى وقد أقترب النهار من نهايته. استدلّ على غرفة حراسة شبيهة بقلعة حرب، تشرف من ربوة عالية على مزارع الوادي. قضى ليلته يقلّب الأمر، يندب حياته تارة وتارة يشدّ من عزيمته، مستعرضًا علاقته بذلك الشقيق الذي استخلف زوجته، لم يتخيّل يومًا أنّه سيرث زوجته. تساءل: هل ما قام به يُعدّ فعلًا أخلاقيًا أم هو حقارة ووضاعة؟ أيّ دين سويّ يقرّ بذلك؟

ظلّ يقلّب الأمر حتى انبلاج الصباح دون طائل. خرج متحايلًا يتجنّب العابرين حتى اقترب من مزرعته. لاحت أمامه امرأة قادمة، يتبعها شخص حاملًا أدوات حرث. تجاسر على رهبته وبقي يراقبهما وقد دخلا المزرعة. ميّز ذلك الشخص الذي يعزق الأرض بمعوله، إنّه أخوه. وتلك التي تبذر الحبوب خلفه ليست سوى زوجته. أخذ يتابع قدميها وهي تدكّ أديم الأرض لتغمر ما بذرت بالتراب، تسير خطوات ثمّ تلتفت لتتأكّد ممّا صنعته قدماها. يقترب منهما في ذروة انهماكهما. يتأمّلها. أنفها الدقيق، بياض وجهها المخضّب بالعرق، تلك القامة المنحنية. لم تتغيّر في شيء، عدا إحلالها لذلك الأخ مكانه. أو ربّما لا. ربّما لم تتزوّجه، وما يقوم به الآن هو مجرّد مساعدة أخوية ليس إلّا. اقترب أكثر يرقبهما، هو يشق الأرض بمعوله وهي تتبعه ببذارها. ميّز وجهه، فكّه، عينيه الغائرتين. تأكّد من أنّه هو، فاجتاحته مشاعر حقدٍ وهمّ بمهاجمته واسترداد زوجته فورًا، فهو الأولى بها وبأولاده، لكنّه تراجع.

مرّ الوقت وازدادت حرارة الشمس بعدما اعتلت كبد السماء، ليسمع صوتها العطوف: «يكفي هذا اليوم، هيّا نعُدْ، الشمس حارّة وأخاف عليكَ ضربتها».

تعالى رجفان قلبه وهمّ بأن يرفع صوته ليسألها: «من تعنين، أنا أم هو؟»، لكنّه صمت يتابع خروجهما وقد وضع أخوه معوله على كتفه، وتبعته هي حاملة ما بقي من بذور على رأسها. تبعهما بحذر حتى دخلا أطراف القرية، واقتربا من باب بيته. هناك، خرج فتى استقبالهما وحمل كيس البذار عنها، اقترب شنّوق متوثّبًا وبين يديه أحجار، لتستدير وكأنّها أحسّت بمن يتبعهما. وقف الصبيّ إلى جوارها، ثمّ استدار زوجها، وأخذا ينظران إلى حيث تنظر. للحظات اكتسى وجهها تعابير غامضة. ركّزت ناظريها في عينيه صامتة. شعر لحظتها بسنوات طويلة تظهر بينهما كجدار عالٍ. انهارت رغبة البقاء بداخله. تراخت أصابع كفّيه لتتساقط الأحجار، وغمرت عينيه دموع سخيّة غبشت رؤيته لوجوههم، حتى إنّه لم يعد يرى شيئًا. استدار مهرولًا نحو أطراف القرية، لا يدري في أيّ اتّجاه تقوده قدماه، ظلّ يهرول صارخًا دون صدى لصوته. جلس منهكًا على صخرة في أطراف الوادي. التفت. رأى القرية على مرتفعها كومة بعيييدة، دون ملامح. مسح دموعه، ووقف باحثًا عن طريق يسلكه، فرأى الجهات وقد تماهت ملامحها.

19

لم يعد له هدف بعد ابتعاده عن القرية إلّا إيجاد وجهه يقصدها. تحضره غزال، البندرية، طنهاس. يتساءل: أيّهم يكون وجهتي، هل أعود إلى صنعاء وأواجه قدري، أم تكون وجهتي عدن، أم أهيم في الأرض؟

بعد تردّد اختار أن يولّي وجهه جنوبًا. عانى لأيّام زادت عن الشهر، لكنّه وصل أخيرًا إلى أطراف عدن حيّ الشيخ عثمان. وفيها استأجر غرفة في فندق أوسان المطلّ على السوق العامّ. بعد نومة طويلة، فكّر في زيارة أول مقهى نت يصادفه، ليرى بعد انقطاعه لأكثر من شهر ما يحمل له من رسائل وأخبار. سأل. دلّوه على مقهى أسفل الفندق يحمل نفس الاسم، «أوسان نت». سُعد لوجود مجموعة من الرسائل على قائمة الانتظار. استعرض مصادرها. عدد منها من غزال، وآخر من البندرية. وعدد قليل لأسماء متفرّقة. بخفقات قلب مرتجف بدأ بتصفّح الرسالة الأولى: «إذن، لقد عدت إلى حياتك الريفية، وتزوّجت وخلّفت وفلحت الأرض كأيّ مزارع. لكنّي أتساءل: لماذا انكفأت على ذاتك وأنت بين أهلك وناسك؟ تلك القرية التي حدّثتني عنها، عن شوقك للعودة إليها. كنت تدمع وأنت تصف نقاء سريرة سكّانها ووفاءهم، وروعة طبيعتها. لماذا حين عدت تحاشيت سكّانها؟ كما أنّك سكنت إلى زوجة لك، لكن لا أعرف لماذا لا تتحدّث عنها في رسالتك. ملامحها، مشاعرك تجاهها. هل كنت تحبّها؟ لقد أشعرني خطابك عنها أنّ عاطفتك تجاهها ظلّت ميتة. فكيف أنجبت كلّ هؤلاء الأبناء من دون عاطفة؟ وكأنّك تزوّجت شبحًا، لتفرّ منها في النهاية تاركًا إيّاها فريسة للضياع. ذلك ما أعادني لأستعرض تجربتي معك. حين كنت تهرب في أول اختبار متخلّيًا عن مسؤولياتك حتى الأخلاقية. لا أنسى أنّك تخلّيت عن بذرتنا دون أدنى تأنيب ضمير. وها أنت تكشف لي تخلّيك عن

زوجتك وأولادك تحت مبرّرات واهية. ويعلم الله كم خدعت وخذلت من النساء، لتظلّ ذلك اللامنتمي. حتى قريتك، التي وصفتها لي يومًا بالفردوس، تتركها دون أسف، ما يدفعني للتساؤل عمّا إن كنت نفس تلك القرية التي تحدّثني عنها بهيام دامع، عن طفولتك فيها، وصباك، حتى شُغفت أنا بها، متمنّية أن نعيش معًا فيها للأبد، فهل كنت تصف لي واقعًا عشته، أم أحلامًا تمنّيتها، حتى تصوّر اليوم ذلك المكان ومجتمعه كقطعة من جهنّم، سعير مستعر؟

حزينة أن تهجر قريتك وأسرتك بعد أن أطلقوا سراحك. عُد إليهم. تفقّد أولادك، وتخلَّ عن ادّعائك الكاذب لرهابك، مبرّرًا لتملّصك من مسؤولياتك. أراني أشفق عليهم، رغم غرقي في متاعبي ومرضي.

كنت أظنّ أنّي سأجد لديك السلوى، وإذا بي أجد كائنًا يعيش عقدًا مركّبة.

ومع ذلك أجد في نفسي تجاهك بعض الشفقة وأتمنّى رؤيتك، لكنّها المسافات تحول بيننا. سأظلّ أحلم بأن نلتقي بدلًا من هذه الرسائل الجافّة».

الرسالة الثانية كانت بتاريخ 1 ديسمبر «هذه هي الليلة الخامسة ولم أتلقَّ ردًّا منك. أكتب إليك، بعدما تذكّرت ما منحتني إيّاه يومًا من سعادة، اكتشفت لاحقًا أنّها كانت خادعة. لقد كنت جلّادي، في الوقت الذي تكرّر فيه تصوير نفسك ضحيّة. فأنت من كان يعاملني كسقط متاع، وأنت الذي لم تمنحني يومًا الأمان. عُد لنلتقي، بدل أن أظلّ هكذا أستحضر كلّ لقاء كان بيننا، وكلّ موقف كنت تقفه منّي. عد متأمّلًا علاقتك بي. سترى أنّك الجلّاد الأول ولم يضاهِك أحدٌ في هذا المركز. فغيرك قسا عليّ من دون أن يدّعي محبّتي، أمّا أنت فبالمحبّة جلدتني، معتمدًا على قدرتك في الإغواء. ذلك كلّه كي تروي ظمأ ذكوريتك. لم تُقدّر أنّي فتاة وحيدة لجأ قلبها إليك كي تحميه من قسوة مجتمع فحولي. لكنّك كنت مثلهم لا ترى فيَّ إلّا دنسًا وعرضًا مباحًا، أو بالأصحّ أداة عهر، ولم تعرف أنّك كنت ذلك العاهر القاسي.

أخبرك بأنّني أكتب إليك بعدما استعرضت كلّ رسائلك الورقية، تلك التي كنت تبعثها إليَّ قديمًا. ها هي بين يديّ تذكّرني بأسلوب تفكيرك. تلك الرسائل التي أحتفظ بها ضمن هداياك البسيطة: وردة جافّة، قارورة عطر رخيص، قلم، مناديل، دفتر كتبت فيه خواطر وأهديته إليَّ. أيضًا شال أبيض مرقّط بالأسود كنت تضعه على كتفك، وقد فقد رائحتك.

يضحكني ما جاء في إحدى رسائلك القديمة. تخاطبني فيها لا كحبيب بل كوليّ أمر. فيها تأمرني أن أحتشم بعباءة سوداء، وتصف لي كيف تتحدّث المرأة المحترمة إلى الغير، وكيف تسير في الشارع، وكيف تتعامل مع الناس. كانت رسالة غريبة وأنت تحدّد لي ما يجب وما لا يجب. وأتذكّر أنّني حينها حاولت نقاشك لكنّك رفضت ذلك شارطًا إنفاذ ما تمليه عليَّ، وفي مقدّمة ذلك وضع الخمار على وجهي، مكتفيًا بالقول: أنتِ تعيشين وسط مجتمع لا يفكّر في المرأة إلّا كأداة للمتعة. تلك الرسالة، ورسائل أخرى، أعود إليها، لأعاود اكتشاف ما يحمله عقلك، فتبكيني بعضها وتضحكني أخرى. لكنّها ذكريات ولّت عمومًا».

الرسالة الثالثة في 7 ديسمبر: «أين ذهبت؟ لماذا أنت صامت؟ أم إنّ رسائلي أغضبتك؟

أكتب إليك والصقيع يلثم أطرافي. كلّ شيء ينكمش هنا، حتى قلبي. أشعر ببرد ينخر مفاصلي، وأخشى أن يكون ذلك مؤشّرًا على قرب نهايتي.

أتحرّك بصعوبة تحت أغطيتي، أتناول قليلًا من الأطعمة، والكثير من العقاقير. متعتي الوحيدة هي إخراج أصابعي كي ألاعب أزرار الموبايل وأكتب إليك، ثمّ الانشغال بمتابعة ما تبثّه القنوات التلفزيونية بانتظار ردّك. تزورني دومًا أفكار مقلقة عن المرض والموت، أستنجد بك وأشعر بوجودك تتحرّك كما كنّا معًا نُلبس ليالينا العتمة، نتشارك الحمّام، ونعدّ بعض الأطعمة معًا. تظهر ببراءة طفل يكتشف الأشياء للمرّة الأولى. اليوم لا أجد من يشاركني لحظاتي كما كنت تفعل. وأظلّ على أمل لقياك. على أمل أن نعيش ولو لأيّام قليلة معًا. هل تعدني إن التقينا أن نكرّر ما كنّا نعيشه؟

تدمع عيناي حين أظنّ أنّنا لن نلتقي. لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل، فكلّما تذكّرت تلك الأيّام تسيل عيناي. هل أبكي من ظلمك، أم من فقدي لك، أم هو عجزي الذي جعلني كائنًا لا يفكّر إلّا في الموت؟ لا أعرف، لكنّي أعدك بمقاومة هذا اليأس حتى لقياك، وبعدها لا يهمّني إن اصطحبني بعيدًا.

كثيرًا ما أردّد لنفسي بحنق: ماذا لو أنّك كنت شجاعًا، وتجاوزت عقدك وارتبطت بي؟ كيف كانت حياتنا لتبدو؟ وأسألك الآن: هل تشعر اليوم بالندم؟ آه لو كان الأمر بيدي، لم يكن ينقصنا شيء. وذلك الحبّ الذي كنت أحمله لك كان كافيًا لنتقاسمه ونقتات به عمرًا بأكمله، لكنّك كنت مكبّلًا بعادات ابن

الريف والقبيلة، تنجح في إظهار نقيض ما تخفيه، ولو أنّك أتقنت تصنّع التلقائية، خاصّة حين تردّد مبادئ الاشتراكية والمساواة والحرّية. وقد اكتشفت متأخّرة أنّك لم تكن تعي ما كنت تتشدّق به، بعد أن صدّقتك لأقضي بقيّة عمري أعاني من خديعتك.

أتراني أهذر وأنا أحلم بصفحة جديدة نلوّنها معًا؟ أم إنّ صمتك يغريني بمزيد من الثرثرة؟ أنتظر ردّك، فلا تتأخّر».

رسالة 10 ديسمبر «وحيدة أتابع قنوات الأخبار. صور حيّة لمواجهات شرسة في أحياء صنعاء. أخشى أن تكون أصبت. فقط طمئنّي، بعدها اصمت كما تشاء. واعلم أنّه لولا قَلَقي عليك لما كتبت لك أكثر من رسالة وأنت صامت. يهمّني أن تكون بخير، وأتساءل عمّا يجري. هل ما نشاهده حقيقة؟ أيُعقل أن يكون الحوثة ومن يقصفون بهذا القبح حتى يتشاركوا في تدمير صنعاء؟! أم إنّ ما نشاهده على شاشات الفضائيات مجرّد مبالغات إعلامية؟ حدّثني عن حالك وسط هذا الغثاء. كيف تعيش؟ وعن الحياة في ظلال الموت. هل صنعاء العتيقة في أمان؟ أسواقها، محالّ بيع التحف والفضّة والعقيق، الأواني الحجرية التي تطبخ النساء بها، غرفها المبخرة الطالّة على صنعاء من علٍ، أقبية الحمّامات التركية، هناك حيث تتنفّس مسامّ الروح بين أبخرة وسخونة تتنفّسها الحجارة. نقش الأجساد بخضابها والحنّاء المبخّر. ردّ عليّ، طمئنّي، قل لي أنّ صنعاء عصيّة على الخراب. صمتك يقلقني...».

أعاد قراءة تلك الكلمات. وقد وخزه صدق كلماتها وخوفها عليه. همس لنفسه أنّها لا تزال، برغم هذيانها، الفتاة التي كانت.

ثمّ انتقل لقراءة الرسالة التي تليها... حتى آخر رسائلها في 21 ديسمبر: «لماذا تصمت؟ صمتك يخذلني. قلقي يتزايد وأنا أتابع اشتداد المعارك على شاشات الأخبار. أشلاء. أنقاض. أعمدة دخان. صور لطوابير النازحين بهول الفجيعة.

أخاف أن لا أراك يومًا، وأنا التي يزورني ملك الموت كلّ يوم. أصلّي لأن تكون على قيد الحياة. يحدّثني قلبي بأمل أنّنا سنلتقي، وأنّك بخير، وأنّني سأقبّل وجهك الكبير وأسمع صوتك وألمس أطرافك، لتحدّثني بما لم تحدّثني به، ونرقص كما كنّا. أرجوك أن لا ترحل، لهفتي تتّقد، ولا أستطيع تصديق ما

تبثّه القنوات اللعينة. ردّ عليَّ، وأعاهدك بعدها أن لا أطلب ردًّا آخر. سأظلّ متعلّقة بخيوط الأمل، وإن لم نلتقِ هنا، فسنلتقي في ملكوت السموات...».

دمعت عيناه، تحامل على نفسه. لكنّه أجهش باكيًا، التفت بعض روّاد المقهى نحوه، اقترب أحدهم يواسي نحيبه: «صلّ على النبيّ يا حاجّ». وآخر هامسه وقد أمسك بكتفيه: «اذكر الله يا عمّ. هل أنت بخير؟» حاول تصنّع ابتسامة من بين دموعه، مشيرًا إليهم: «أشكركم، أنا بخير».

18

ذهبت به الذاكرة إلى نبرة صوتها وهي تتلاعب بالأحرف الأخيرة للكلمات. كانت لها طريقتها الساحرة. لا يزال صوتها يرنّ في أذنيه. يستحضر نظرات عينيها الصغيرتين وسحر ابتسامتها الحانية، فتزداد دموعه من دفء لهفتها على صنعاء وما تعيشه من لحظات عصيبة تحت روائح البارود الدامي.

همّ بالرد عليها وإخبارها بأنّه الآن قد وصل إلى عدن، ثمّ تردّد مفضّلًا مفاجأتها بحضوره. نهض من لحظته وقد راقته الفكرة وانفرجت أساريره. يسأل عن موقف الحافلات إلى كريتر، ثمّ استقلّ سيّارة أجرة، متلهّفًا وهي تخترق أحياء: الممدارة، المماليح، الكورنيش. لفتت انتباهه كثرة متارس المسلّحين على الطرق، ومكبّرات الصوت فوق سيارات ودراجات نارية تصدح بزوامل حربية شبيهة بتلك التي تُبثّ في صنعاء، الداعية للحرب والقتال. الجميع بملابس ريفية، وقد أسدلوا شعورهم وتمنطقوا بالجعب والبنادق الرشّاشة. أوجعه منظر تدمير المباني المحيطة بالبحر والمساجد، النازفة آثار الحرب.

دخل أحياء كريتر، هبط في ميدان الساعة. لم يجد صعوبة في الوصول إلى ذلك المنزل الذي عرفه يوم رافقها في زيارته. قبل أن يطرق الباب تصوّرها لحظة رؤيته أمامها وقد فتحت الباب. كيف ستتقبّل رؤيته بعد هذا العمر. أصلح من هندامه، أخذ نفسًا طويلًا، طرق الباب ووجهه يتقاطر مشاعر غزيرة. فُتح الباب. لم يكن من أحد غير صبيّة محجّبة، تلعثم يسألها: «هل البندرية هنا؟».

ارتدّت الصغيرة إلى الداخل، لتظهر بعدها امرأة في العقد الخمسين، أربكته نظراتها المتسائلة ثمّ أردف: «هل هذا بيت الزيدي؟». فردّت عليه بالنفي، ظلّ أمام الباب حائرًا. وقبل أن يكرّر سؤاله، أدركت حيرته وخيبة ظنّه،

فقالت له: «من تسأل عنهم رحلوا منذ سنين طويلة، ويقال إنّهم سكنوا خور مكسر».

أحسّ بانكسار قلبه. عاد أدراجه وقد اكتست الجدران بغبرة لا لون لها. كلّ ما حوله أضحى بدون روح. يسير خارجًا من تلك الشوارع. حتى أصوات المارّة وأصحاب المحالّ تتداخل بلا معنى. قرّر أن يتّجه إلى خور مكسر يسأل كما أخبرته المرأة. ولم يطل به الوقت حتى كان هناك يسأل من يصادفه من أصحاب المحالّ عن «بيت الزيدي»، ليدلّوه على أكثر من بيت زيدي أول وثانٍ وثالث لم يكن أيّ منها للبندرية. وجد إجابة مبهمة من أحدهم: «بيوت عدن تغيّر ساكنيها كما تغيّر الحيّة جلدها. ففي كلّ دورة دم يطرد المنتصر ضحيّته، ليحلّ مكانه».

عاد إلى مستقرّه بفندق أوسان، محاولًا استيعاب واقعه الجديد، يدخل مقهى «أوسان نت» يختار شاشة 11. يكتب للبندرية: «أنا بخير. وقد فررت من صنعاء، وما عدم ردّي على رسائلك إلّا لأنّي كنت في الطريق إلى عدن. وقد وصلت إليها أمس. لم أخبرك بوصولي، ووددت أن أصل إلى بيتكم لأفاجئك. لكنّي حين طرقت ذلك البيت في كريتر الذي كانت أسرتك تسكنه وجدته لم يعد بيتكم. فهل لا أوضحت لي عنوانك حتى آتي إليك».

أتاه الردّ سريعًا وصادمًا: «شكرًا أنّك بخير. أن يأتي ردّك بعد ما يزيد عن صمت شهر خير من أن لا يأتي. الأهمّ أنّك الآن في أمان بعيد عن جنون المواجهات، وهذا ما كنت أدعو الله به. لكنّ ما أودّ قوله، من قال لك إنّني عدت إلى عدن؟».

كمن تلقّى صفعة أفقدته توازنه. أغلق الجهاز ماطًّا قامته على مسند المقعد كمن يتخلّص من ثقل يكاد يمزّقه، ثمّ خرج يسير من رصيف إلى آخر لعلّه يتخلّص ممّا أصابه. وقف لبعض الوقت. اهتزّ كمن يحاول التخلّص من عوالق غير مرئيّة تعلق به وتتشبّث به. يقلّب الأمر متسائلًا: لماذا ترفضني؟ أم هي لم تصدّق أنّني في عدن؟ عاد مسرعًا ليجالس الشاشة، مصمّمًا على امتصاص غضبها. كتب: «أنا لا أخادعك. وسبب انقطاع ردودي عليك، بداية بانقطاع خدمة النت في صنعاء منذ بداية المواجهات، ثمّ فترة هروبي منها ومن ميليشياتها. كلّ هذا استغرق أكثر من أربعة أسابيع، وبمجرّد وصولي إلى عدن ها أنا أكتب إليك. الآن لا أريد أن أثرثر عبر النت، فما بقلبي يستحق

مسامعك. رسائلك الأخيرة وخوفك عليّ جدّدت حنيني وشوقي إليك، فهلّا تلطّفتِ عليّ بعنوان سكنك إن كنت ترحّبين بزيارتي لك».

ظلّ على مقعده يتمنّى ردّها. وحين طال الصمت، عاود كتابة رسالة ثانية وثالثة، لكنّ صمتها استمرّ.

17

وجد نفسه مرفوضًا في مدينة لا يعرف أحدًا فيها سوى البندرية. يسأل نفسه: ماذا بعد؟ هل سأظلّ معلّقًا؟ ثمّ ماذا أريد منها؟ ومن لحظتها بدأ يفكّر في البحث عن وجهة يسلكها، فمهما يكن ما معه من مال فمصيره النفاد. تذكّر أن يطمئنّ على صنعاء، بعد شهر من انقطاع التواصل. رأى أنّ رسائل غزال هي طريقه لمعرفة ما يدور هناك. عادت إلى وجهه الابتسامة ممنّيًا نفسه بأن تتفهّم أسباب فراره، وألّا تحذو حذو البندرية وتتّهمه بخذلان من يدّعي محبّتهم. زاد نبض قلبه وقد بدأ قراءة أولى رسائلها: «حاولت التواصل معك لأجد أنّ النت مقطوع، أردت معرفة أحوالك وسط هذا الخراب والرعب الذي اجتاح المدينة. حتى إنّني تقيّدت عن الخروج من غرفتي خوف ما يدور من انفلات. لكنّي اطمأننت عليك بمهاتفتي للشريفة، وأنّ كلّ من في الدار بخير. وأردت أيضًا أن أحذّرك من الخروج. لا تذهب بدرّاجتك لتوزيع ما توزّعه. من غرفتي يصلني دويّ وأصوات الرصاص، تهتزّ على إثرها الجدران. أسمع جاراتي يتحدّثن عن جثث ملقاة في الشوارع.

منذ بحت لي ببعض همومك أمسيت أخاف عليك. ولذلك أحسّ بك كلّما ألمّ بي الخوف. لقد أحببتك أكثر بعد أن عرفت ما يقلقك. كن حذرًا، وسأخرج إليك في أول أمان».

الرسالة التالية «أيّها الهارب. اليوم عرفت أنّك تركت سكنك منذ أيّام. كيف تفعل ذلك من دون أن تخبرني، أم أنت هربت منّي؟ لقد حضرت بعد أن لمست بعض الأمان، يقودني الشوق إلى قضاء ليالٍ طوال بقربك. وإن دهمنا الموت نكون معًا. لكنّي فوجئت بالشريفة تسلّمني مفاتيح سكنك:

– لكِ أن تسكنيه.

وقفت مسلوبة التفكير أنظر إليها، ظانّةً أنّها تسخر منّي وقد كشفت ليالينا معًا، لترفع صوتها:

– لمَ تنظرين إليّ هكذا كالبلهاء؟

– لكنّها مسكونة!

ردّت غاضبة:

– لقد هرب!

صمتّ، لا ألوي علي شيء. أردفت بنفس الحدّة: هرب بعد أن اكتشفوا خيانته.

– خيانته!

– تصوّري أنّ ذلك المسخ يرفض شرف أن يكون في صفوف أنصار الله. والله لن يتركوه. هم في إثره، وسيصلون إليه أينما كان.

شهقت فزعة. وكادت لهفتي تفضحني. لتسألني:

– لمَ تشهقين؟

– ...

– هيّا اذهبي.

ومن يومها تركت سكني في قاع اليهود، وأمسى منامي في وكرنا يعوّضني غيابك. أنتظر ردّك في كلّ لحظة. أن تطمئنني عليك. أن تخبرني أين أنت كي ألحق بك».

لم يكمل، وهو يرى أنّ العودة إلى صنعاء أضحت مستحيلة. أمسك برأسه بين يديه، دامع العينين. مسح وجهه، ثمّ عاد يواصل القراءة: «أعرف أنّ صاحبك يعرف أين أنت، أبحث عن حيلة لسؤاله ثمّ أنهر نفسي. تغيّرت النفوس، وزادت الحياة تعقيدًا، لا أعرف أين يمضون بنا بحروبهم. حتى الشريفة فاجأت الجميع بتغيّرها، بعد إعلان سيطرة الميليشيات على صنعاء والقضاء على بقايا أنصار الرئيس صالح، تغيّر تعاملها. لم تعد تلك المرأة الوديعة العطوفة. أمست مهمومة بمتابعة معارك أنصار الله، وكأنّها ضابط عسكري. أبتهل في صلواتي أن يسلّمك الله من شرورهم. أرأيت... لو كان لديك رقم هاتف لسألتك وعرفت من فوري أيّ طريق أسلكها إليك. ولذلك أظلّ رهينة هذا النت، لماذا؟ أنتظر ردّك لأطمئنّ عليك. بقايا أمتعتك تؤانسني. أحرص على أن يكون كلّ شيء كما تركته، كما لو أنّك لم تفارق سكنك:

فراشك، متّكأك، كتب الزاوية، الطاولة القزمة، النارجيلة، موقد الجمر الذي أحرص على إيقاده لتعمير رأس المعسّل وأيضًا البخور، نافذتك المطلّة على العابرين. ودومًا أنتظر طيفك كلّما حلّ المساء، متلمّسة آثارك في ما حولي. فقط اختفاء جهاز اللابتوب وبعض الكتب وملابسك يشي بغيابك. أنهض وسط الظلام من غرفة إلى أخرى وكأنّي سأجد صوتك. هيّا أخبرني أين تختبئ، إن كنت لا تريدني فلن ألحق بك. فقط طمئنّي عليك».

رسالة أخرى: «برحيلك وبصمتك لا أجد من يعزّيني في بائعة الريحان. أمس ذهبت لأزورها بعد انقطاع أسابيع طويلة. يقودني الحنين لرؤيتها. لم يعد باب اليمن ولا أرصفة القشلة تعجّ بالحركة. كلّ شيء عارٍ يسكنه القلق والخوف. لم أجدها في مكانها. رصيف القشلة خالٍ إلّا من بعض رفيقاتها. ظننتني سأجدها وقد غيّرت مكانها. لكنّها لم تكن هناك. جلست أنتظرها، لتسألني إحداهنّ عمّن أنتظر، ثمّ أخبرتني دامعة: «لقد قتلوها».

لم أصدّق أنّ أحدًا قد يزهق روح تلك المرأة. لكنّهنّ أكّدن لي أنّ السيارة التي دأبت على حملهنّ من الأرياف كانت في طريقها إلى صنعاء قبل أيّام، حين وصلت بهنّ أمام حاجز مسلّحين نُصب حديثًا. هناك أنزل المسلّحون النساء ليعبثوا بسلالهنّ وحزم ريحانهنّ ويبعثروا كلّ ما فيها بحجّة البحث عن سلاح. حين بعثروا بريحانها على الأرض صرخت محتجّة، ظانّةً أنّها أمّ تعاتب أحد أولادها، لكنّ أحدهم التفت إليها موجّهًا بندقيته نحوها لتنطلق منها رصاصة اخترقت رقبتها. بعدها صمت كلّ شيء، وقد سقطت أرضًا مضرّجة بالدماء، بحدقتين مفجوعتين تنظران إلى السماء.

لم أعد إلى الدار بعد سماعي خبر مقتلها. جلت أبحث عنك لعلّك تواسيني، لكنّي لم ألمحك في توهاني. وأجد اليتم يتضاعف، أبكي ولا أجد من أشكو إليه آلامي».

رسالة تالية: «ممدّدة في غرفتك أتلوّى ألمًا. أشعر بأنّ كلّ شيء يذوي فيّ. لن تصدّق إن أخبرتك أنّني تركت الباب ليلة أمس مواربًا لحدس راودني بأنّك ستتسلّل إليَّ كما كنت أتسلّل إليك. تعال لتعزّيني، فلا من معزٍّ.

تسألني الشريفة عمّا يجعلني في سرحان دائم. أحتار في الإجابة، محاولةً أن لا يظهر نقصي عليها، هي التي لم يعد يهمّها بيتها، وقد تفرّغت تدعو زائراتها لتجنيد الشباب للجهاد في سبيل الله، دفاعًا عن العرض والأرض. تحثّهنّ على

اليقظة ومراقبة كلّ محيطهنّ، مستغلّةً حاجتهنّ لتوزّع عليهنّ سلالًا غذائية تشتمل على زيت ودقيق وأرزّ ممّا تتفضّل به منظّمات إنسانية. لا أعرف من أين لها مثل تلك القدرة، ولا لغة السجع التي تخلب ألباب النساء، ولا تغيّرها الذي جاء حادًّا لتصبح شغلها الشاغل الحرب، ومناصرة أنصار الله.

حين يغادرنها، تنادمني متسائلة: «هل تصدّقين أنّه كان يسكن سنوات من دون إيجار؟».

تتحدّث كأنّها تصل حديثًا سابقًا بخبر يشغلها. اكتشفت مدى انشغالها بك عندما واصلت: «بل إنّ زوجي كان يتكفّل بكلّ مصاريفه منذ أسكنه داري. لن يصدّق أحد أنّ رجلًا ما يصرف على رجل. أمر يحيّرني ولا أجد له جوابًا!».

وتستمرّ في حديثها عنك بين يوم وآخر، لتثير تساؤلاتي: «لماذا كان يعطف عليك كلّ ذلك العطف؟ هل هي صحوبية فحسب؟ هل تتذكّر كيف أنّك وعدتني أن تشرح لي سرّ صداقتكما؟.

أحاول تقليدك، فأعيش الليالي كما كنت تعيشها. لا أشعل ضوءًا. حتى إنّني أجاور النافذة عارية، أعاقر النارجيلة وأغصان القات حتى وهج الفجر، وأظلّ هكذا حتى تغمر الشمس المدينة، لألتقط أحد كتبك التي أجدني يومًا بعد يوم قد ألفت رائحتها التي تشابه رائحتك. يدفعني قلبي لأطلّ على الزقاق، ألوي عنقي باتّجاه الصرحة لعلّي ألمحك، متأمّلة حنينًا يقودك لزيارتي خلسة، أو حتى لعبور سريع، ثمّ أعاود متابعة أسراب الحمام تحوم، ثمّ تهبط على أفاريز نوافذ الدور العتيقة، تتغازل حينًا، ثمّ تعاود التحليق مبتعدة.

أصعد في موعدي لأجد الشريفة تتهيّأ لاستقبال زائراتها، اللواتي يأتين لحضور درس في فضائل الجهاد وطاعة آل البيت، قبل أن تنشغل باستقبال أخريات يأتين لمقيلها. أعدّ الوسائد والمتّكآت والماء المبخّر، ليجلسن حولها ماضِغات القات. يثرثرن وسط أدخنة كثيفة، ودومًا تكرّر حديثها لهنّ عن دورهن في حبّ الله ورسوله ووجوب طاعته برفد الجبهات بالرجال، وصون الجبهة الداخلية من قبلهنّ.

قبيل المغيب أعود أدراجي، أعيش بين حزن يباغتني على فقد سيّدة الريحان، وآخر على صمتك، لكنّ الأمل يظلّ قائمًا بتلقّي ردّ منك».

تمنّى أن لا تنتهي سلسلة رسائلها، إلّا أنّ آخر رسائلها جاءت «خيّم اليوم حزن عميق، بعد أن تعالى نواح ساكنات الدور الثاني. أناس كثر تجمّعوا حول

سيّارة تحمل جثمان الفرانصي. قيل إنّ الميليشيات اقتادته مصابًا من أحد المستشفيات، وإنّهم عذّبوه لعدّة أيّام حتى الموت، جزاء مناصرته للرئيس المقتول صالح.

انقسم من تجمّعوا في الصرحة قسمين، منهم من يلعنه ويصفه بالعميل الخائن الذي لا يجوز الصلاة عليه ولا دفنه في مقابر المسلمين، مردّدين: ليس منّا مَن باع نفسه للشيطان، ومنهم من لاذ بصمته، بانتظار أن يهدأ الأمر ليقوموا بما يجب القيام به نحو ميت. لم يكن لأحد أن يجرؤ على مواجهة الساخطين عليه. حتى صاحبك وقف صامتًا، وانتهى الأمر بإطلاق أعيرة نارية في الهواء تفرّق بعدها من حضروا، لتواصل زوجته وأطفاله نحيبهم حول جثمانه. لم تهبط ساكنة الطابق الخامس لمواساتها، رغم أنّها كانت ضمن جليساتها، بل ردّدت لزائرات تحرّضهنّ بأنّه خائن لنبيّه وربّه ووطنه، وقد مات مرتدًّا».

غمر شنّوق حزن عميق، ومشاعر مضطربة، متسائلًا: إلى أين يمضي بنا أمراء الحرب...

سارع بالردّ عليها ليخفّف قلقها، مستغربًا عدم ذكرها حالة ورمها. كتب «أعتذر عن تأخّري في الردّ، فلم أجد وسيلة لأخبرك برحيلي، وكما عرفت فإنّ النت كان خارج الخدمة. ويوم فراري مررت على رصيف القشلة، فلم أجد غير الخواء والخوف، إلّا من كلاب ومسلّحين. واليوم تخبرني رسائلك عن مقتل بائعة الريحان. أدرك مقدار ألمك على فراقها. لها الرحمة ولك عظيم الصبر. واعلمي بأنّ فراري كان فرارًا من موت محتّم. وكان خروجي من صنعاء فرارًا تحفّه المخاطر. ثمّ عبوري طرقًا جبلية لأيّام امتدّت لأكثر من شهر. قطعت مسافات هائلة في أرياف نائية. لا نت ولا أيّ خدمة، إلّا أنّني ما إن وصلت إلى مكان آمن حتى سارعت لقراءة رسائلك، ثمّ التواصل بك.

شكرًا لأنّك تقاومين فقدك بائعة الريحان. وما حيّرني أن ينتهي الفرانصي بالقتل. ذلك الكائن الذي كان يلاحق الناس ليقودهم للموت!

سعيد لأنّك تسكنين غرفتي، وتأكّدي من أنّنا سنلتقي قريبًا. سأحدّثك حينها عن سرّ صداقتي بزوج الشريفة، ذلك الإنسان الذي يعيش غربة وسط مجتمع لا يقدّر سموّ روحه، فهو يعاني أكثر ممّا تتصوّرين، ومن المؤسف أن تتنكّر له زوجته، لك الله يا صاحبي!».

16

لأيّام صمتت غزال عن الردّ. تضاعف قلقه عليها، خصوصًا أنّها لم تذكر في رسائلها أيّ جديد عن ورمها. تمنّى لو أنّها لم تخفِ عنه شيء، فيما ظلّت مقاطعة البندرية له تحيّره. وما خفّف غربته أنّه قد تعرّف إلى مدير الفندق باعامر، ذلك الذي يماثله طولًا وعمرًا، بداية كان يسأله كلّما رآه صاعدًا أو هابطًا عن أحواله، ثمّ دعاه لاحتساء كأس شاي، وما لبثا أن أصبحا يجلسان معًا يتجاذبان أطراف الحديث. لكنّه ظنّ باعامر يبحث عن جليس، بسبب مِلله من وجوده الدائم خلف مكتب الاستقبال، ثمّ تدرّج الأمر ليرتاب منه، شاكًّا في أنّ باعامر لا ينادمه إلّا بغرض معرفة أسباب قدومه إلى عدن، ونقل ما يسمع منه، كأحد العسس، إلى الجهات الأمنية. إلّا أنّ ما حيّر شنّوق أنّ باعامر يتحدّث عن نفسه ببساطة شديدة ومن دون تحفّظ، مستعرضًا تجربته الحياتية بعد أن قارب الستين، ليعرف أنّه من مواليد الشحر، هاجر إلى الكويت في مطلع شبابه وعمل في عدّة مجالات، منها نشاطه في صفوف طلائع القوميين العرب، كما عمل في الصحافة الأدبية لسنوات. وعشيّة جلاء الإنجليز عن عدن، عاد ليلتحق بصفوف الجبهة القومية، تدرّج حتى أصبحت له مكانة قيادية عالية، إلّا أنّه في أحداث 86 الدامية بين أجنحة الحزب الحكم، كاد يفقد حياته، بعدما اقتاده أنصار علي ناصر ضمن من اقتيدوا إلى المعتقلات في خطوة لتصفيتهم، إلّا أنّ انتصار أنصار علي سالم البيض أخرجه وآلاف المعتقلين من السجون. بعدها قرّر هجر السياسة، مفضّلًا العمل الحرّ على مزالق تلك الصراعات البائسة.

بدوره، لم يتحفّظ شنّوق ليبوح لباعامر بالأسباب التي دفعته للفرار من صنعاء. ذلك البوح المتبادل ربطهما بخيط غير مرئيّ، يرى كلّ منهما من خلاله

في الآخر وجهه الخفيّ.

ينبّهه باعامر مشفقًا: «عليكم الحذر من مخالطة العوامّ، فهم مسيّرون بعاطفة كاذبة، تراهم يبالغون في المعاداة لكلّ ما هو شمالي. وهناك مأجورون يعملون على ضخّ ثقافة الكراهية بين أوساط الناس، يسيّرونهم، أدوات لمن يدفع. المسلّحون هنا يشابهون أنصار الله في صنعاء. فكن ضنينًا بلسانك، كتومًا لأفكارك.

ولم يدرك شنّوق أنّ با عامر قد أوصى أكرم، مسؤول المقهى، به خيرًا، فيبتسم لقدومه، ويسعى دومًا لتسهيل أموره، حتى أمسى يأنس لأكرم ويصادقه. إلّا أنّ ما لديه من مال أخذ بالتناقص. وهو يرى الجهات تُسدّ في وجهه.

أمسى جليس الجهاز 11، ليُفاجأ بعدّة أسطر من البندرية: «قد تكون عاتبًا لعدم ردّي، بينما ما كان يهمّني هو معرفة أنّك بخير. وقد طمأنتني بذلك. لكنّ ما جعلني أؤنّب نفسي أن تظنّ أنّي في عدن، لتفرّ إليها، ومبرّرك أنّك تلبّي رغبتي في اللقاء. وها أنت تضعني من جديد في موضع الجلّادة وأنت طبعًا كالعادة الضحيّة. لماذا لم تسألني قبل إقدامك على الفرار إلى عدن. كنت أخبرتك، واقترحت عليك أن تعود إلى قريتك. بعد هذا العمر، المكان الطبيعي لك هو بين أولادك. لا أعرف هل أعاتب نفسي أم أعتابك. أتخيّل كمّ المخاطر التي تعترض المسافر كلّ تلك المسافة، وكم هي حتى الحواجز المسلّحة التي تشكّ في كلّ عابر. وصولك إلى عدن مخاطرة أرجو أن لا تحمّلني مسؤوليتها. اذهب عنّي، لقد جعلتني أكرهك وأكره نفسي. أنت تصيبني بالإحباط والجنون».

ابتسم. اجتاحه إحساس باللامبالاة، لتعود له تساؤلاته. لماذا هي مسافرة خارج اليمن؟ أتكون في رحلة وستعود إلى عدن. لم يجد إلّا أن يتسلّى بالكتابة إليها وهو الذي قد حاول عبور نفس الطريق الذي عبر بها المهرّب فيه يوم هربت إلى صنعاء يحدوها الأمل بدراسة الطبّ كما وعد بذلك من وصفته بالكبير. كتب: «الآن تأكّدي من أنّني عالق في عدن، لستِ جلّادة ولا أنا ضحيّة. فقد كان عليّ أن أفرّ من موت محقّق. فررت من ميليشيات لا تقبل أنصاف الحلول، فإمّا أن تكون في صفوفهم وإلّا فأنت قتيلهم. وأصدقك القول إنّي قد قصدت أول ما قصدت قريتي، لكنّي وجدت أنّ كلّ شيء خراب. فالمكان ليس جدرانًا وسقوفًا بل أرواح نتآلف معها، ومتى ما شذّت يتحوّل المكان إلى

جحيم. أخبرك بأنّني عرّجت على تلك التي تصفينها بمدينتي الصغيرة، وبالفعل كنت قد صدّقت أنّها مدينتي، كما ظننت أنّ تلك القرية قريتي، لأكتشف أن لا مكان لي فيها. فتلك المدينة التي وجدت فيها العمل يومًا، دخلتها أثناء فراري عبر الطريق المحاذي لمقبرتها الكبيرة، عابرًا إلى سوقها الشعبي الذي يمثّل قلبها أو مركزها. تذكّرتكِ، يوم كنّا نبتاع حاجتنا من الخضروات والفاكهة. وقفت أراقب متنصّتًا وقد خُيّل إليَّ أنّك ستظهرين بدهشة نظراتك، أن أسمع رنين ضحكتك، تلفتّ يمينًا وشمالًا، فلم أستدلّ إلى مصدر ما أسمع. لكنّني أحسست بروحك، نبض قلبك الدافئ، اتّجهت بعدها نحو مقرّ منظمة «برنار» السويدية، متجاوزًا جدرانًا طويلة غُطّيت بصور لصبيان زيّنوا بالورد كشهداء وشعارات وأعلام مشنوقة أعلى أعمدة أسلاك الكهرباء الباردة، حثثت الخُطى وسط رياح تبعثر المخلفات والأتربة لتزيد من عبثية الشارع. كتل المسلّحين تنبت على الزوايا ومسطحات الشوارع والميادين. ظهر لي مبنى في النهاية يقف وحيدًا بجدرانه السوداء، وكأنّه في حالة حداد. درت حوله أتفرّس تلك النوافذ التي كنّا نقضي لياليا خلفها. لم تعد نوافذ، وقد سُدّت كجدران عمياء بأحجار بازلتية. بدا المبنى صامتًا ووحيدًا، طوّقته الأسلاك الشائكة من كلّ اتّجاه. فررت عبر شوارع أعرف مسالكها، حتى وصلت إلى مقرّ منظمة «أكسفام». هو الآخر لم يعد بذلك الباب الخشبي المزخرف. وحلّ محلّه صفيح متآكل غطّت جدرانه شعارات تدعو لفضائل الموت، جنبًا إلى جنب مع صور غلمان بشرائط خضر.

بقيت أهرول من مكان إلى آخر لعلّي ألمح وجهك. كلّ ما حولي متجهّم حزين. أفواه فاغرة. وجوه تشابه توابيت صامتة. أسأل نفسي: عمَّ أبحث، هل عنك، أم عنّي؟ لكنّي لم أجدك ولا أجد نفسي. أدركت أنّ هذه لم تعد مدينتي التي ضمّتنا يومًا، بل مقبرة تئنّ من تكاثر شواهدها!

قرّرت الفرار جنوبًا، أحمل كيسي خلف ظهري، أسير على مبعدة من طريق العربات باتّجاه مدينة إب، مقتديًا بأسراب الصوماليين والإثيوبيين الذين يسيرون بجلود يبّستها الشموس.

حاذيت عدّة قرى ومدن صغيرة، صادفت مزارعين ورعاة عابرين، حتى وصلت إلى إب. عيون المارّة تتحاشى النظر في وجهي، كلّ من أصادفهم يفرّون بخطوات مرتبكة. ودّعت المدينة الخضراء ملوّحًا لـجبل ربي المهيمن

من عليائه. حاذيت جبل التعكر حاضنًا مدينة جبلة، عاصمة الملكة أروى الصليحية. صعدت مرتفعات النجد الأحمر، هبوطًا بجبل نقيل السياني، حتى مدينة الحلوى القاعدة، تلاحقني وجوه الفتيان بشاراتهم الخضراء مصلوبة على صخور الطُرق.

من مدينة الحلوى أرى جبل صبر محاصرًا بسحب حرائقه. ومن مفرق ماوية انحرفت شرقًا، وسرت بعيدًا عن تكاثر حواجز المسلّحين التي تتوالد بشكل لافت. هنا تذكّرت حكاية هروب فتاة من عدن متنكّرة تحت ثوب صبيّ، ووصف ليلتها في غرفة المقهاية العليا. لم يمض وقت حتى دخلت مدينة ماوية بمبانيها المتهالكة. سألت عن تلك المقهاية الطيّبة. سألت عن مقهايتها، حتى كنت أمام أطلال. سألني من دلّني عليها:

– أكان لك فيها حكاية؟

لم أتحفّظ. حكيت له حكاية تلك الفتاة التي حلمت يومًا بأن تكون طبيبة. وقف يستمع إليّ باهتمام، وقد اكتسى وجهه بملامح جادّة، ثمّ التقت عيناي بعينيه:

– المقهوية توفّاها الله قبل سنوات قليلة. أمّا عبد الفتّاح القرن ابن أخيها، فقد التحق بميليشيات الحوثي، وهو اليوم يقاتل معهم!

– مقاتل؟!

– نعم. وقد يكون في هذه اللحظة على إحدى الجبهات. لن تلتقيه ما دمت عابرًا.

ودّعته حزينًا لأنّي لم أنجح في توصيل تحيّاتك، متخيّلًا هيئة ذلك الفتّاح وقد أمسى مقاتلًا. أودعت كيسي صاحب لوكندة أفسح لي سريرًا في باحة تعجّ بصفوف الأسرّة، راجيًا منه إيقاظي مع تباشير الفجر كي أرحل جنوبًا، ومن إرهاقي سقطت في بئر عميق من النوم اللذيذ. لا أعرف كم مضى من الليل حين استيقظت على صرخات حادّة. كان شبح رجل يقف فوق رأسي يحيطه عدد من الأشباح المسلّحة، بادرني دون أن أميّز ملامحه:

– من أنت، ولماذا تسأل عن فتاح القرن؟

ظننت من يحدّثني جنّيًا. حاولت أن أستوي لكنّه دفعني بكفّه لأبقى ممدّدًا.

– عابر سبيل، أنوي التوجّه جنوبًا.

شرحت له حكاية الفتاة التي حلمت يومًا أن تكون طبيبة، وقد عبرت يومًا مدينة ماوية. وواجهت في ليلة بياتها بها مشكلة. وكان فارس تلك المدينة شابٌّ اسمه فتّاح. لم تشكره في حينها وتتمنّى لو تعود بها الأيّام لتزور ماوية وتشكره... لم أنه الحكاية حتى رفع كفّيه عن صدري وقال:

– أنا من تبحث عنه، ظننّاك قاتلًا مأجورًا لقوى العدوان أو داعشيًا، وقد جئت لتصفية حساب ما معي. لكنّ حكايتك تجعلني أخجل من ظنوني ومن نيّتي بعد أن بيّتّ تصفيتك. الآن علينا مساعدتك على الرحيل بسلام. سأكلّف من يرافقونك حتى آخر نقاطنا المسلّحة جنوبًا، فقد اقترب الفجر، وأحمّلك أمانة سلامي إليها.

لم يضف، وقد استدار يتبعه من معه، ليعود إلى المكان سكونه وكأنّه تعويذة سحرية. فبعد زيارته، أضحى جميع من في المكان يعاملونني كما لو كنت حوثيًا، ويحاولون التقرّب مني. وما إن زقزقت العصافير، وانتشر ضوء الفجر، حتى كان أحد ثلاثة مسلّحين يبتسم في وجهي: «هل أنت جاهز؟ سننطلق الآن».

ويا لذلك الصباح البهيج. انطلقت معهم على عربة مسلّحة في الطريق المتّجه جنوبًا. كنّا نتوقّف من وقت إلى آخر يحيّينا مسلّحو الحواجز التي نصادفها. ساعات من السير المتواصل، ثمّ أنزلوني ليشير أحدهم: «أترى تلك القرى المعلّقة على خاصرة ذلك الجبل؟ لا تقترب منها! اهبط جنوبًا، ستجد طريقًا معبّدًا. هناك ستجد سيّارات عابرة تقلّك جنوبًا، لكن عليك الحذر، فمرتزقة الطوق الأمني لـ«الحراك» يتربّصون بكلّ قادم».

ثمّ أردف قبل أن يستديروا عائدين: «فتّاح يقول لك: حذار أن تفكّر في العودة».

ودّعتهم هابطًا قفارًا موحشة، حتى صادفت راعي تيوس. كان متوجّسًا وهو يخبرني بعد تردّد: « لقد أشرفت على أولى قرى الشرعية» ناصحًا إيّاي بتجنّب البشر هنا إلى أن أصل إلى طريق السيّارات، تملّكتني فرحة غامرة، متخيّلًا بعدها أنّي أضحيت في أمان. وبالفعل قبيل مغيب ذلك النهار وصلت إلى الطريق المعبّد. ركبت حوض إحدى السيارات العابرة إلى جوار حمارين. لم يكد يقطع مسافة من الطريق حتى توقف أمام أول حاجز تفتيش. احتجزوني. تصفّح أحدهم جهاز اللابتوب، وقد أجلسني أمامه يسألني عن كلّ ما يجده من

رسائل، ناصحًا إيّاي بالاعتراف بأنّي مرسَل للقيام بتفجيرات. حاولت إقناعه بأنّي فارّ من بطش صنعاء، لكنّه ظلّ مصرًا، وأنّ ما يحتويه جهازي خير دليل على ذلك. بعد ساعات من التحقيق، نقلوني إلى مركز شرطة المسيمير، لأجد نفسي وسط عشرات المعتقلين، لكلّ منهم قصّة تشابه قصّتي:

– لست وحدك من يريد التسلل، فكثيرون يظهرون كالفئران بينما نعرف عنهم أنّهم قطط سمان، نهبوا وتسلّطوا سنوات وسنوات. ومعظمهم من أنصار عفّاش ومسلّحي الحوثي، يقصدون عدن لمزيد من التخريب.

– لكنّي فارّ من ظلمهم!

– بل إنّك قطّ. وسنعيدك من حيث أتيت.

وبدأوا معي في المسيمير تحقيقًا جديدًا لم تُدوَّن أيّ كلمة منه على ورقة. كان أشبه بحوارات المقايل والمقاهي، وكان خوفي يتضاعف من إعادتي. نصحني أحد المحتجزين بالصبر، وكنت أضحك من دعوته للصلاة والدعاء لله. تلبّستني فكرة الانتحار. حاولت الاستعانة بأحدهم ليعينني على الخلاص، لكنّ الجميع تحاشوني ولم أجد إلّا أن أمتنع عن تناول الطعام والشراب. في اليوم الثالث استدعوني. لم يسألوني عن شيء، فقط انهالوا عليّ ضربًا حتى أغمي عليَّ، ثمّ سحبوني خارج المركز، وحين أفقت وجدت أحدهم يلوب حولي وبين يديه بندق رشّاش:

– هيّا اذهب، وإلّا فجّرت رأسك الآن!

لم أصدّق أنّهم تركوني. ظللت أنظر إليه ببلاهة ليكرّر:

– هيّا اذهب عنّا!

قلت خانعًا متوسّلًا:

– وكيسي؟

ليصرخ في وجهي وقد أشار بأن يأتوني بكيسي:

– هيّا اذهب يا زبالة.

لم أجد اللاب توب ضمن أشيائي. فضّلت الانسحاب غير مصدّق أنّهم لم يتنبّهوا لما بقي لي من مال أسفل الكيس بين أشيائي.

لم تعد ملابسي شبيهة بملابس الذين أصادفهم. تمزّقت أطرافها وتشرّبت بالأتربة والعرق. يسألني من أصادفهم عن حالتي فأضحك متصنّعًا الهبل كي أعبر من قرية إلى أخرى. يمدّني البعض بالطعام، وآخرون بالقليل من المال،

والبعض يرجمني. حتى الكلاب كانت تلاحق رائحتي بالنباح إلى مسافات بعيدة، ولا تتركني حتى تستقبلني غيرها.

لم أصدّق أنّني وصلت إلى حوطة لحج. ولم تمض ساعة بداخل حافلة حتى كنت في الشيخ عثمان».

أرسل إليها ما كتب. شعر بالسعادة وهو يتخيّلها تقرأ معاناة فراره. لم يبالغ أو يدّعِ حكاية لم يعشها، هذا ما كان يحدّث به نفسه، موقنًا بأنّ تأثير كلماته سيدفعها للردّ. أعجبته فكرة أن يكتب خواطر لنفسه، وإن رأى لاحقًا يرسلها إليها، فليفعل. كتب من جديد: «سأظلّ أكتب ما أعيشه في هذه المدينة التي وجدت نفسي أسيرها. فأنا لا أستطيع العودة إلى صنعاء حيث يتربّصون بي هناك. ولا يوجد ما يشغلني هنا غير التسكّع.

فور وصولي، نزلت في فندق متواضع يقع في أسفله مقهى للإنترنت يُشتق اسمه من اسم الفندق «أوسان نت». كنت محمّلًا بحذر يلازمني لما سمعته عن عداء لكلّ ما هو شمالي هنا. أقضي جلّ وقتي بين الصعود إلى غرفتي والهبوط إلى مقهى النت، أو أتنقل من حافلة إلى أخرى أزور تلك الأماكن التي زرناها يومًا معًا: ساحل أبين، بحر صيرة، سوق الطويلة في كريتر، المعلا، التواهي، غولد مور، لأكتشف أنّ عدن لم تعد مدينة الحلم التي كانت. فناسها تواروا، ولم تعد هناك دور سينما، ولا عروض مسرحية، ولا مشارب أو بارات، ولم يعد هناك من يرتاد شواطئها، نساؤها أشباح مكلّلة بالسواد. يومًا بعد آخر أشعر بالخوف، أو ربّما هي مشاعر القادم من صنعاء الدماء والرعب.

وزادت وحشتي، أنّ تلك الفتاة التي حلمت يومًا بأن تصبح طبيبة لم أجدها في المدينة. ولذلك كنت أعوّض خيبة أملي بتفرّس وجوه العابرات للشوارع والأسواق، لعلّي أرى شبيهة لها، أو ربّما هي، أجدّ في أثرها لكنّها تختفي، ثمّ تظهر على شبّاك سيّارة أجرة، لكنّي لا أستطيع اللحاق بها. لذلك ظللت أتوقّع ظهورها. والغريب أنّ مصادفتي رؤية شبيهاتها تتكرّر، ليتضاعف إيماني بأنّني سأجدها هي حتمًا لا شبيهتها».

وجه البورسلان

15

غشيته غبطة وهو يرى رسالة من غزال: «في رسائلي السابقة فضّلت إخفاء آلام ذلك الورم، على أمل أن تتحسّن صحّتي بعد أن وصف لي أحد المداوين كمادات وأعشابًا. بعد مواظبتي على تناول تلك الوصفات شعرت بفتور لم آلفه من قبل، وإعياء لأبسط جهد أقوم به. كما زاد هزالي وتغيّر لون بشرتي. ولذلك ظللت لأيّام مضت متردّدة في أن أكتب إليك حالتي، مفضّلة تحمّل آلامي على زيادة همّك. صدّقني أنّني لم أنسَك لحظة واحدة، وهذا ما يخفّف من حدّة وجعي. كذلك ما دفعني لمعاودة الكتابة إليك اليوم هو تغيّر أرواح الناس من حولي. فهذه الشريفة أمست تنظر إلى من حولها باستعلاء وكبر بعد أن منحها أنصار الله رتبة عسكرية كبيرة وكُنّيت بـ«الزينبية» كما تردّد على زائراتها. لم تعد تلك المرأة البسيطة الهادئة، بل أصبحت لا تنطق إلّا لتأمر، تقضي معظم أوقاتها خارج الدار، ويقال إنّها تذهب إلى قصر السلاح، «القلعة»، لتحضر اجتماعات هامّة، ولا تخرج أو تعود إلى دارها إلّا وبرفقتها عدد من المسلّحات.

لكنّ الخبر الجديد الذي تردّدت في نقله إليك هو اختفاء صاحبك منذ أيّام، وقد دأبت الشريفة تردّد لمن يسأل عنه «هو في مهمّة وسيعود». وتمضي الأيّام وقد انشغل الجميع بهموم حياتهم، ليختفي ضمن من يختفون بدون سابق إنذار، وإن كان ساورني ظنّ بأنّه فرّ إليك، فهل ظنّي في محلّه؟ لن أنطق إن أخبرتني لأحد بذلك. فقط أريد أن أطمئنّ. كن بخير ولا تقلق عليّ».

تلك الرسالة أكّدت له صدق ظنونه بتفاقم مرضها. يلوم نفسه لفراره وتركها، في الوقت الذي يرى فيه أنّه لو بقي لكان اليوم ضمن طرائد وفرائس الشريفة، مردّدًا: أيّ روح شرّيرة تسكنها، وقد تحوّلت إلى قطّة تلتهم صغارها. فكيف بمصيري لو لم أفرّ من بين مخالبها؟!

يرى روحه مجزّأةً، ضائعة. يلعن الحرب ومن يديرونها. ويلعن نفسه نائحًا: «لو أصررت على طنهاس لفَرّ معي. لو لو لو».

هرع أكرم إليه متسائلًا عن سبب تأوّهاته المستمرّة. كان يعرف ببعض معاناته، احتضن رأسه مواسيًا إيّاه في حرج، بينما التفتت العيون من أمام شاشاتها متسائلة. هدأ صوته، مكفكفًا دموعه، ودون أن ينظر في عينَي أكرم همس يشكره: «أنا بخير» عاد يكتب إليها: «أشعر بمعاناتك وبآلامك، لائمًا نفسي. كيف لم أفكّر إلّا بنفسي حين فررت. أرجوكِ أن لا تكابدي آلامك وحيدة، افتحي قلبك لمن حولك، أشكّ لمن تأتمنينهنّ من ساكنات الدار. توقفي عن تناول ما يصف لك المداوون واذهبي مع أيّ من ترين إلى الطبيب.

أشعر بالخزي وأنا أنصحك بعد أن تركتك وحيدة، في الوقت الذي كان من المفروض فيه أن أكون إلى جوارك. لكنّني الآن في عدن. أرجوك سامحيني. واعلمي أن لا علم لي بمكان صاحبي. حين فررت لم أكن أنوي أن أقصد عدن، لكن بعد أن ضاقت بي الأمكنة لم أجد سواها أتوجّه إليها. ويا ليتني ما قصدتها. فها أنا أعيش غريبًا، وقد قاربت الريالات التي كانت معي على النضوب، عليّ أن أبحث من الغد عن عمل.

أرجو أن تكتبي لي ولا تتوقّفي عن الكتابة، عن حالتك، وأيضًا إن جدّ جديد عن صاحبي. وأنصحك بإظهار طاعتك وولائك للشريفة حتى تأمني مكرها.

ثمّ أتمنّى عليك محو كلّ رسالة تصلك منّي فور قراءتها، ومحو ما تبعثينه إليّ بعد إرساله. ودومًا تفحّصي هاتفك ونظّفيه أولًا بأول، حتى لا يكون دليل إدانتك إذا ما وقع بين أيديهم».

يعود إلى غرفته، يحصي ما بقي له من ريالات. يكتشف أنّها لا تكفيه إلّا لأيّام. أصبح وأمسى ذلك المكان عالمه. أكرم مسؤول المقهى يستقبله بترحاب مميّز، فما إن يراه دخلًا حتى يقف مرحّبًا به، يتبادل معه أطراف الحديث. باعامر. يتبادل معه ذكريات عاشها، ليبادله بحكايات سجنه الأول ثمّ الثاني، ونهايةً بملاحقة العسس له حتى فراره من بطش الميليشيات، ليفرّ إلى عدن شريدًا. تلك الحكايات تزيد من تعاطف باعامر تجاه شنّوق، بل إنّها تذكّره بأيّام اعتقاله في أحداث 86 بعدن. يتذكّر اقتراب الموت منه، بعد رؤية زملائه يُقادون من زنازينهم ولا يعودون.

تحرّج أن يشكو لباعامر حالته، ولذلك قرّر الخروج صباحًا للبحث عن عمل، ليسأله بعد أيّام:

– أراك تخرج، ولا تعود إلّا متأخّرًا.

لحظتها جلس إليه، يقلّب الكلمات في وجدانه:

– أبحث عن عمل، وقلق من أن يأتي يوم لا أستطيع فيه دفع أجرة مبيتي، أو ما أقتات به.

ردّ عليه مبتسمًا:

– سمعت أنّ الحراك المسلّح في عدن، يبحث عن رجال، وأنّهم يدفعون لمن يلتحق بهم.

هزّ شنّوق رأسه متحسّرًا:

– لست مؤهّلًا لذلك.

ربّت مالك أوسان على كتفه مواسيًا:

– أمزح معك. وقد وجدت لك عملًا. فأنا أنوي صيانة الفندق في الأيّام المقبلة، وأحتاج إلى معاون لذلك.

اجتاحه مزيج من غبطة وغصّة كادت تخنقه. صمت يفكّر في طبيعة ذلك العمل. وكأنّ باعامر يسعفه بالإجابة على ما يفكّر فيه، فنظر إليه وأردف:

– أنا بحاجة قبل البدء لإعداد تقرير مفصّل عمّا يحتاج إليه الفندق. زر غرفه ودورات المياه، عاين حالة الأبواب والنوافذ وما تحتويه كلّ غرفة من دواليب وطاولات وأسرّة ومقاعد، وكذلك حالة الأجهزة الكهربائية من مكيّفات وثلّاجات وتلفزيونات وإنارة. اعمل حسابك أنّني لا أنوي التوقّف عن استقبال نزلاء أوسان، ولذلك علينا أن ننجز صيانة كلّ طابق على حدة، والبداية من الطابق الأعلى، ثمّ الذي يليه، وهكذا حتى تصل الورشة إلى هذه الصالة نهايةً.

من سعادته لم يجرؤ على النظر إلى وجه باعامر، ذلك الوجه الذي تخلّلته خطوات السنين، لكنّ صوته خرج بما يشبه الشكر:

– أعدك بأن أكون عند حسن ظنّك.

نطق كلماته وكأنّه يتهجّى أحرفها. منذ تلك اللحظة، أمسى كما كان لا يفارق محيط أوسان إلّا لجلب موادّ البناء أو استدعاء عمّال الصيانة، ما عدا الجمعة، يوم العطلة الذي عاد يقضيه في المقهى، ليجلس إلى جهاز 11. وقبل

أن يعود إلى غرفته يتجاذب وأكرم أحاديث متفرّقة، ليتفرّعا، ويتشعّبا. فبرغم صغر سنّ أكرم كان مستمعًا جيّدًا ومحاورًا لبقًا.

عرف منه أنّ مبنى «أوسان أوتيل» وما تحته من محالّ تجارية كـ«أوسان ماركت» و«أوسان إلكتريك» و«أوسان نت»، يمتلكها باعامر. بهرته تلك المعلومة، وهو الذي كان يظنّ في بداية أيّام وصوله أنّ باعامر مجرّد مدير للفندق. وأمام دهشته، نبّهه أكرم: «العم باعامر، لا يعجبه أن يتباهى بذلك، فاجعل نفسك لا تعرف».

وجوده في كلّ يوم عطلة إلى جوار أكرم جعله يبادر إلى مساعدته بترتيب بعض المقاعد بعد مغادرة روّادها وتلبية طلبات من له طلب. وفي موعد الإغلاق، كان يعينه على إعادة ترتيب أجهزة المحلّ وتنظيف طاولاته.

تصله من غزال رسالة: «وكأنّك كنت تعلم بالخراب القادم ففررت. فها هي المدينة تزداد رعبًا. يختفي الصبيان ليعودوا صورًا رُبطت على جباههم أشرطة خضراء «يا حسيناه». صور تُعلّق لتبليها الشموس والأمطار. ميادين المعارك والمعتقلات تستهلك الرجال. يا صديقي، زاد الخوف، وتزايدت أخبار الموت، لتخلو العاصمة إلّا من كبار السنّ والنساء المتّشحات بالسواد. صاحبك لم يظهر بعد، ويبدو أنّ النسيان طواه كما طوى من اختفوا قبله. هذه هي أخبارنا. فما أحوالك؟ كيف تعيش بدون مال؟».

«رسائلك تزيديني قلقًا عليك، وعلى صاحبي طنهاس. أشعر بالأسى، لكنّي لا أملك أدنى وسيلة لمعرفة أخباره، أو أين يكون. وما يطمئنني أنّه رجل حصيف، أنا على يقين من ظهوره من جديد، وما خوفي إلّا عليكِ. إيّاك والتفكير بالفرار، المخاطرة غير آمنة فوضعك الصحّي لا يسمح، كما أنّك امرأة. عليك بالصبر، فحواجز المسلّحين تنتشر بطول البلاد وعرضها. وقد يتعلّلون بأيّ عذر لإيذائك. أنتِ تعرفين بطشهم، فمن يقع بين أيديهم لا يعود، كما حصل مع طنهاس والفرانصي، وآلاف المخفيّين قسرًا. كما أنّ عناصر الحراك المسلح هنا أشدّ قسوة وتسلّطًا. مشبعون بثقافة الكراهية. الصبر خير علاج في هذه الظروف. أفكّر في العودة إلى صنعاء لأكون إلى جوارك».

جمعة بعد أخرى زادت أُلفتُه بالمقهى، وما زاد من سعادته أنّه لاحظ تردّد فتاة على المقهى. كانت في بداية عشرينيات عمرها، تنهمك ساعات من جمعة أمام أحد الأجهزة. يرمقها بين وقت وآخر. حين التقت عيناها بعينيه

مكثت تتأمّله، بينما انطبع شكل وجهها البيضوي في ذاكرته. يلتفت كلّما دخلت بدون إرادة منه، يتابعها تنشغل، لا تحتكّ بأحد، بينما يتمنّى أن تطلب منه شيئًا كبعض الروّاد. ويظلّ على أمل، لكنّها لا تفعل. في إحدى المرّات ضبطته يرمقها. نهضت بهدوء:

– ماذا تريد من مراقبتي؟

تلعثم، حمد الله أنّ صوتها كان واهيًا، ثمّ إنّها عادت مقعدها وكأنّها لم تسأله. بخجل ذهب بناظريه نحو تلك الجُمل المعلّقة على الجدران، والتي تحثّ على التقوى ومخافة الله، ليعود بعد لحظات وينظر نحوها. يتمتم بينه وبين نفسه: وجه بورسلان، متأمّلًا نقاء وجهها الذي يشابه خزفًا هشًّا، بانعدام شعر حاجبيها. فقط بشرة رقيقة ناصعة البياض. تحيط وجهها بمنديل بنفسجي وتكسو قامتها عباءة سوداء مزخرفة على غير أشكال عباءات النساء. يجد عينيه ترمقانها من جديد أثناء انصرافها وقد اقتربت مهامسة لأكرم.

14

لم تمضِ ثلاثة أشهر حتى شارفت أعمال الصيانة على الانتهاء، ولم يبقَ غير الدور الأول وصالة الاستقبال. وذات مساء، دعاه باعامر متسائلًا: – أراك تقضي ما يفيض من وقتك في المقهى!

– وأين يمكنني الذهاب؟

– أردت أن أسألك. كيف وجدت أكرم؟

– إنّه ملمّ بعمله، وفوق ذلك مخلص.

– أريدك من الغد أن تلازم أكرم طوال الوقت.

– وما بقي من أعمال الصيانة؟

– سأحدّثك بعد أيّام بما يكون.

تلك الليلة أمسى في حيرة. مع شروق يوم جديد، هرع لمساعدة أكرم في أعماله. قرب ظهيرة أول يوم أطلّ وجه البورسلان، وألقت التحيّة همسًا على أكرم الذي أشار إلى جهاز شاغر. تهادت بين الطاولات وسريعًا ما انهمكت تتابع شاشتها، بينما ظلّ شنّوق يتنقّل هنا وهناك متفاديًا النظر إليها، حتى انصرفت. غلبه الفضول، فسأل أكرم عنها. ابتسم أكرم: – هي كما ترى تأتي كغيرها لبعض الوقت ثمّ تنصرف. ما أعرفه عنها أنّها في السنة الجامعية الأخيرة لها.

صمت بعض الوقت ثمّ أردف:

– أراك مهتمًّا بها.

أحسّ بعري مفاجئ.

– هي في سنّ أولادي، لكنّها لفتت نظري ليس إلّا.

حدّثه بوضوح، فمبرّر اهتمامه هو اختلافها عمّن يتردّدن، ليخبره أكرم بأنّه ليس الوحيد في ذلك.

حكى له أكرم بعد ذلك، أنّ مشادّة نشبت قبل فترة بينها وبين شابّ كان يأتي بصحبتها، فاضطُرّ إلى التدخّل وفضّ الشجار بينهما، وأنّه خاطب ذلك الشابّ برفض التحرّش بأيّ فتاة، ثمّ طلب منه عدم القدوم إلى المقهى مرّة أخرى. ثمّ قال لشنّوق: – انصرف الشابّ يومها مهدّدًا متوعّدًا، وانصرفت هي بعد وقت من انصرافه، لتخبرني بعد أيّام أنّه كان خطيبها، وقد فسخت خطبتها منه بعد تلك المشادّة. شعرت حينها بالإحراج ظانًّا أنّ تدخّلي كان السبب، لكنّها أوضحت لي أنّ تلك الخطبة ما كانت لتستمرّ، لأنّ ذلك الشاب متسلّط وشكّاك، وكثيرًا ما كان يملي عليها ما يجب فعله وما لا يجب. ففهمت أنّها سعيدة بفسخ خطوبتها منه! ومن يومها تأتي إلى المقهى بمفردها، تلقي التحيّة كلّما دخلت أو خرجت.

– وما أدراك أنّها في سنتها الجامعية الأخيرة؟

– بعدما أخبرتها بأنّني أنهيت الثانوية العامّة نصحتني بالالتحاق بكلّية الآداب قسم الفلسفة، موضحة أنّه علم مثير يوسّع المدارك ويحرّر العقل. عرفت منها أنّها في آخر سنة بكلّية الآداب قسم الفلسفة.

صمت أكرم متطلّعًا في عينَي شنّوق ثمّ أردف: – وماذا عن اهتمامك بها؟

– لا شيء. فقط شدّني هدوؤها، انهماكها أمام الشاشة لساعات. اختلافها أيضًا في شكل عباءتها.. وجهها اللافت ببياضه. لكن بعد حديثك عنها، لن تجدني مهتمًّا.

ظلّ أكرم يتابع نظرات شنوق كلّما حضرت، ليجد أنّها كلّما فرغا من أعمال المقهى يتحدّثان عنها، ليعرف أنّ أكرم يعرف عنها الكثير. أخبره بأنّ اسمها أروى، وأنّها فتاة مختلفة في أسلوب تفكيرها، حتى في بياض بشرتها، وقد بدا وجهها من دون حاجبين، وأن لا شعر تحت منديل يغطّي رأسها. شعر شنّوق تجاهها بنوع من الإشفاق، لا يعرف على ماذا، هل لإحساسه بأنّها تحمل شيئًا من الاختلاف.

لم تمرّ بضعة أسابيع حتى فاجأه باعامر ذات مساء: – أريدك أن تسمعني جيّدًا. من الغد ستدير المقهى.

– وأكرم؟

– سيغادر عدن مساء اليوم، أو ربّما غادر عائدًا إلى الشحر، وهو من زكّاك لإدارة المقهى، فأكرم لديه دراسته الجامعية التي ستبدأ بعد أيّام.

سكن في نفس شنّوق بعض العتب على أكرم الذي أخفى عنه ما يدور. ومع صباح اليوم التالي جلس وحيدًا خلف الجهاز الرئيسي يستقبل الروّاد، متأمّلًا ذلك المستطيل الذي تصطفّ على أطرافه طاولات في نسقين متوازيين. ظلّ عتبه على أكرم، ليكتشف أنّه كان أكثر من زميل عمل، أو أنّه بحاجة لبعض الوقت كي يألف غيابه.

صحا من وحدته مرتبكًا لحظة دخول أروى. كانت تتلفّت دون أن تنطق، بنظرات متسائلة تتفرّسه، بينما كان يحدّث نفسه: هذا أنا أمامها وحيد!

خطت نحو الداخل صامتة دون أن تلقي التحيّة، أضمر أن يعاملها كبقيّة الرواد، دون أن يتابعها بنظراته منذ دخولها حتى خروجها، ونجح في ذلك. كما نجح في قدومها التالي، فشعر بقدرته على التحكّم بنفسه.

13

أمسى المقهى وطنًا بعدما سكن غرفة أكرم الملحقة به، وعاد من جديد إلى حياته أن يعيش عاريًا، كما ألف صفوف الأجهزة في كلّ وقت حوله وكأنّها كائنات غامضة. إلّا أنّه فشل في نسيان تجاهل البندرية له، وزيف شوق ادّعته للقياه، ظلّ يشعر بغصّة من استمرار صمتها، وإن خفف ما تكتبه غزال بين وقت وآخر بعض حنقه:

«أرعبتني بقولك إنّك تفكّر في العودة إلى صنعاء. فمهما تكن صعوبات الحياة عندك فإيّاك والعودة، هنا ينتظرك الموت المحتّم. وإن ضاقت أحوال عدن، فكّر في أيّ أرض أخرى بعيدة عن مخالب الشريفة. فصنعاء لم تعد آمنة. أنا قادرة على تحمّل كافّة الأوضاع هنا. فلا تقلق ولا تحمّل نفسك فوق طاقتها.

لكنّك لم تخبرني كيف تعيش في مدينة لا تعرف فيها أحدًا؟ فهل ألفتها وألفتك؟ ثمّ حدّثني عن بحرها، يقولون إنّ بحرها جميل. وناسها، هل هم ودودون. فمنذ عرفت أنّك هناك أرى نفسي معك. لقد أضحيت يتيمة بمغادرتك، ولم أكن أعي مقدار أثر وجودك. أمس نزلت الشريفة إلى الدور الذي كنت تسكنه، تفقّدت حالته وشكرت لي نظافته. وعندما استدارت وهي تهمّ بالانصراف وسألتني عن باب الغرفة ذاك الذي كان يضمّ أماسيك وزوجها. أخبرتها بأنّ مفتاحه ليس لديّ، فتعجّبت وكأنّها تظنّ أنّي أخفي معرفتي بما خلف ذلك الباب المغلق. عادت تهزّ مغلقته، ثمّ أمرت من يرافقنها بخلعه. فعلن. ثمّ مدّت إحداهنّ يدها تبحث عن مقبس الإضاءة، ليغمر ضوء النجفة المعلّقة الأركان، ويظهر أثاث فخيم ومرتّب يملأ الأنحاء. خطت لتطلّ برأسها، ففغرت فاها، وكأنّها تباغت سكون ودعة أشيائكم في سكونها. فراش وثير، كنبتان حول طاولة زجاجية مستديرة، لوحات على الجدران، رفوف امتلأت

بتحف وكتب وصور متنوّعة. على الطاولة بقايا سهرة من كؤوس ونصف قنّينة مكحل، أطباق ومناديل. تمتمت:

– أيُعقل هذا؟!

خطت نحو البرّاد في الزاوية البعيدة، شهقت حين فتحته وحوقلت لما يحتويه من قوارير. ارتفع صراخها وبدأت بتحطيم كلّ ما طالته يداها، وقفنا نتابع سخطها كالمصنّمات. بعد وقت خرجت ترغي مزبدة الأشداق بوجه محمرّ، مردّدة: «أستغفره وأتوب إليه. أستـغـ...».

تبعناها، وفي منتصف السلّم الصاعد إلى الدور الخامس استدارت وانتزعت منّي المفاتيح بغضب قائلة: «من اليوم ستستضيفك إحدى ساكنات الدار حتى نتدبّر أمرك»، ثمّ أمرت من حولها من الحريم: «اجمعن ما بتلك الغرفة والغرف الأخرى وأطعمنه للنار».

وصعدت تهدر: «الملاعين قلبوا داري خمّارة، والله لأرينّهم العذاب ألوانًا حتى يغفر الله لي غفلتي».

ظلّت تولول وتهذي: «ذلك المعتوه أفسد زوجي، سأرسل من يقتفي أثره، ومن يجدّ في ملاحقته، الداعشي الملعون».

ثمّ التفتت توجّه الكلام إليَّ: «أنتِ لا تعرفينه. كان كلّ سكّان الدار يكرهونه. ينزوي لليالٍ وأيّام كالخفّاش، وحين يخرج يسير منبوذًا مسخوطًا، لا يمارس أيّ عمل، ولا يخالط الناس أبدًا. زوجي هو الوحيد الذي كان يعطف عليه، وكنت أتعجّب لاستمرار عطفه عليه، حتى إنّي شككت في أنّه سحره، ودومًا كنت ألحّ عليه بطرده، لكنّه كان يردّ عليّ بابتسامة ملاطفًا لي: «هذا من أهل الله، ووجوده بركة لنا»، ويراضيني بمزيد من التودّد، لأكتشف اليوم فجورهما. زوجي كان قبل أن يعرفه يخاف الله. وهو أفسده. لكنّي أعرف كيف أقتصّ منه».

حسب أمرها سكنت غرفة ضمن سكن زوجة المغترب، لأكتشف أنّ مخالطة الناس والحياة بينهم تعيد للعقل توازنه. وهذا ما جعلني أفكّر في حياتك وقد انزويت في الطابق الرابع لسنوات. ولم تفقد عقلك. اليوم أنا أرى أنّ بياتي في سكنك للفترة الماضية قد حبّب إليّ الانزواء. ثمّ هذه زوجة المغترب وقد وجدتها أكثرهنّ ودًّا لي. رحّبت بي في سكنها. صرنا نقضي ساعات في أحاديث وأحاديث. إلّا أنّ أمرًا جديدًا قد لفت انتباهنا، إذ نتابع من

نوافذنا تلك العربات التي تأتي ليلًا إلى أزقّتها، يفرغ رجال أشدّاء حمولاتها في الأدوار السفلية من بعض الدور، ودور الشريفة، بل وبداخل المسجد. تناقل سكّان الحيّ يومها أنّها موادّ غذائية ستُوزّع على المعوزين، ليكتشف الجميع أنّ تلك الصناديق ما هي إلّا أسلحة وليست موادّ غذائية، وأنّ زوج الشريفة قد نصحها بعدم تحويل دور الحيّ ومساجده إلى مخازن أسلحة، كان ذلك ولا يزال الموضوع مجرّد فكرة، ليختفي بعدها، ويدفع ثمن نصيحته. صنعاء ما عادت صنعاء، والشريفة تلك المرأة الحليمة، أمست لا ترحم بعد أن حوّلت حتى مدارس الحيّ إلى مخازن للسلاح، ويقال إنّ بعض الدور حوّلوها إلى معتقلات سرّية.

فخذ حذرك حتى لو كنت في أقصى الأرض. أنت تعرف أنّ لهم عيونهم وأعوانهم الذين يستخدمونهم للبطش بالناس في كلّ مكان. الآن أجدني أعيش وسط كلّ هذا الخوف، ولا أفهم ما عليَّ فعله!

أكتب ما أكتبه إليك كي تعرف ما يدور وتحتاط لنفسك. أكرّر لا تفكّر في العودة. أدعو لك دومًا في كلّ صلاة، مثلما أدعو لنفسي، يحفظك الله من كلّ مكروه، ويكتب لك السلامة. فأنت لي كلّ شيء. كما أدعو لصاحبك أن يفرّج الله كربته وكربة جميع المسلمين».

تلك الرسالة زادت من همّه، رغم أنّها لم تذكر فيها حالتها المرضية، بل تعاظم قبح الشريفة وقد تحوّلت إلى طاغوت، فأبرزت شخصية نقيضة لما كان يحدّثه به صاحبه، وهو يصفها بالملاك البريء، والكائن العطوف الخدوم. يتذكّر ليالي مسامراتهما تلك التي كان يغبطه فيها على تلك العلاقة الزوجية وتلك المرأة النقيّة، ليسأل نفسه: أتراه كان مخدوعًا بها، أم أنّ روحًا شرّيرة تسكنها، وكانت قد اتّخذت من التقيّة وسيلة لإخفائها؟ أم هي مخدوعة بنفسها والحياة هي التي تخدع الجميع في النهاية؟ تذكّر كتبه في غرفة المقيل، ما أبقى من ملابسه، متعلّقاته، وقد أطعمتها للنار، ليكتب: «لم يعد في الأمر ما يُقلق عداك ومصير صديقي، أمّا ما أخبرتني به من أنّها أطعمت حاجياتي للنار، وما تتفوّه به بالشتم والوعيد فلا يهمّ. لكنّ ما يؤلمني أنّها حوّلت دور صنعاء ومنشآتها إلى أوكار للتدمير، وأن يسود الموت فيها بديلًا للحياة، وكما ترين، فهي لا ترى في الوجود من هو أحق منها بالحياة، بل تعمل ليلًا ونهارًا على تدجين المجتمع، وتكريس سلطتها.

أعرف طنهاس، كان ذا عقل مستنير وإن تجلبب بجلبابهم، مسايرًا لوضع فُرض على الجميع على أمل أن يتغيّر لاحقًا. وبهذا يكون قد أرضى قيمًا تسكنه. لكنّي لست قلقًا عليه، بقدر قلقي عليك وأنتِ تكتمين عنّي حالة مرضك. فهل زرت كما نصحتك طبيبًا، وهل تتناولين علاجًا؟ عزائي أنّك إلى جوار زوجة المغترب، إنسانة تهتمّ بك وتعينك على مرضك، أرجو أن تخبريني عن صحّتك في الرسالة القادمة. أمّا أوضاعي هنا فبدأت أفضل، فقد أمسى لي عمل ثابت. وإذا ما تأكّدت من استقراري، فسنفكر معًا في أن تأتي إليَّ، لكنّ هذا مرهون بتحسّن ظروف الطرق. رغم أنّني كلّما تذكّرت هروبك من إخوتك، وحياتك التي حاولت بها أن تنتصري على معاناتك، أدرك أنّني أمام فتاة قويّة تستطيع تجاوز المصاعب، وأن لا خوف عليك من مخاطر الطريق والوصول إلى عدن. فقط علينا التريّث بعض الوقت. عندها سنعمل لنكون معًا.

هنا في سوق الهاشمي بالشيخ عثمان، تجلس بائعات المشموم والمشاقر متجاورات في صفّ طويل. ستضحكين إن قلت لكِ إنّني أتصوّر يومًا أن يكون لك مكان بينهنّ! لن يطالك هنا خوف ملاحقة إخوتك لك. وكذلك ستكونين بعيدةً عن تسلّط الشريفة وشرورها. مع أنّني أراك سمكة وبحرك صنعاء. يجوز أنّك لا تدركين حبّك وتعلّقك بتلك المدينة، لكنّك إن جلست إلى نفسك، فستدركين أنّ روحك تسكنها. فما زال صوتك الشجيّ لحظة نطقك لاسمها يوم حكيت لي أنّك قرّرت التمرّد على إخوتك والبقاء فيها يرنّ في أذني، صوتك لحظتها كان يخرج بشجن الهائمة بها. وأتذكّر ما حكيتِه لي يومًا عن عشقك لها، وتصميمك على البقاء فيها برغم المخاطر التي تتربّص بك.

أرى الفجر يقترب، ونحن نسمع أخبارًا عن اشتداد المعارك على كلّ الجبهات. يومًا ما سنرى سماءنا صافية من الطائرات المغيرة، وأرضنا نقيّة من دعاة المذهبية السلالية والاستلاب وسعيهم لإفساد الحياة».

12

يومًا بعد يوم تستهلكه أعمال المقهى وتأخذ كلّ همّه، ولا سيّما بعدما تمّت إعادة ترتيب أوسان نت بديكور جديد، ووسّع باعامر مساحته، لينافس مقاهي نت فتحت حديثًا في الجوار، فقد زاد بعض الخدمات، وأضاف أجهزة نسخ جديدة، وبرّادًا للمشروبات الباردة، والمزيد من أصناف المشروبات الساخنة، والمأكولات الخفيفة، ليظهر المقهى بديكور مبهج، وبتجهيزات متكاملة، حتى إنّه أمست له مساحة تنظّم فيها مسابقات وندوات ثقافية، كما تقام حفلات روّاد المقهى، ليوظّف باعامر من يساعده على إدارة كلّ ذلك التجديد.

مع الأيّام تضاعف الإقبال، ووفدت وجوه جديدة، ليبقى شنّوق على حذره، ملتزمًا بما وعد به نفسه، المحافظة على مسافة واحدة بينه وبين الجميع، وإن ظلّت أروى الأثيرة لديه، يمنحه تردّدها شعورًا خفيًّا بألفة المكان ويساعده على تحمّل ضغط العمل المتزايد، فيسأل نفسه: ماذا أريد من اهتمامي بها وأنا في هذه السنّ؟

فاجأته بالوقوف أمامه عند قدومها وانصرافها لتشكره تارة على أشياء غير ذات أهمّية، وأخرى تستفسر عن شيء ما، فاستنتج أنّها تحاول تقصير المسافة. كان يستمع إليها، متفهّمًا ما تطرحه، ليلحظ أنّها تبحث عن أيّ عذر لتتحدّث إليه، أو هكذا قدّر الأمر.

أنعم النظر في وجهها ذي الملامح المبهمة والمحبّبة بنقائه، وذلك الاختلاف الذي لم يمنعها من الاندماج بالحياة. ولم يكن وحده من يلفته اختلافها.

حين تخرج تطيّر الريح عباءتها المزخرفة، أجنحة رقيقة، وقد تشبّثت بكتفيها، إلى أن تختفي كظلّ متحرّك.

تطوّرت الأحاديث بينهما إلى السؤال عن أحواله، ومن أيّ بلاد هوَ، وماذا يدور هناك، وكان يجيبها متخلّيًا عن تحفظه، فعرفت من أحاديثهما عن حبّه للقراءة، كما عرف أنّها تعشق الشعر وأنّ لها محاولات فيه، لتفاجئه بأول هديّة منها، ديوان شعر لـلطفي جعفر أمان، عارضة عليه أن تستعير له أيّ عنوان يختاره من مكتبة كلّيتها. كان ذلك لافتًا لانتباهه، لكنّ ما أثار عجبه هو استئذانها إيّاه عقد لقاء لمجموعة من زملاء الدراسة على هامش المقهى، ومرّة أخرى بإقامة حفل لأحد مدرّسيها بمناسبة انتدابه للتدريس في إحدى جامعات الخليج، ليعرف أنّها ليست كما ظنّ منطوية على نفسها. كما يلحظ من خلال أحاديثه المقتضبة معها عمق أفكارها، وذلك الطرح العقلاني الذي يؤمن به.

تأتي بكتاب لتعود بآخر بعد أن يكمل قراءته، لتذكّره تلك الكتب بكتب البندرية. حتى نقاشاتها لمضمون ما قرأ تذكّره بها، ليزوره خوفه من جديد، خشية أن تكون من العسس. ولذلك فضّل التزام الحذر في مناقشاتها، وعدم استعارة أيّ كتاب.

وما زاد من شكّه انتظام حضورها في أيّام محدّدة وفي ساعات بعينها: صباح الجمعة، وعصر الأحد والثلاثاء، وحصرها في كلّ مرّة على محادثته همسًا في موضوع ما، وإبلاغه مسبقًا إن كانت ستتغيّب، أو تتأخّر، وكأنّها أمام مدرّس في فصل دراسي. أصبحت أيضًا تشكو له هموم ومصاعب دراستها، وتتحدّث عن رغبتها في حصد معدّلات مرتفعة لسنتها الأخيرة، على أمل أن تصبح معيدة في كلّيتها.

صباح يوم جمعة مدّت له بمظروف صغير، ومضت مبتسمة باتّجاه أحد الأجهزة الشاغرة، دون أن تقف معه لبعض الدقائق كعادتها. وجد ورقة ملوّنة قرأ ما كُتب عليها بخطّ رديء: «أشعر بتحفّظك أثناء نقاشاتنا. لديّ رغبة في أن أسمعك كما كنت تتحدّث إليَّ في البداية، وأشعر بالحرج من عيون بعض من في المقهى حين أطيل الوقوف أمامك. فهل تمنحني بعض الوقت خارج المقهى؟ أعرف أنّ طلبي سيبدو لك غريبًا، وستتساءل عمّا أريده منك! أريد فقط أن أحاورك. أن أسمعك تتكلّم بحرّية. في عقلي كثير ممّا أودّ طرحه، وقد استنتجت من نقاشاتنا أنّك تمتلك الكثير من الأفكار».

التفت إلى حيث تجلس. رآها تتابعه بنظراتها مبتسمة، قبل أن تعاود النظر إلى شاشتها. تضاعف قلقه لجرأتها، وقد تيقّن بأنّها من العسس. فكّر في طرح

الموضوع على باعامر، لكنّه فضّل أن يعالج أموره بنفسه، ليهمس لها عند انصرافها: «أعتذر منك. لا أستطيع ترك المقهى»، ثمّ ابتسم مختتمًا كلماته: «ولا أملك القدرة على أيّ نقاش».

مع الأيّام، انتظمت لقاءات زملائها تحت شعار «العقل حرّية وحبّ» على هامش ما يتيحه المقهى من مساحة لروّاده، وكرّرت دعوتها له للانضمام إلى نقاشاتهم. كانت تبادر إلى مساعدته بترتيب مقاعد الاجتماعات، متجاوزة مساعده، ومع نهاية اللقاء، تعود لترتيب المكان إلى سيرته الأولى، لتخلّف لديه حيرة تتناهشه. ظلّ على حذره. يسألها عن قرب اختباراتها، مبديًا نصيحته بألّا تنشغل بأيّ أمور أخرى، وبأن تنقطع عن كلّ ما يشغلها وتعتزل متفرّغة لمراجعة موادّ الاختبار، لكنّها تواجه نصيحته بسؤاله عن صحّته، وعمّا يشغله، متمنّية عليه الحديث عن أسباب اكتئابه، وكأنّها ليست معنيّة بما يطرحه.

في ذلك الوقت، كتبت إليه غزال «أنا متعبة ادعُ لي»، عدّة مرّات في رسائل متلاحقة يستجديها التوضيح عن حالتها، لكنّها لا تجيب، فقط تدعوه أن يصلي لها، فيتمتم بالدعاء لها وهو الذي لا يؤمن.

ظلّت أروى تدهشه بتوسيع دائرة مساعدتها له، وكأنّها تحاكي أيّامه مع أكرم ومساعدته له. تعيد بعض المقاعد إلى أماكنها، تعدّل جهازًا انحرف عن موضعه، لتفاجئه يومًا بجلوسها خلف الجهاز الرئيسي أثناء مساعدته أحد الروّاد في تشغيل جهازه. وجد نفسه محتارًا أمام تطوّر أساليبها ورقة تعاملها، تتعمّد النظر في وجهه بابتسامة عتاب، مادّةً إليه بقطعة شوكولاته، وتارة بمخبوزات تأتي بها من بيتهم. وحين يسألها بحرج:

– لماذا كلّ هذا؟

تردّ مبتسمة:

– وأنا في طريقي إلى المقهى أتذكّرك!

في آخر مرّة دخلت مبتسمة. دون أن تتوقف أمامه، جلست إلى أحد الأجهزة، وظلّت ترسل نظراتها إليه بين برهة وأخرى. يستغرب نظراتها المختلسة. بعد وقت يلحظ رسالة جديدة على حسابه، ظنّها غزال. لكنّه ارتجف وهو يقرأ اسمها «أروى عبد النبي». بتردّد رفع ناظريه باتّجاهها، قرأ: «الأستاذ شنّوق، أنا أروى، عذرًا لمخاطبتك عبر حسابك بعد أن استدللت عليه من الجهاز الرئيسي.

أتمنّى أن أعرف سرّ تحفظك مؤخّرًا. فأنت تقابل ودّي بجفاء غير مبرّر، ما زاد من صعوبة الحديث إليك دون سبب، لتدفعني للبحث عن طريقة للتواصل معك. من حقك أن تستغرب إصراري، لكنّي، بكلّ وضوح، أجد في أفكار سمعتها منك قبل تحفّظك ما جذبني وحيّرني، إضافة إلى تحليلك لبعض الكتب التي قرأتها، ما أعجبني. قد لا تعرف أثر ذلك عليّ. أنا لا يهمّني عمرك، أو مهنتك أو أيّ شيء آخر بقدر ما يهمّني ما تحمله من أفكار، فهلّا عاودت التحاور معي؟».

ارتعش كمن يقتعد جمرًا ملتهبًا. رفع ناظريه يراقبها، ليراها تجلس بهدوئها المعتاد، منهمكة تداعب أصابعها أزرار «الكيبورد»، لتصله منها سطور أخرى: «قد تتعجّب، لكنّي لن أخفي عليك سرًّا. إنّ أكرم حدّثني عنك وعن استنارتك، مطلقًا عليك لقب الـ«معلم». قال لي إنّ سعة معرفتك أعجبته. وبعد مغادرته سعيت للتقرّب منك، أن أحاورك في ما يشغلني، ومن أول حديث استمعت إليك أدهشتني، لأدرك أنّي أمام عقل يحمل الكثير ممّا عليّ سماعه، إلّا أنّك في نهاية الأمر صددتني مدّعيًا الجهالة. تواطأت مع رغبتك لعلّك تعود، لكنّك استمررت في برود غير مبرّر، ما أثار تساؤلاتي. لذلك أسألك عن سرّ جفائك، هل أسأتُ دون أن أدرك؟ أنا أتوق للمعرفة، فهل تكون محاوري؟».

ظلّ ينظر إليها لعلّها تلتفت إليه، لكنّها استمرّت في هدوئها، تكتب، لتصله أسطرها: «أولًا، إن رأيت أنّك لا ترغب في مخاطبتي عبر النت، يمكنك حظري ببساطة، وبدوري سأعتبر الأمر كأنّه لم يكن. إلّا أنّني أتعشّم تفهّمك ورحابة صدرك بالسماح لي بأن أطرح عليك ما أشاء. ويمكنك الردّ في أيّ وقت تشاء، من دون تعطيل لعملك، أو حرج من عينَي مساعدك وعيون روّاد المقهى. ولعلمك، ما زلت على تواصل مع أكرم الذي يُقرِئك السلام، ويخبرك بأنّه التحق بجامعة حضرموت لدراسة الجيولوجيا وملاحقة ما في باطن الأرض، ويعتذر من عدم توديعه لك، ومبرّره أنّه يكره لحظات الوداع. ويرجو أن ترسل إليه برابط حسابك ليتواصل معك، فهل أزوّده به؟

تواصلك يسعدني. مع جزيل احترامي».

شعر بالخجل لحظتها، فلم يتوقع أن يحدّثها أكرم بما كان يدور بينهما من حديث.

توقّع بعد أن نهضت أن تمرّ للتحدّث إليه، حتى يعاتبها. لكنّها رمت إليه بابتسامة ذات مغزى ومضت، كأنّها لم ترسل إليه حرفًا، ليعود بلهفة مفتّشًا في محتويات صفحتها. وجه البورسلان على رأس الصفحة. وأخرى كبيرة لساعة «بيغ بن» الصغرى على خلفية مدينة كريتر، وعبارة «العقل حرّية وحبّ». صفحة مليئة بآراء أكثر جرأة من تلك التي تطرحها عليه، وقد حظيت تلك الآراء بسيل من التعليقات انقسمت بين مؤيّد ومعارض، بل جنح بعضهم إلى التجريح بها ونعتها بالعلمانية.

بعد أن تصفّحها أدرك أنّه أمام كائن متهوّر، فهي تعلن آراءها بكلّ وضوح، ولا يمكن لتلك الآراء أن تكون لشابّة لها صلة بالعسس. بل إنّها قد تكون هدفًا لهم. تصفّحه لصفحتها جعله يغيّر رأيه، فبدلًا من خشيته منها أصبح يخاف عليها. وها هو يكتشف وجهًا آخر لشخصيتها لا تشابه ما تحمله من ملامح رقيقة!

كتب بعد تردّد «ابنتي أروى، يدهشني إصرارك، ولا يوجد ما يمنع من مراسلتي أو التحدّث معي، لكنّي بعد قراءة آرائك، أجدني قلقًا من بوحك بتلك الآراء المغايرة للسائد. أشفق عليك من مجتمع لا يرحم من يخالفه. وأخاف عليك كفتاة في عمر الزهور تعيش في مجتمع يرى الابتداع كفرًا والتفكير إلحادًا، ولا يقبل بمن يخالفه بل يحكم عليه بالموت. أتمنّى أن تكوني أكثر حكمة، أن تحتفظي بأفكارك تلك لنفسك. أنا لا أنصحك، بل أعبّر عن خوفي عليك. أنتِ على أبواب اختبارات، والأفضل تفريغ عقلك وتهيئة حواسّك للجلوس بذهن صافٍ.

فإن كنت عرفت من أكرم أنّك قد لفتّ انتباهي، وأنّني سألت عنك، فذلك لأنّك ذكّرتني بأولادي، فأنتِ في عمر إحدى بناتي.

لكلّ كائن همومه، فلا تلوميني إن تراجعت عن حواراتك. فأنا لا أقصد الإهانة، ولكن لي محاذيري. أنت ابنة عدن، وتعرفين قدرة البعض على ضخّ الكراهية، وقد سمعتِ بالتأكيد عمّن وُجدوا قتلى، أو معتدى عليهم، ومن طُردوا وشُرّدوا لا لشيء إلّا لأنّهم ليسوا من أبناء عدن، وأنا لم يعد لي مكان أذهب إليه بعد لجوئي إلى عدن، لا أريد لك إلّا السلام، ولي السكينة والهدوء.

واعلمي بأنّني سعيد بك، وبذكائك. فهلّا تركت حوارتنا حتى تجاوزك للاختبارات؟ أو خفّفت منها على الأقلّ؟ أكرّر نحن في وطن سائب، ولا حيّز للاختلاف فيه».

دخلت عليه في اليوم الثالث بتحيّة باسمة، وسارعت للجلوس أمام أحد الأجهزة. يرقب توهّج الشاشة على وجهها. انهماكها. خمّن أنّها تقرأ ردّه. كان وجهها اللبني تغطّيه ابتسامة دائمة. تلتفت إليه ثمّ تعاود متابعة القراءة. بعد حين لاحظ مراقصة أصابعها للأزرار، لتتوالى كلماتها على شاشته: «أشكر قبولك الصداقة. لن أعتذر عن بحثي عن صفحتك. واعلم أنّني حين جلست إلى جهازك لم أخطّط للحصول على رابطك، فقط وجدت شاشة مفتوحة. في البداية تردّدت لأنّها باسم مختلف، لكنّي لاحظت أنّها مفتوحة دائمًا فتأكّدت من أنّها صفحتك، ووجدتها فرصة لأخاطبك بعيدًا عن عيون وهمس من في المقهى.

أن تصفني بابنتك هذا شرف لي. لكن اعذرني، فأنا لا أفضّل هذه الصفة، ولا أيّ صفة عائلية أخرى. قد تلاحظ مخاطبتي لك بالأستاذ، بينما غيري ينعتك بالعمّ أو الخال، وأحيانًا يناديك البعض بالحاج. أستأذنك أن تخاطبني كصديقة. لا تتعجّب من كلامي، فما شدّني إليك ليس كبر سنّك، ولا غير ذلك، بل أفكارك.

قلّة هم من في نضجك، ولا أرى في فارق العمر عائقًا بيننا. فتبجيل العقل وما تحمله من فكر وقيم إنسانية، تلك هي قيمتك. فالفكر والقيم هي ما يجمعنا. لقد وجدت فيك ضالّتي، فالعقل المستنير هو الأجدر بالتقدير، وليس السنّ أو الدين أو السلالة أو المكانة الاجتماعية، فهل توافقني الرأي؟

أنا يا صديقي أقف على مفترق طرق. فبعد أسابيع سأجتاز آخر اختباراتي، وبعدها أفتح صفحة ما بعد الجامعة. أقدّر قلقك عليَّ. لكنّي أطمئنك بأنّ تحصيلي جيّد جدًّا على مدى السنوات الفائتة، وانشغال عقلي بالحوار هو جزء من نجاحي، وأجده يعزّز من تحصيلي، فلا قلق على ما أنا قادمة عليه، وسترى النتائج عمّا قريب.

اسمح لي بأن أوضح لك أنّني أكره النصائح، وإن كنت أقدّرها. أنا بحاجة أكثر إلى من يسمعني وأسمعه، لا إلى من يملي عليَّ قناعاته ومسلّماته، بالضبط كما أنّني لا أملي على غيري قناعاتي وما أومن به مهما كان يقيني، خاصّة في ما يتعلّق بالغيبيات والوجود. ودومًا تثيرني تلك الأسئلة التي لا أجد لها أجوبة، ولا أجد وسيلة لغربلتها إلّا بالنقاش. فأنا لا أؤمن بالمطلق، ولا بوجوده، وقناعتي أنّ كلّ شيء في هذ الوجود بدون استثناء نسبيّ.

أرجوك أن لا تعود إلى جفائك، وحين تلمس منّي ما يغضبك، حدّثني بقلب مفتوح كما أحدّثك. أنا أسعى إليك كما تسعى الفراشة إلى النور».

حين لاحظت انهماكه في متابعة ما يصله منها، فضّلت المغادرة في صمت، دون أن يشعر بمغادرتها، وحين رفع رأسه لم يجدها.

وجد نفسه منجذبًا لما تطرحه، رفضها لصفات ينعتها بها، ليشعر بأنّها قد نجحت في تحريك الراكد فيه. فضّل عدم الردّ عليها في تلك اللحظات.

11

بعد أن استقرّت أوضاعه، وتأكّد له أنّها خارج عدن، أخذ يتصالح مع المدينة بدونها، مكتفيًا بما أرسل أخيرًا إليها من رسائل. ولم تعد لديه نيّة لاستجداء ردّها. تصله ذات صباح رسالة منها: «أكتب إليك الآن، بعد خروجي من المستشفى. فبعد أن فقدت وعيي سقطت أرضًا أثناء سيري معتمدة على مشّاية تساعدني على الوقوف، لأستيقظ وقد أحاطتني وجوه غريبة. عرفت أنّي نُقلت إلى المستشفى. رددت عليك بكلمات قليلة بعد أن صحوت، معاهدة نفسي بأنّها آخر كلمات إليك، لأقضي بعدها أيّامًا تحت الرقابة الطبّية. وقد شخّص الأطبّاء حالتي بالانهيار النفسي. عدت إلى بيتي على كرسيّ متحرّك، لأجد قطّتي ميتة. لن تعرف مقدار حزني عليها. فهي أنيستي الدائمة. تخيّل أن تموت قطّتك جوعًا وعطشًا بعدما أقفلوا عليها الأبواب والنوافذ. وكذلك ذبلت نباتاتي وقاربت على الهلاك، تلك التي أقلّب تربتها في أصصها، أناجيها كلّ صباح أثناء سقيها وإزالة ما تيبّس من وريقاتها، وأغيّر مواقع بعضها حتى تنال حظّها من الشمس.

لم أنسَ قطّتي، ولا نباتاتي، فأينما أقف داخل البيت أشاهدها حولي طوال الوقت.

بعد عودتي إلى بيتي لفّ روحي صمت ثقيل، ليداهمني اكتئاب ما زلت أعاني منه حتى اللحظة. هل ستفتقدني إذا ما متّ؟ أتمنّى أن تجيبني على ذلك. لكن ثق بأنّني سأتعلّق بالحياة حتى نلتقي، ولن أكرهك يومًا.

بعد أن تحوّلت حياتي إلى سلسلة من الفقد، أصبحت روحي هشّة، لا أكثر. ما كتبته عن مدينتك الصغيرة أثناء فرارك جعلني أستعيد تلك الأيّام التي كنّا فيها معًا. يومها حلمت بأن تكون هي مدينتي أنا أيضًا، وأنّنا سنقضي عمرنا فيها

معًا. ما زالت أحمل لتلك المدينة الصغيرة ملامح الأوقات الجميلة التي قضيناها نتمرّغ في حبّ بعض، وإن كشّرت في وجهي يوم جئتك بوليدتي، ليكون الفراق بيننا إلى اليوم!

ثمّ وأنت تصف خطواتك على تلك الطرق إلى إب ثمّ ماوية، جعلتني أتذكّر روائح الأمكنة التي عبرتها أنا يوم حملت حلمي كي أكون طبيبة، أسعدتني أن تكون قد ذهبت للبحث عنّي طوال أيّام فرارك، لكنّ ما أرعبني هو أن تجد فتّاح وقد تحوّل إلى جلّاد حقيقي، ذلك الشاب الذي ظللت أراه حلمًا رقيقًا، راسمة له في خيالي صورة رومانسية، أيُعقل أن تجده سفّاحًا؟! لماذا تصاب أحلامنا بالخيبة دائمًا؟ أم أنت تعمّدت تشويه ما كنت أتخيّله جميلًا؟

ما كتبته خفّف الكثير من حالتي، وجعل حنقي يتلاشى، إلّا أنّ ظنّك أنّني أتهرّب من اللقاء بك... وتأكيدك وجودي في عدن حيّرني...

مدينة وُلدت فيها أجزم بأنّها تتسلّل كلّ ليلة لتنام معي، ويسعدني أن تبحث عنّي فيها، قد تلمحني صباحًا أدخل مع جموع الطلبة والطالبات بوّابة ثانوية باذيب، تلك التي أسفل تلّة مجلس النوّاب في كريتر. فأرجوك إن لمحتني مجدّدًا أن تتبعني إلى الداخل. جل بناظريك في الساحة، سترى صفوفًا منتظمة أمام علم تداعبه نسمات رقيقة قادمة من البحر، وتراني أقف أمامه مردّدة تحيّة لصباحات الوجوه الناظرة إليه. ثمّ اخرج وتسكّع في تفرّعات سوق البهرة والطويل حتى أنهي يومي الدراسي. سأخرج في النهاية وسط زحام تدفّق وجوه فرحة تتفرّق في كلّ اتّجاه: أزقة الزعفران، شارع المتحف الوطني... سأفاجئك وأمسك بكفّك لنعبر الميدان، ثمّ الشارع المستقيم، حتى أول شارع إنجلا ديفز. هناك حيث مسجد أبان الصغير. ستنتظرني أمام ركنه ريثما أضع كتبي وأغيّر ملابسي، ثمّ أعود لنسير معًا عبر الطويلة وتفرّعاته حتى الصهاريج، هناك نغتسل معًا في بركها بعض الوقت تحت ظلال جبل شمسان. نصعد وحولنا زهور الجهنّمية والفيكس كأيّ عاشقين. نجلس لأغنّي لك تلك الأغاني العدنية التي تحبّها «دق القاع دقه لا تمشي دلا. وأعط القلب حقه من دنيا السلى». وستردّد صدى صوتي جبال شمسان. أصطحبك بعدها وقبل نهاية النهار إلى بحر حقات. نخلع ملابسنا مرّة أخرى، متستّرين بعتمة الغروب، نطفو وسط برودة الماء. نغوص تحته لنسترق قبلات وقبلات. وقبل عودتنا نصعد قلعة صيرة، نخطّ اسمينا على حوائط الجروف الصخرية العالية حيث تراقصني

رقصة نهديها للبحر، ثمّ نهبط بعدها السلالم إلى قاعات القلعة ونستغلّ خلوّها بعيد الغروب إلّا منّا، لنمارس جنوننا المعتاد عرايا، ونطلّ بنشوتنا على البحر من نوافذها لنريه ما صنعت بنا المتعة.

عليك أن تعلم، رغم أنّك تقول إنّك رأيتني هناك، أنّ عهدي بعدن انتهى منذ زرناها معًا. ألا تذكر أنّنا عدنا معًا إلى صنعاء؟ لقد مضى على مغادرتي عدن أكثر من ثلاثة عقود».

أصيب مع آخر كلماتها بالدهشة وهو يردّد: أكثر من ثلاثة عقود، أيُعقل أنّها لم تزر المدينة ولم تلتقِ بأحد من أفراد أسرتها كلّ هذه السنوات. لكن لماذا؟

عاد إليه شعوره بالغربة. عاود قراءة رسالتها القصيرة مرّات. يفكّر في ذلك الكائن الذي جاءته في آخر لقاء وهو بين يديها، يؤنّب نفسه وها هي تذكر أنّها وليدة، متسائلًا: تُرى، كيف تكون اليوم بعد أكثر ما يقارب خمسًا وعشرين سنة من مولدها. بعد كلّ قراءة يشعر بأنّ القدر لم يكن منصفًا معه، ولا معها. يتزايد إشفاقه عليها، يشعر بنوع من تأنيب الضمير. يترك ما كتبته. ينهض مبتعدًا، يسير بين طاولات المقهى، يتأمّل مَن أمام الأجهزة: كلٌ مشغول بنفسه. يشعر بأنّ المكان وطن محتمل، وأنّ عليه أن يقنع نفسه بألّا يترك عدن بعدما تأكّد له أنّها ليست فيها.

10

تتردّد أروى كعادتها على أوسان نت. لعدّة أيّام تنتظر أن يعود إلى ماضي نقاشاته. طرحت عليه كلمات قليلة: «ها أنا ذي أنتظر ردّك بينما أنت تستمرّ في تحفّظك». مكتفية بتلك العبارة، التفتت نحوه بابتسامة زادت من بهاء وجهها، إلّا أنّه أشاح بعيدًا حتى لا ترى الهموم تطفح على وجهه. عادت أصابعها تراقص الأزرار: «إن كان هذا ما تريده فلا بأس، لن أزعجك بإلحاحي».

ردّ من فوره عليها: «أصدقك القول، تلك الأفكار التي تطرحينها تروقني، لكنّي أخشى أن تفاجئيني بنشرها على صفحتك كما تصنعين بحوارات مع غيرك، فهلّا أجّلتِ لبعض الوقت؟ وأعدك بعدها أن نناقش ما أردت».

«أشكرك على ردّك، وأتفهّم قلقك. فما نواجهه من مضايقات يدفعنا أكثر إلى أن نعيش بمزيد من الحوار، لنجد الحياة أكثر جمالًا. وذلك لقناعة تسكنني بأنّ علينا أن نستغلّ كلّ دقيقة لوجودنا في هذه الدنيا، وأن نقول كلّ ما نريد قوله، فقد يأتي يوم لا نستطيع أن نتحدّث فيه حتى حديثًا عاديًا».

ثق بأنّني لن أنشر ما يدور بيننا، سأحترم رغبتك. واسمح لي بأن أنقل إليك بعض نقاشاتي وزملائي في لقائنا الماضي، إذ ناقشنا ما يُوصف بالمطلق، والمعنى منه ليس شيئًا محدّدًا بل اعتاد الناس إطلاقه على كلّ ما هو غيبي. خلال ذلك اللقاء نوقش تفصيل مهمّ، عمّن يقدّمون أنفسهم على أنّهم المؤمنون، ممثّلو الغيبيات في الأرض، من خلال تكريسهم لتلك المسلّمات اجتماعيًا وسياسيًا... إلخ. ليفرضوا على المجتمعات الإنسانية المفتقرة إلى الوعي، أدواتهم وثوابتهم ومسلّماتهم كأسلوب من أساليب السيطرة والتسلّط. وتلك مجتمعات غُيّب العقل فيها، تسير منذ القدم في أنساق متّصلة بعضها ببعض لتظلّ جيلًا بعد جيل تدور في دائرة مغلقة. ولذلك حرص من

يدّعون تمثيل القوى الغيبية على تكثيف التجهيل المستمرّ، مطبّقين منهجًا فكريًا أصوليًا لا يقبل النقاش، ذلك الفكر العقيم الذي يسافر فينا منذ مئات السنين، لينخر عقولنا خلفًا بعد سلف. ومع ذلك نظلّ نتساءل عن أسباب تخلّفنا عن ركب التحضّر الإنساني، متناسين أنّ علينا كسر قيود تغييب العقل، عبر تحريره من الخرافة التي تستوطنه، وعدم ترسيخ سحق عقولنا وتسفيهها.

أطرح عليك هذا بعد أن وافق جميع زملائي على دعوتك لحضور اجتماعات «العقل حرّية وحبّ» التي تلحظ انعقادها بين وقت وآخر في المقهى، نتمنّى أن نجد لديك ما يجدّد الجدل في نفوسنا».

أصابته حيرة من إصرارها على انضمامه يومًا بعد يوم، واسترجع بداية رؤيته لها. فتاة تلفت انتباه من يراها لانكسارها، ببساطة ملابسها وأناقتها، نقاء بشرتها، ومنديلها البنفسجي الذي يحيط بوجهها ليزيده بهاءً. وحين تسير ترى عباءة تتشبّث بكتفيها سابحة كريش نعام، بنطال وقميص يزمّان جسمها الناحل. وحين تجلس لا تشابه تلك التي تسير. تتحدّث هامسة فلا تماثل ما تنشره على صفحتها. يراها أمام الشاشة في حالة تنسُّك بسكونها. يتنقّل بين أوجهها المتعدّدة، مقارنًا بين صوتها الهامس وهدير كلماتها الجامحة، صوت أفكارها العالي... محاولًا استيعاب كلّ أوجهها.

كتب مكرّرًا نصيحته: «كم أتمنّى عدم نشر مثل هذه الأفكار على صفحتك. لا تعلمين كم يصيبني رعب من تخيّل ردّة فعل المتربّصين. وأنصحك، إن كنت مصمّمة على نشرها فليكن في صفحة أخرى تنشئينها تحت اسم مستعار. وكم أكره أن أكون في موقع الناصح، إلّا أنّي مضطرّ.

أخشى عليك من الحالمين بالحور العين، وأصارحك بأنّ ما طرحتِه عن المطلق قد أخافني. فمن المؤكّد أنكم لن تجدوا لديّ أجوبة على ما تطرحون، ولا أجد نفسي إلّا متأمّلًا لما أسمعه، ولذلك أرجو إعفائي من عضوية «العقل حرّية وحبّ».

في الجلسة التالية، دخلت ترمقه بابتسامة وضّاءة، وتابعت سيرها حتى استقرّت أمام إحدى الشاشات. مرّ بعض الوقت وقد انهمكت في متابعة شاشتها، ثمّ التفتت إليه، ليستقبل: «أشكرك. وقد كنت أمنّي نفسي في طريقي إلى المقهى بأن أجد ردًّا ما. شكرًا لنصائحك، لكنّي كما أسلفت لك لا أحبّذ تبادل النصائح، ولا أنتظر إجابات. ما أتمنّاه دومًا أن تحاورني، لا أن تبرّر

تحفّظك بخوفك وخشيتك، فأنا لا أكتب إلّا ما أؤمن به. ودعني أخبرك بسرّ. إنّ الأصدقاء الذين ترفض الانتماء إليهم يبجّلون العقل بدلًا من المطلق، أو ما سيُسمّى القدير.

وإن كنت طرحت عليك المطلق والنسبية، وفضّلت أنت عدم محاورتي بشأنهما، مدّعيًا كما هي عادتك عدم القدرة، فاعرف أنّني لن أملّ من دعوتك للاشتراك في نقاشاتنا التي نعقدها أمام ناظريك، وبعدها لك أن تقرّر الانضمام عن عدمه.

في لقائنا الأخير، طرح أحد الزملاء سؤالًا: هل الحقيقة هي المطلق؟ وهل العلاقة بينهما تجاور أم تماثل؟ هل هما مسمَّيان لشيء واحد؟ ليتفرّع النقاش، وينقسم المتحاورون إلى من يجزمون بالتطابق، ومن يدلّلون بالتجاور، لكنّ الطرفين أجمعا على أنّ الحقيقة المطلقة غير موجودة كما يظنّ البعض بوجودها، كما هو المطلق في كلّ شيء، فكلّ شيء في تغيّر وتبدل دائمين. لا ثبات. وكلّ شيء له أوجه متعدّدة، لا وجه واحد. وكلّ وجه لا يماثل تماثلًا كلّيًا ما يجاوره، ولذلك لا ثبات. وما يظنّه أحدنا اليوم حقيقة، قد يجده غدًا نقيض ذلك. إذن لا حقيقة. لا ثوابت. لا أصول. لا مطلق. ولا مسلّمات! فكلّ تلك المصطلحات فخاخ، ولذلك، من يؤمنون بصواب أجوبتهم يغرقون في وهمٍ زائف. وما يصقل عقولنا ليس الأجوبة، بل تلك الأسئلة التي تقود العقل للبحث بحرّية. وعلينا أن نعلم أنّ المتعة ليست في الوصول إلى الهدف بل في تفاصيل التفكير فيه، والحوار هو السير بالعقل المتأمّل المتسائل إلى فضاء متغيّر ومتجدّد على قاعدة النسبية والتعدّد...».

استمرّ يستقبل ما يصله منها، لتحرّك كلماتها جدلًا قديمًا، دفعه ليكتب: «إن كُنت وجه البورسلان، فمن يكتب هذا؟». التفتت مبتسمة، ليصله منها: «الكائن متغيّر. وبقدر معارفه تتغيّر مفاهيمه، حتى يطابق شكله جوهره، أو يتنافر. وهذا أمر ليس بأيدينا».

ردّ: «أفكارك لا تشبه تلك الفتاة الهادئة، الهامسة. ولذلك يخيفني عقلك المتمرّد، ومقدرته على السير حتى مجاهل ترعبني».

قرأت تجاوبه لما تطرحه بسعادة، وها هي تدفعه لمعاودة الاشتراك في دوران عجلة النقاش. تجلس منتظرة المزيد. كتب: «ليتك لم تستدلّي على

حسابي في الفيسبوك، حتى أكون في منأى من تساؤلاتك، وأكتفي بأحاديثك القصيرة وجهًا لوجه».

نهارًا بعد آخر تحوّلت جلساتها إلى دردشة متبادلة عبر الشاشتين. ما إن تطلّ من باب المقهى، حتى تمرق بقامتها الناحلة، تسحب نظراتها المستكينة، وابتسامتها الهادئة، إلى إحدى الشاشات بهدوئها المعهود، وتناغي أزرارها بأصابع براثنها العنكبوتية. يستمرئ تأمّلها. أصبح يخشى عليها من عقلها، ومن عشّاق الجنّة. كتبت: «بين روّاد المقهى من تعرفهم، هم من الأصدقاء، يحملون نفس الأفكار. دومًا نجلس في مناقشات طويلة. ودومًا ننتظر أن توافق على الجلوس إلينا».

يلتفت متفحّصًا صفوف الجالسين، يميّز من ذكرت، يكتب:

«ألا يكفي حواري معك؟».

«أضقت منّي؟».

«وهل يضيق الغريب بأهل البيت؟».

تلتفت إليه بملامح عاتبة، تحدجه بنظرات مستنكرة:

«أتريد إيلامي؟».

«وكيف تقولين إنّي ضقت بك؟».

«أرجو أن تعرف أنّك جعلت لهذا المكان معنى، على الأقلّ بالنسبة إليّ. وعليك أن تتغلّب على مشاعر الغربة تلك. إنّ من يراك مجتهدًا لإرضاء روّادك يعرف أنّك كائن مختلف. لقد عرفنا هذا المقهى قبل أن نعرفك، لكنّه اليوم أصبح قبلة الكثيرين. وجودك منحه روحًا نحبّها. أتفهم ما أقول؟ الجميع يشعرون بك».

لم تنتظر ردّه. وقفت متجهّمة، ثمّ خطت باتّجاه الباب ومضت مغادرة.

في قدومها التالي أطلّت وقد عادت إليها ابتسامتها، هامسته: «مشتاقون».

ثمّ جلست لتحرّك أصابعها على أزرار الكيبورد: «آلمتني أمس بغربتك. الغربة إحساس مدمّر علينا مقاومته، ومحاولة استهلاك الحياة بتناقضاتها، مع مقارعة المصاعب والمشاعر السلبية دائمًا».

ابتسم متمتمًا: وكأنّها تشعر بما بي!

ليتوالى ما يصله منها: «حين تكرّر نصائحك بالتوقّف عن نشر أفكاري، أحترم نصيحتك وحرصك. عليك أن تعرف أنّنا لسنا وحدنا من يحضر لقاءات

«العقل حرّية وحبّ» هنا. فلنا أقران كثر، ودومًا نتواصل عبر النت. نتحاور في ما نفكر به. ولنا مواقعنا على الشبكة العنكبوتية، ولقاءاتنا الأخرى على هامش الجامعة، وفي أماكن أخرى. وما اجتماعات «أوسان نت» إلا أحد الأماكن المعتمدة للقاءاتنا الدورية. ودومًا ننتظر أن تشاركنا حين نكون هنا. في المرّة المقبلة سنناقش رؤية «الكون كلّ متفاعل بوعي وبدون وعي». أكرّر، الدعوة باسم الزملاء للمشاركة.

ولتقريب فكرة النقاش في لقائنا المقبل، سأشرح لك بعض أفكاره. فبعد أن تعدّدت الآراء في لقاءاتنا السابقة حول الموضوع عينه، ومع أنّ الأكثرية يميلون إلى أنّه لا يوجد قدير مسيطر بوعي، منتج لكلّ الظواهر التي نعيشها، بل يوجد كون بجميع عناصره يفيض عطاءً دائمًا، قد نقدّره بالإيجابي تارة وأخرى بالسلبي، لكونه فيضًا ليس إلّا. ولا وجود لمقتدر منفصل عن الوجود، ولا لمسيّر ومتحكّم يكافئ من أحسن أو يدمّر من أساء، وإن ظلّ كثرة من البشر يظنّون أنّ عقلًا واحدًا يتحكّم بكلّ شيء، وقد خلعوا عليه الكثير من الصفات، وجزموا بأن لا حركة ولا سكون إلّا بإرادته، فتلك أدوات يبتكرها المتسلّطون لمزيد من التدجين، مكرّسين دعوتهم جميع الكائنات إلى أن تخضع لمشيئته وعبادته حتى يتجنّبوا سخطه وجبروته، وكي ينالوا رضاه، وهم بذلك يقصدون أنفسهم وديمومة سلطانهم، فهلّا شاركتنا الحضور والمناقشة؟».

وداعًا عدن

9

بعد انقطاع لما يقارب الشهر، أطلّ وجه البورسلان بابتسامة وضّاءة. مدّت له بعلبة مزركشة، وضعتها مبتسمة أمامه، ومضت إلى أول جهاز شاغر. يقلّب تلك العلبة بين يديه حتى وصلت منها رسالة: «ألا تبارك لي؟ اليوم أنهيت اختبار آخر مادّة في حياتي الجامعية، وبين يديك علبة حلوى، احتفالًا منّي بهذه المناسبة. اللحظة أستقبل حياة جديدة. بدايتها وعدك لي بأن نتناقش في كلّ ما يشغل عقولنا. لم يعد أمامي أيّ همّ. فقط أيّام وينظّم حفل تخرّج دفعتنا، ولذلك أنتهزها فرصة لأدعوكم إلى مشاركتنا حفل التخرّج. وقبلها أدعوك لمرافقتي لأعرّفك إلى جامعتنا العريقة، وعلى وجه الخصوص كلّيتنا وكذلك المكتبة التي كنت أقضي فيها ساعات طويلة، ثمّ أعرفك إلى القاعة التي سيقام على مدرّجاتها الحفل».

تلك اللحظات وصلته رسالة من غزال. أشار على مساعده بأن يأخذ باله من الروّاد، بينما انهمك متلهّفًا يقرأها: «الآن أستطيع أن أحدّثك بوضوح. خلال الفترة الماضية أقرأ ما يصل منك وقد طمأنتني عليك. في الوقت الذي كنت أنا فيه بين الحياة والموت، لحظتها فضّلت الصمت. بعدما وُضعت تحت المراقبة في قسم العناية المركّزة بالمستشفى، قرّر الأطبّاء استئصال الرحم بعد أن بدأ الورم بالانتشار. بعد العملية أمسى لديّ إحساس بالخواء. قال الطبيب إنّهم أنقذوني من موت محتّم. زوجة المغترب ظلّت إلى جواري، واليوم أعادتني إلى بيتها. أطمئنك، أنا بخير، ويمكننا بعد اليوم أن أفكّر في طريقة للوصول إليك ».

كلماتها القليلة نقلت إليه إحساسها بالوحدة والضياع، وشعورها بوحدة لا تكسرها سوى امرأة تشفق عليها. استعاد مشاهد حياتهما معًا. يستحضر

شريط حياتها. تقف باسمة أمامه، راقصة، عارية. تلمس وجهه الكبير وقد سكنته كآبة، لم يدرك أنّ أروى كانت تقف أمامه مودّعة قبل أن تنصرف. تنبّه لصوتها: – أراك لم تُسرّ لأخباري!

تذكّر دعوتها، بينما أردفت: – قبل لحظات كنت مبتسمًا وأنت تنظر إليّ. والآن أرى وجهك متجهّمًا. فما السبب؟

– قبل لحظات تلقّيت رسالة من إنسانة تخبرني بأنّها استأصلت ورمًا كاد يفتك بها، ومعه تمّ استئصال رحمها!

سألته:

– أهي قريبتك؟

– أكثر من ذلك.

– من تكون؟

– فتاة جنى عليها الزمن والمجتمع وأنا!

– أتحمل لها مشاعر.

قاطعها:

– هي مشاعر تتمازج لتكون كلّ شيء حتى الأبوّة، هي نفسها نحوك!

التفتت عاتبة:

– ألم نتّفق على تجاوز مثل تلك التوصيفات؟

هزّ رأسه شاعرًا بالأسى، ثمّ تحامل على مشاعره وابتسم معبّرًا عن سعادته بدعوتها. وللحظات استعادت ملامحه علامات الجدّية وقال لها وهو ينظر في عينيها: – اسمحي لي بأن أوضح لك عدم رغبتي في الانضمام إلى مجموعتك.

– بهذا أنت تخلف وعدك. ألم تعدني إلى ما بعد اختباراتي. وهذه أنا أنهيت ذلك.

– اسمعيني. حين عرفتك. وأنت تدخلين وتخرجين بذلك الهدوء وبعض الانكسار، لم أتوقّع أن تكوني تحملين أفكارًا آمنت بها وحملتها بنفسي ذات يوم. تلك الأفكار التي عادت عليّ بالشقاء والتشرّد، لأصل في النهاية إلى قناعة بأنّ على المرء أن يحتفظ بأفكاره لنفسه، وأن لا ينصّب حماسته مسؤولةً عن تغيير الكون.

يوم رأيتك تدخلين المقهى لم أكن حينها قد عرفت آراءك، إلى أن طالعت صفحتك لأجد ما أخافني. ولم تتركي لي وقتًا لالتقاط أنفاسي، بل وجّهت لي الدعوة إلى مشاركتكم النقاش والانضمام إلى لقاءاتكم. ويومًا بعد يوم أتساءل في حيرة: ألا تدركون في أيّ أرض تعيشون، وأيّ مجتمع يحتضنكم؟ ولم أتوقّف عند تساؤلاتي بل ذهبت للبحث عن صفحات بعض زميلاتك وزملائك، لأكتشف عشرات الصفحات التي تجذّف في بحر من الرمال. وتريدين منّي حضور تلك النقاشات، في الوقت الذي أدعوك فيه للتعقّل.

قاطعته بتهذيب:

– عفوًا. نحن هنا لدعوتكم إلى حضور حفل التخرّج.

– أتظنّين أنّك في المدينة الفاضلة؟

– ولأنّنا لسنا في المدينة الفاضلة...

قاطعها ليكمل لها ما يعنيه: – إن كنت لا تخافين، فاعلمي بأنّي قد اكتويت بنار دمّرت حياتي، وأنّني أخشى أمثالي ممّن يحلمون بأفكار الحرّية والمساواة قبل أن أخشى المجتمع وحرّاس الفضيلة.

– لكنّني كما رأيت لست وحدي. نحن كثر. من مختلف الأعمار والمهن، معظمنا من لا يزالون على مقاعد الدراسة، وبيننا المدرّس الجامعي والطبيب والكاتب الصحافي والمحامي. نحن لا نستهدف بأنشطتنا أحدًا، ولسنا مع أحد ضدّ أحد. أنا على يقين بأنّك إن حضرت مرّة واحدة نقاشاتنا فستغيّر رأيك، هو نقاش أقرب إلى ما يدور في بعض المقاهي أو دواوين مضغ القات. وستدرك أنّ المسألة نقاش في نقاش.

انصرفت أروى بعد أن هامسته: – اليوم جئت أدعوك لنحتفل بتخرّجي، وبعد ذلك لك أن تقرّر.

كتب إليها استعدادًا لحضورها القادم: « عزيزتي أروى، عليّ أن أوضح لك بعض جحيم عشته لمجرّد أنّني كنت أتظاهر بميلي للأفكار الماركسية، وأعبّر عن أفكاري لأقرب الناس، مجرّد حكي بريء في لحظات حميمية، أوقعني ذلك في متاعب جمّة ما زلت أعاني منها حتى اليوم. فما بالك إن ضُبطت مناقشًا وسط عدد من الأشخاص لا أعرف أحدًا منهم، انضممت إليهم لمجرّد أنّهم يشهرون تساؤلاتهم الصادمة. أصلًا لا جدوى من الخوض في هذا المجال، وحواري معك مجرّد تقدير وثقة أحملها لك. فأنا لم أعد شغوفًا بمشاركة غيري

لأفكاري. نحن نعيش في مجتمع يُقتل فيه المرء لمجرّد إعلان حبّه لفتاة، أو شتمه للسلطان، أو مخالفته لأحد الفقهاء. مجتمع تعوّد النظرة الأحادية. حتى من تظنّين أنّهم مستنيرون ممّن حولك، أجزم بأنّ بعضهم لا يحملون إلّا القشور متظاهرين بالاستنارة، بينما تسكن أعماقهم أفكارٌ متحجّرة.

لقد هجرت مشاركة الناس لأفكاري منذ سنوات، ولا أستطيع العودة إلى سيرتي الأولى. لكن لا بأس من النقاش معك أنت فقط وهذا وفاء لوعدي لك».

في عودتها التالية، ردّت عليه بعد أن قرأت ما كتب: «لا بأس كما تريد، لكنّي دعوتك لحفل تخرّجي. أنا سعيدة بوداع سنوات عزيزة من عمري، والتخطيط لسنوات جديدة».

نهضت من مقعدها منصرفة، وحين حاذته مدّت إليه بمظروف: – هذه دعوتك. سيكون الحفل يوم السبت المقبل.

– لماذا دعوتي؟

– ألا تودّ مشاركتي فرحتي؟

– آه نعم، لكن بماذا تجيبين إذا ما سألك أحدهم من أكون؟

– هذا أمر يخصّني!

– لكنّه يخصّني أيضًا.

– أنا فخورة بك كصديق وكفى!

– ما دمت فخورة بي، أتمنّى إن سألك أحدهم أن تخبريه بأنّي عمّك.

– دعني أتصوّرك كيفما أريد. ودعهم يفكّروا بما يشاؤون. فلا تستعجل بالأحكام حتى أستضيفك في بيتنا!

– بيتكم؟! وبأيّ صفة تستضيفينني؟! تذكّري أنّك تعيشين في عدن.

– وماذا في الأمر؟

– لا أعرف كيف تفكّرين.

– استضافتك هي رغبة جميع أفراد أسرتي!

– أنت تحيّرينني!

– سآتي إلى المقهى قبيل ظهيرة غد. سيتجمّع بعض زميلاتي وزملائي ممّن دعوتهم معك هنا، ثمّ نذهب معًا لتناول وجبة الغداء.

8

فيما كان يفكّر ليلتها بدعوة أروى للغداء بين أسرتها، قطع تفكيره رؤية رسالة على قائمة الانتظار تصل من البندرية بعد أكثر من شهر لآخر رسالة منها: «الحمد لله. أخيرًا استطاعت الوقوف على قدميّ، بل والخطو متّكئة على مشاية. بعد أسابيع من الاكتئاب الحادّ كادت تحيلني للجنون. نصحني الأطبّاء بعدم التفكير السلبي حتى لا تنتكس حالتي. لكنّهم لا يعرفون أنّي أعيش الوحدة ولا أجد غير التفكير طوال الوقت. فقط أفكّر وأجول بخيالي في ماضٍ أحاول أن أقنع نفسي بأنّه لم يعد يعنيني. لكن لماذا لم تردّ على آخر ما كتبت إليك؟ لقد أسعدتني بسيرك أثناء فرارك إلى عدن عكس طريقي يوم هربت أنا إلى صنعاء، هل قصدت ذلك أم لم تجد طريقًا غيره؟».

ما كان يشغله منذ قراءة رسالتها الأولى هو لمَ تشكو الوحدة؟ وأين ذهبت بتلك الوليدة التي حملتها بين ذراعيها يومًا، قبل ما يقارب خمسة وثلاثين عامًا؟ كيف تكون اليوم؟ متردّدًا كتب إليها تلك الليلة: «سعيد بتماثلك للشفاء. وما يحيّرني ذكرك الدائم في رسائلك لوحدة تعيشينها. ما يدفعني للتساؤل عن حياتك، هل تزوّجت، خلّفت غير تلك الصغيرة التي أتيت بها في آخر لقاء؟ وسألتني عن عدن في رسالتك السابقة، أطمئنك أنّني تصالحت معها أخيرًا. فبعد أن كنت أمنّي نفسي بالوصول إليها، وفي قرارة نفسي أهدف إلى الوصول إليك، فاجأتِني بعدم وجودك. والأكثر دهشة أنّك لم تعودي إليها منذ زرناها معًا قبل أكثر من ثلاثين سنة! وبتلك الصدمات جعلتني أكتشف أنّني عشت حياتي في واقع مليء بالتناقضات. وكأنّنا كبشر نقود أنفسنا في كلّ الأحوال إلى سلسلة من الخيبات. أحاول الآن أن أتصالح مع نفسي ومع

محيطي لأعيش بأمل جديد. وهذه أنتِ، عليك أن تعيشي بأمل جديد. وكما نصحك الأطبّاء، عليك الابتعاد عن التفكير السلبي حتى تتحسّن صحّتك.

فقط ما أتمنّاه منك هو معرفة متى كانت مغادرتك اليمن، وأيّ بلد عشت به. لا لشيء إلّا لأطمئنّ عليك. بليت أعمارنا ونحن نهرول خلف أحلام لا تتحقق، ونسينا خلال ذلك أن نجالس ذواتنا ونتصالح معها، كيف نتخلّص من الرغبة في الهروب المتواصل من أنفسنا؟

أقف وحيدًا في محاولة لاقتناص سعادة ما. الحياة تستحق أن تعاش، دون مزيد من عتب النفس التي تواصل خذلاني. سأصالح نفسي على تعاقب الخيبات. أفتّش بينها عمّا يمنحني ولو بسمة صغيرة».

شعر بشيء من السعادة تغمره تلك الليلة، فرسالتها كانت متوازنة. بدوره حاول أن يكون ردّه مماثلًا، لتصله منها بعد دقائق: «شكرًا لك. ردّك أعاد لي بعض التوازن. وسأبوح لك بحكاية كنت أحتفظ بها لنفسي، لعلّها تجيب عن بعض تساؤلاتك. حكاية فتاة فرّت متنكّرة يومًا من عدن، تحملها أحلام أن تكون طبيبة، في الوقت الذي ظنّت فيه أنّها فرّت من نظام أبرز إنجازاته تعميم الفقر على وطن تظلّله الشعارات الجوفاء، لتصطدم بواقع مجتمع صنعاء الأكثر تحجّرًا، مجتمع ترتهن قياداته لأمراء النفط، يتسوّلون رواتبهم وإعاشة شعبهم يومًا بعد يوم منهم، ليعيشوا حياة الارتهان. بعد اصطدامها بواقع لم تكن تتوقعه، تبخّرت أحلام دراسة الطبّ، لتقودها الأقدار إلى مسارات حياتية لم تكن في حسبانها، حتى أمست عينًا مأمورة تترصّد من يستهدفونهم، يومًا بعد يوم تقودها دوّامة مراقبة الآخرين لتصبح مهنتها، وتنغمس في الوقت ذاته مع كائن مضطرب في علاقة عاطفية. كائن لا يعرف ما يريد، ولا يمتلك من النضج رغم ادّعائه ذلك، وظلّ متذبذبًا بين تلقائية الريفي وتصنّع ابن مدينة بدائية، مع ذلك سعت إلى تغييره، وحلمت بحياة مستقرّة معه، لكنّها تكتشف بعد حين أنّه يرى الارتباط بها منقصة، ليغشاها الخذلان حتى بعد أن أثمر حبّها وليدة. رفضها تاركًا لها أن تواجه مصيرها وحيدة. لم يعطها الفرصة لتشكو إليه ملاحقة أحدهم لها بعد ولادتها، مستغلًّا معرفته لها، إذ ظلّ يساومها أن تسلّم له نفسها، أو أن يقودها ودليل جريمتها بين يديها لتنال عقابها كزانية. لم يعطها فرصة لتخبره بأنّ ذلك الشابّ هو من هزمه ذات ليلة على رقعة الشطرنج. وهو نفس الشابّ الذي سبق أن ساعدها على الهروب من دار الكبير بعد أن حوّلتها

زوجته إلى خادمة، وألحقها بعد ذلك بمعهد «يالي»، وبشّرها باعتماد مرتّب شهري لها. لم يعطها الفرصة لتخبره بأنّ ذلك الشابّ قد تحوّل إلى جلّاد. اكتشفت سبب تحوّله بعد ذهابها لزيارة الكبير ومحاولة الاستنجاد به، لتُفاجأ بأنّه قد مات منذ أشهر، وأنّ رعاية ذلك الشابّ لها ما هي إلّا بإيعاز منه.

لم تجدِ محاولة زميلاتها الأوروبيات حمايتها، ففضّلت مراوغته في الوقت الذي ظلّت فيه تبحث عن الخلاص منه، لتزيد ضراوة مضايقته لها، معتمدًا على مركزه في جهاز أمني. رافقتها إحدى زميلاتها إلى طبيب فرنسي يعمل في إحدى المنظمات الإنسانية. كانت قد حدّثته عمّا تتعرّض له البندرية ورضيعتها من تهديد، ليرحّب بها، مفسحًا لها ولصغيرتها سكنًا ضمن مركز منظّمتهم، التي تُعنى برعاية الطفولة والأمومة. سألها جيرار عن رؤيتها لما يكون الحلّ، فتمنّت عليه تهريب صغيرتها خارج اليمن، وتركها هي تواجه مصيرها. ابتسم:

– هناك حلّ آمن لحمايتك وحماية صغيرتك.

– أيّ حلّ؟!

صارحها برغبته في الزواج بها، وتوثيق الوليدة ابنةً له، ولأجل ذلك أعلن إسلامه على يد شيخ دين، ليصبح «يونس». تزوّجا فعلًا. لكنّ الأمر لم يتوقّف عند إسلامه، إذ طلبت الفتاة بعد أيّام أن تُعمّد ويُعقد زواجها من جديد على الطريقة المسيحية، وباسم جديد «Adel».

منذ صغرها، لم تكن تلك الفتاة تتقن أيّ شعائر لأيّ دين، لكنّ قلبها كان ممتلئًا حبًّا وتسامحًا لمن حولها، ولم يشعرها دينها الجديد بأيّ تغيّر، إلّا بقدر حبّ من حولها لها ولصغيرتها. منحها محيطها الجديد الشعور بالأمان، ومن ذلك اليوم تشاركهم صلواتهم، وتؤمن بربّ واحد هو إله جميع الكائنات، وأنّ البشر إخوة.

وأجيبكم عن سؤالكم، بأنّ تلك الفتاة قد غادرت اليمن بعد زيارتها لك ورفضك لها بثلاثة أشهر. تضمّ صغيرتها إلى صدرها، مرافقة زوجها جيرار إلى فرنسا. ومنذ أكثر من خمس وثلاثين سنة لم تعد. لكنّها ظلّت تحنّ إلى بلاد رفضتها، باحثة عن وسيلة تواصل بها».

7

قبيل ظهيرة اليوم التالي أطلّ وجه البورسلان في موعده، محاطًا بمنديله البنفسجي، تضيئه ابتسامة متوهّجة. سألته هامسة: «هل وصل الزملاء؟».

هزّ رأسه بالإيجاب، مشيرًا إلى عمق المقهى. لم يمضِ وقت على جلوسها حتى وصلته منها: «شكرًا لأنّك قبلت دعوتي اليوم لتناول الغداء. وشكرًا لأنّك ستشاركنا غدًا حفل التخرّج.

أنا لا أحبّذ تصنيف من أحادثه بتلك التصنيفات الاجتماعية، ولا أعرف سبب ترديدك للأبوّة. وكما أسلفت لك، أرى بعض من في العشرينات يحملون عقولًا شاخت قبل أوانها، كما أستمع إلى ثرثرة من يُحسبون على المثقفين وكذلك بعض أساتذة الجامعات، فأُصدم لسطحيتهم، يلوكون أفكارًا استُهلكت منذ قرون، وأحسبهم جثثًا متحرّكة.

بعد وقت ستكون وسط أفراد أسرتي. ومن الواجب أن أعطيك فكرة عنهم، أو على الأقلّ بعض عمومياتها. نحن ثلاثة أفراد، أنا ووالدتي وأخي الذي يصغرني بعامين، نسكن منزلًا بناه البريطانيون ضمن منازل أخرى لموظفيهم قبل الجلاء. فقد وزّعت الجبهة القومية بعد تسلّمها عدن تلك المنازل والشقق على كوادرها الذين كان والدي من بينهم. السكن مزدوج، نتشاركه من الجهة الأخرى مع أسرة يافعية. لنا حديقة صغيرة تعتني بها والدتي، ستدهشك أزهارها وتشكيلات شجيراتها عندما تراها. أمّي ذات أصول هندية، من مواليد عدن، كانت موظّفة في الإذاعة. والدي من حوطة لحج، استُشهد في حرب صيف 94، بعدها تفرّغت أمّي لتربيتنا وتعليمنا حتى زوّجت شقيقتي، وسافر أخي الذي يكبرني لإكمال دراسته خارج اليمن، فبقيت وأخي الأصغر إلى جوارها. لم أكن وقتها أعي ما يدور إلّا أنّني في النهاية ابنة شهيد.

نجحت أمّي في تأسيس علاقة صداقة معنا. نحدّثها بما نعيشه خارج البيت، وتشركنا في ذلك. حدّثتها عنك وعن إعجابي بأفكارك. في بداية الأمر لم تستوعب أن أُعجب بأفكار هارب من صنعاء يزيد عمره عن عمر أبي، لكنّها في النهاية باركت ذلك، لتسألني عنك وعمّا يشغلك كلّما عدت إليها.

لن أطيل. في نهاية الأمر هي من اقترحت عليَّ استضافتك. ولعلمك أمّي أصغر منك، نشيطة وجميلة! وهي سعيدة بأن تكون ضيفها اليوم».

أعاد قراءة ما كتبت باحثًا عمّا يدور في عقل تلك الفتاة، وتلك الكلمات التي ذكرت فيها أمّها وكأنّها ترمي إلى شيء ما.

شكرها، لتردّ: «يهمّني أن لا تتخلّف عن حضور حفل التخرّج. وأذكّرك من الآن بأنّه يبدأ في العاشرة. وبناءً على ذلك، أتمنّى حضوركم في التاسعة. سأكون في انتظارك أنا وأمّي وأخي لنطوف كما وعدتك في أركان كلّيتي».

«سيكون يومًا جميلًا، ألف مبروك مقدّمًا».

في تلك اللحظة دخل عدد من الشبّان، لتصله رسالة منها:

«ممنونة. ها قد حضر بقيّة الزملاء. هيّا استعدّ لأعرّفك إليهم، ثمّ نذهب معًا».

التفت يبحث عن مساعده. أشار عليه بأن يحلّ محلّه حتى عودته: «لن أتأخّر، هي ساعتان».

ثمّ جلس ينتظرها مشغولًا بتصوّر أفراد أسرتها، وما ستكون الأحاديث أثناء تناولهم وجبة الغداء، ثمّ يتخيّل حفل الغد. لا يعلم لمَ يشعر ببعض الرهاب. فكّر بهندام يليق بحفل جامعي، واختيار الهديّة المناسبة لوجه البورسلان.

قطع سرحانه اقترابها منه وقد نهض جمع من الروّاد. نقّل ناظريه بين وجوههم، يطيل النظر في وجهها. لم يكن يعلم بأنّها آخر نظرة، يلتفت نحو صوت درّاجة نارية أمام باب المقهى مباشرة، عليها اثنان، ترجّل أحدهما عنها ودخل المقهى. كان يرتدي معطفًا فضفاضًا رغم حرارة الظهيرة اللاهبة. بخطوات سريعة كان بينهم. ظنّ شنّوق أنّه دخل ليسأل عن شخص ما، حيث ظلّ محرّك الدرّاجة في الخارج يقرقر وعليها سائقها. لكنّه ظلّ ينقّل ناظريه في وجوههم بنظرات جامدة. ودون أن يسأل ركّز عينيه على وجه البورسلان، التي قطّبت ما بين حاجبيها بعدما التقت عيناها بعينيه. فجأة ارتفع صوتها: «اهربووووا!» وهي تحاول الانسحاب نحو الداخل، لكنّ صوت مرتدي المعطف

كان أسرع منها حين هتف: «الله أكبر، ولله الحمد»، مصوّبًا نحوها بندقيةً رشّاشة استلّها من بين أرديته، لترتفع في ظرف ثوانٍ قعقعة رصاص مباغت ردّدت الجدران صداها. سقط وجه أروى أرضًا، وتراجع المُكبِّر نحو الخارج وهو لا يزال يطلق رصاصه باتّجاه الداخل. اختلطت الصرخات بقعقعة الرصاص. عمّت المكان رائحة البارود وسحب الدخان. سقط عدد من الروّاد أرضًا وبينهم شنّوق بعدما اخترقت جسده رصاصة، بينما امتطى ذو المعطف الدرّاجة بخفّة بهلوان، لينطلق سائقها وكأن لا علاقة لهما.

صراخ اختلط بسعال ونحيب يتعالى. تتحرّك وجوه أشباح جثمت تحت الطاولات وبينها، بينما تجمّع أناس خارج المقهى، غطّت بلورات زجاج متناثرة الرصيف، خرج بعض الروّاد بحدقات وأفواه متربة، عدد منهم يزحفون أرضًا مخلّفين خيوط دم قانٍ، وآخرون يخطون على غير هدى.

هرع باعامر يحيط به موظّفو الفندق، يسأل عمّا حصل. بادر البعض بالدخول لمساعدة من بقي وسط غبار المقهى، ليتّضح أنّ من أصابتهم الرصاصات خمسة، شابّتان وثلاثة ذكور، بالإضافة إلى شنّوق. سريعًا ما حُمل الجميع على سيّارة مكشوفة وسط أنين نازف. لم يفق شنّوق إلّا بعد أن رتقوا جراح كتفه. كان لا يزال يسمع دويّ رصاص يصمّ أذنيه، ويشعر ببرودة تلثم أطرافه. خدّرته رائحة المطهّرات. رويدًا رويدًا استعاد بعض وعيه. أول ما رآه قاعة واسعة كلّ ما فيها أبيض. كان سريره بين أسرّة كثيرة، أشباح تقف وأخرى تسير. يحاول تذكّر ما حدث. عرف أنّه لم يمت. أغمض عينيه لشعوره بدوار مؤلم.

بعد حين ميّز وجه باعامر ذا العينين الهادئتين والرقبة الممتلئة، جالسًا بمحاذاة سريره، بينما وقف وجه آخر ببزّة عسكرية:

– ألف حمد لله على السلامة.

ابتسم في محاولة للردّ، وقد سارعت دموع عينيه بالتعبير:

– الله يسلّمك.

بادر صاحب البزّة بنثر أسئلته. حاول باعامر مساعدته على نطق بعض الكلمات للإجابة، بينما واصل صاحب البزّة: «هل لك معرفة بالمهاجمين؟ هل بينك وبين أحد مشاكل؟ ماذا باعتقادك كان دافع القتلة وهل.. وهل..؟».

سأله باعامر بعد مغادرة العسكري عمّا حصل. حدّثه بأنّ الأمر كان مفاجأة صادمة، ثمّ سأله عن عدد المصابين. أخبره باعامر بأنّهم خمسة، ثلاثة فارقوا الحياة، وشخصان آخران لا يزالان في غرفة العناية الفائقة.

سأله من يكونون، أسماؤهم. أحسّ بالصمم وهو يسمع باسمها ضمن من ماتوا. كرّر عليه: أتقصد أنّ أروى عبد النبي قد تُوفّيت؟ هزّ باعامر رأسه بإشارة الإيجاب. ظنّ شنّوق أنّ ما يسمعه تهيّؤات، أو أنّ كابوسًا دهمه. للحظات تخلّلت جسده حمّى باردة جعلته ينتفض بشدّة، وغشيته حالة هذيان. سارع مشرف العنبر بِحَقنِه ليعود من جديد إلى سكونه طوال تلك الليلة. مع اقتراب الفجر، أفاق ليجد باعامر لا يزال إلى جواره بوجهه البشوش. كرّر سؤاله عن أروى:

– هل هي بخير؟

– أخبرتك بأنّها قد تُوفّيت.

ثمّ أخبره:

يتردّد أنّ جماعة سلفية أعلنت تبنّيها للهجوم. وقد ذُكر ذلك في بيان لها ردّدته وسائل الإعلام ليلة البارحة، تدعو فيه من بقي من مروّجي الإلحاد إلى الاستتابة والعودة إلى طريق الله، مهدّدة بملاحقة من يصمّمون على المضيّ في غيّهم، متوعّدة من يشاركون في تشييع القتلى إلى مقابر المسلمين بالعقاب، معاهدة الله على نصرة دينه وسنّة نبيّه في كلّ مكان.

جثم صمت ثقيل، حتى إنّ مهامسة من على الأسرّة الأخرى كانت تُسمع بوضوح. أحسّ باعامر باضطراب شنّوق. اقترب منه ناظرًا في عينيه:

– احمد الله على ما قدّر. كُن مؤمنًا. واعلم بأنّ حياة جديدة قد كُتبت لك.

– لم تعد تهمّني الحياة.

لم يعلّق باعامر. ظلّ يتأمّل وجه شنّوق الكبير، مدركًا مشاعر الإحباط واليأس التي تلاحقه.

6

ظلّ لأيّام طريح الفراش في إحدى غرف الفندق، يطلّ فقط من نافذته ليتابع حركة شارع كوفي أوسان المغلق. عابرون في كلّ اتّجاه. يشعر بتلاشي ألفة المكان. خوف يعبث بروحه. يتوقع أن يفتح أحدهم بابه، قاتل محتمل، متسائلًا: هل عليَّ البقاء في هذا المكان لأُقتل كلّ لحظة، أم أرحل من هذا الحيّ باحثًا عن الأمان؟ مرّت أيّام وقد استعاد عافيته، وتملّكته رغبة في مغادرة الشيخ عثمان، بحثًا عن الأمان في أحياء أخرى. شرح لباعامر مخاوفه ورغبته في الرحيل. لم يناقشه في ما نوى، بل استحسن الأمر، باسطًا أمامه سجلًّا طويلًا، مازًّا بسبّابته على جداول طولية، شارحًا له أرقامًا وتواريخ، ليفضي إليه هامسًا:

– بعد حسم ما كنت تسلّمه، بقي لكم هذا المبلغ. ومدّ بعدّة رزم من فئة الألف ريال.

– لكنّها غلطتي يوم سمحت لهم بعقد لقاءاتهم في المقهى.

– لا عليك، انتهى كلّ شيء الآن.

لم تشرق الشمس بعد. سار من أمام باب «أوسان نت» المغلق. عتمة تغرق الشارع. المكان يتنفّس كروح تتمدّد حوله. أشاح بوجهه ومضى مبتعدًا واستقلّ أول سيارة أجرة.

– كريتر لو سمحت.

ردّ عليه السائق:

– أين في كريتر؟

– الميدان.

قصد الفندق الذي حلّ فيه يوم رافق البندرية إلى عدن عام 1986. لا يزال الميدان كما كان، لم يتغيّر شيء غير زيادة أكوام الزبالة وقطع خردة العربات

في الزوايا واهتراء أرضية الإسفلت. انزوى في غرفة استأجرها تطلّ نافذتها على الميدان، يقلّب في ما عليه فعله. فضّل عدم الخروج لأيّام. مساء اليوم الرابع خرج إلى أول محلّ نت. وجد مجموعة رسائل تنتظره، إحداها من أروى! صمت في حيرة. قدّر أنّها كُتبت قبل مقتلها، لكنّه لاحظ أنّ تاريخها حديث. ركضت الدماء في أوردته. تمنّى أن يكون ما بحدسه حقيقة. ضغط لفتحها، بدأ بقراءتها بخوف ووجل: «أنا والدة أروى. كثيرًا ما حدّثتني عنك، وعن حنانك وحرصك عليها. رحمها الله، وعظّم أجرك وصبّرك على رحيلها. وعظّم الله أجرنا أيضًا، وألف سلامة لك. بالنسبة إليّ، ابنتي لم ترحل. وستظلّ. كتبت إليك لأعزّيك، وكي أخبرك بأنّ أروى دُفنت فجر اليوم التالي لاستشهادها، في مقبرة العيدروس».

توقّف عن قراءة الرسالة عند كلمة العيدروس. كان لتلك الكلمة وقع السحر عليه. اشتعلت ذاكرته، ليأتيه صوت أمّه من ماضي طفولته المبكرة وهو بين يديها، تحدّثه عن أخته ليقة، ورحلتها بها برفقه والده لعلاجها في عدن قبل أكثر من خمسين سنة. يتذكّر صوتها تحكي عن أخته التي تكبره بسنوات، عن ورم بدأ صغيرًا ثمّ أخذ ينمو في مقدّمة رقبتها. لم تشفها قراءة الفقهاء، ولا الكيّ بالنار أو وصفات نساء يدّعين المعرفة. حكت: «كنّا نسمع من العائدين من عدن عن حكمائها، وعن أنّ ابنتنا إذا ما ذهبنا بها للعلاج فستعود من هناك معافاة. ألححت على والدك. كنت أظنّ أنّ عدن خلف الجبال قريبة. لكنّنا سافرنا بها ليالي وأيّامًا طوالًا، تارة أحمل ليقة على ظهري، وأخرى نركب على ظهور البهائم.

وذات صباح أخبرنا الطبيب الهندي: «بابا. مرضها لا علاج له». عرفنا بعد أيّام أنّهم سهّلوا موتها. ثمّ سألونا: «أين ترغبان في دفنها؟». تمنّيت لو أنّني حملتها عائدة، لكنّ والدك قال: «مقبرة وليّ الله العيدروس أولى بها». ذهبت بنا سيارة المستشفى حتى مسجد العيدروس، صلّى عليها وأنا أنتظره خارج المسجد، ثمّ تعاونت وإيّاه على دفنها بين صفوف كثيرة من الشواهد البيضاء. لنعود بعد ذلك بدونها. كان ذلك في أواخر عهد الإنجليز».

حكت له أنّ رحلة العودة كانت أشقّ عليها من ذهابهما بها، ليلحظ رموش عينيها وقد بللّتها الدموع، ويسمع صوتها تهدّج : «كنت أبحث عنها بين أحضاني وأنا بين النوم والصحو فلا أجدها».

ولسنوات ظلّت عدن تسكن أمّه، المنبهرة بناسها وبحرها، سياراتها الكثيرة، أسواقها، بواخرها، بخورها ونسائها. يتذكّرها تحكي: «لكنّ والدك زار عدن مرّة أخرى بعد بضع سنين من رحيل الإنجليز. وحين عاد إليّ انتظرت أن يحدّثني عن ليقة، عن قبرها. لكنّه كان يحدّثني عن الوحدة ونضال الشعب والحزب الاشتراكي. عرفت يومها أنّ زوجي لم يعد الفلّاح البسيط وهو يحدّثني عن أفكار لا أفهمها، لتتكرّر زياراته بعد ذلك. كان ما إن يعود حتى يغادرني لأيّام طويلة دون أن يخبرني إلى أين يذهب، أو ماذا يصنع بأيّامه. لكنّني كانت أسمع همس بعض سكّان القرية ينعتونه بالشيوعي، وأنّه مع الجبهة الوطنية».

كانت تحكي أيضًا عن حزنها وفقدها لزوجها بعد أن قتله رجال الرئيس صالح، وكيف أنكرت عندما سئلت إن كان ترك لديها أموالًا أو سجلّات. بعد مماته رفضت الزواج بغيره حتى لحقت به.

العيدروس أشعلت فيه الكثير من الذكريات والخيالات، فوعد نفسه بالذهاب إلى تلك المقبرة، والبحث عن ليقة وأروى.

عاد إلى الرسالة: «... القتلة هدّدوا في بيان لهم بقتل من يشارك في دفنها، محرّمين دفنها في مقابر المسلمين، لذلك فضّلنا دفنها سرًّا، ومع أذان الفجر كنّا قد أكملنا مواراة التراب عليها. إن أردت زيارتها فتربتها ستجدها مجاورة لجدار السور الملاصق للمسجد. ستستدلّ عليها بتربتها الطريّة. لا تخبر أحدًا. كان الله في عونك».

للحظات شعر بأنّ ما حوله يدور به. فكّر أن يردّ عليها، ثمّ فضّل أن يكتب الردّ، لكن ليس لأمّها، بل لوجه البورسلان، في محاولة لاستعادة توازنه: «ابنتي العزيزة. لا تعرفين كم كان وجودك القصير مؤثّرًا في حياتي. كنتِ ومضة بهاء لا تُعوَّض. بعد رحيلك لم يعد يتقبّلني المكان الذي كنت تتردّدين عليه ولم أعد أنا أتقبّل وجودي فيه. ففضّلت الرحيل عن ذلك الحيّ كلّه. الليلة أجلس مستعيدًا رسائلك، متشوّقًا لقراءة أفكارك المتلاحقة، بعدما أفهمتني ألّا أنظر إلى أعمار من نحاورهم أو دياناتهم أو جنسياتهم، بل ننظر إلى ما تحمله عقولهم، لأدرك كم كنتِ أنت أشجع منّا جميعًا. لقد مضيتِ بأفكارك إلى نهاية الطريق، بينما كنت أنا أقف حائرًا أمام ما تتفوّهين به، متسائلًا: من أين لفتاة في عمر الورد كلّ ذلك القدر من الإرادة والشجاعة وذلك الصبر على النقاش والنقاش المضادّ؟

ابنتي العزيزة، اسمحي لي بأن أصفك بهذه الصفة رغم رفضك لها ولكلّ الصفات، إلّا أنّني أُسرّ وأنا أنطقها، بالفعل لم ترحلي أبدًا، فوميض كلماتك باقٍ في الأعماق. أعدك بزيارة مرقدك، ومحاورتك كما كنت تحبّين».

سكن بعض الوقت وقد فاضت عيناه، ثمّ عاوده الحنين إلى مناجاتها: «ابنتي العزيزة، لقد أخطأ القاتل تصويبه نحوك، وكان الأجدى أن يوجّه بندقيته نحوي. لا أعرف أهي البندقية من خذلته، أم فرغ مخزون الرصاص، أم هو بخيل؟ لمَ اكتفى بإصابة كتفي. ليته كان كريمًا، لكنت برفقتك الآن. لكنّنا سنلتقي يومًا، وأعدك بأن أناقشك ما شئت حين نفعل. سنتحاور هناك بعيدًا عن رعبهم ومسلّماتهم ومطلقهم وثوابتهم...».

5

خرج يسير بحذر قبيل انتصاف النهار، يسأل عن اتّجاه مسجد وليّ الله العيدروس. سار حتى قارب جبالًا تحتضن المدينة. مسجد أبيض بمنارة سامقة وقبّة خضراء تتّكئ على سفح جبل أسود. ينام على درجاته عجائز ومتسوّلون. دخل أطراف قبور هرمة، مبعثرة، أكثرها اندثر ولم يعد منها إلّا فتات أحجار رطبة، أخذ يبحث بين شواهد متشابهة في قدمها. لم يجد ليقة. ذهب متذكّرًا وصف والدة وجه البورسلان، محاذيًا جدار السور الملاصق للمسجد. نفايات هنا وهناك، خفق قلبه لرؤية كومة تراب طريّة. اقترب من القبر لكنّه وجده فاغرًا تجاوره كومة رماد وبقايا عظام محترقة. تمنّى ألّا تكون تلك عظامها، غاب عمّا حوله ولم يعد يسمع أو يرى شيئًا غير رؤية ابتسامتها الأخيرة. أجهش بالبكاء لوقت لا يعرف مقداره ثمّ أخذ يعيد بأصابع مرتجفة كومة الرماد وبقايا العظام إلى الحفرة. قاوم حتى أعاد كلّ شيء. تملّكته رعشة خوف وهو ينهض. خطا مبتعدًا. لم تكن تتابعه غير أشباح شواهد نخرتها الرطوبة في صمت مريب. فرّ مرعوبًا نحو أزقّة مجاورة بعيدًا، ومنها عبر سوق الطويلة إلى الميدان.

لم يهنأ بنوم تلك الليلة، بعد توالي دويّ انفجارات تهزّ المبنى. خرج من غرفته على استحياء ليجد عددًا من النزلاء وقد تجمّعوا في صالة الاستقبال متسائلين عمّا يدور. ثمّ صمت الجميع يتابعون مذيعة على شاشة معلّقة تعرض تقريرًا إخباريًا عن انفجار الوضع بين ميليشيات «الحراك الجنوبي» وقوّات الحماية الرئاسية الشرعية بعدن.

في الأيّام اللاحقة اتّسعت رقعة المواجهات بين دعاة الدولة الجنوبية وقوّات الشرعية، تردّدت شائعات بأنّهم يلاحقون من يجدون من الشماليين،

باعة وزائرين ومقيمين. عكف في غرفته لا يخرج إلّا إلى أحد مقاهي النت القريبة. كتب للبندرية شاكيًا: «تعيش عدن هذه الأيّام دورة عنف مفاجئة. لا أحد يعرف إلى أين تمضي بهذه المدينة التي ظننت أنّها في منأى عن الخراب.

رسالتك الأخيرة جعلتني أستوعب أخيرًا مغادرتك لليمن. تموت أشياء فينا ولا ندرك إلّا بعد فوات الأوان. عليَّ أن أعتذر لك بقيّة أيّام حياتي. لقد كشفت لي كم كنت تائهًا عنك. مغادرتك منذ ثلاثة عقود... عمر جيل بأكمله. لا أعلم لمَ ظللت على يقين بأنّك بعد غيابك عن صنعاء عدت إلى عدن، لكونها موطن الأهل وسنوات الصبا. عدن التي ظننتها تقبّلتني في غيابك، لأجدها اللحظة ذات مخالب لا ترحم. وأمسى الجميع يرضعون الكراهية مثلها مثل صنعاء، ينامون ويصحون ليعاودوا ضرب طبول الحرب. فلا شارع إلّا قطعته متارس المسلّحين، ولا عابر إلّا يحمل سلاحًا، ولا حديث بين اثنين إلّا يدور حول الموت. تترعرع المناطقية تحت ظلال شعارات دينية ووطنية جوفاء، لتضمحلّ قيم المدينة الإنسانية.

لا أعلم ما يبقيني في مدينة أنا مُلاحَق فيها، فالكلّ يتربّص بالكلّ، وكلّ الجهات سُدّت أمام العابرين. لكنّي لا أعلم إلى أين أتّجه وكلّ الجهات سواء».

ضغط زرّ الإرسال، وهو غير راضٍ عن لغته المضطربة، لقد انعكس ما يعيشه من خوف على تفكيره ونفسيته، ليتحوّل إلى متذمّر شكّاك، وهو الذي يكره المتذمّرين، يخشى كلّ من يصادفهم.

حمد لنفسه قدرته على التحمّل، وهو الملاحق من مدينة إلى أخرى، حتى عدن بعدما ظنّ أنّه تصالح معها، يكتشف النقيض، ليعيش لعنة ابتعاده عن غزال. إهماله لأسرته. دم أروى. البندرية. يقول مشجّعًا نفسه: عليّ التجلّد. حتمًا سيتغيّر كلّ شيء، وتقبلني صنعاء وعدن. حتمًا هناك مخرج.

في أول تسلّله إلى مقهى مجاور وجد رسالة تنتظره: «كلماتك أقلقتني، أم أنت تتعمّد إغلاق أبواب الأمل؟ أتابع أخبار المواجهات، لم يعد أيّ حيّ في منأى عن اشتباكاتهم. أرجوك إن كان وجودك في عدن خطرًا عليك غادرها.

أشعر بك، وبقسوة الواقع الذي تعيشه، لكن لماذا رسالتك حملت سلسلة ألغاز، وعودتك للخوف من الناس، وأنت الرجل البسيط، تجعلني أظنّك مريضًا برهاب العسس.

عليك أن تعرف أنّ من يتقاتلون مأجورون لمن يدفع أكثر، وما الشعارات الوطنية والدينية التي يرفعونها إلّا أكاذيب يستغلّون بها السذّج من العوامّ.

يقلقني أن تكون فررت من رعب صنعاء لتقع في جحيم عدن. أرجو أن تحدّثني عمّا نويت فعله، فقد أشعرتني كلماتك بأنّك تخبّئ الكثير».

كتب ردّه على الفور: «الله كم يخفّف قلقك خوفي. أصدقك القول إنّني أعيش في حالة نفسية صعبة. أحدّثك بصدق لأنّ كلماتك لامست قلقي. أعيش مطاردًا بعدما تركت عملي وسكني في الشيخ عثمان، بعدما أمسيت مستهدفًا من جماعة متطرّفة. وانتقلت للسكن في غرفة بفندق أظنّك تتذكّرينه، في ميدان كريتر، القريب من شارع أروى.

أخبرك أنّ تلك العاطفة التي جمعتنا يومًا لم تأتِ من فراغ. فلي أخت اسمها ليقة تُوفّيت ودُفنت في عدن، وبالذات في كريتر مقبرة وليّ الله العيدروس. ذلك كان في أواخر ستينيات القرن الماضي. وأجزم بأنّ روحها ظلّت تحلّق هنا وقد تكون لها علاقة بروحك. وإلّا لما تشابكت تلك العلاقة إلى اليوم بيننا. تذكّرت قبل يومين ما كانت تحكيه لي أمّي عن ابنتها. وذهبت أبحث عنها، لكنّي لم أستدلّ على قبرها.

ثمّ أخبرك عن زيارة أبي لعدن يحمل ابنتها في الماضي لعلاجها فيها، لتبدأ حكايته مع المدينة. فالذي غادر القرية تسبق اسمه صفة «الحاج» عاد بعد عدّة زيارات لعدن بصفة «رفيق». فبعد الاستقلال، زارها عدّة مرّات انضمّ خلالها إلى الحزب الاشتراكي، ثمّ صار ناشطًا في صفوف الجبهة الوطنية، ليرتقي دورة بعد أخرى حتى أصبح مسؤول إمداد المنطقة التي تقع قريتنا في نطاقها. وشهرًا بعد آخر تزايد أعداد المنضوين إلى صفوف الجبهة، واتّسع نطاق تأثيرها، وانتشار الوعي الثوري الوحدوي بين أوساط المجتمع الذي أقلق سلطات صنعاء، لتبدأ الملاحقات، في محاولة للوصول إلى تكوينات الخلايا والجماعات القاعدية للجبهة في المنطقة، وأمسى والدي هدفًا لعيون الرئيس صالح، إلّا أنّه ظلّ لسنوات يتخفّى ولم يصلوا إليه، وفي إحدى المهمّات سقط قتيلًا أثناء عودته وعددًا من رفاقه من عدن.

ظلّت العيون بعد ذلك تجدّ البحث، ظنّوا أنّ والدي أورثني ثروة وترك لديّ كشوفات بأسماء أعضاء منطقتنا، لكنّ ما أورثني إيّاه في الحقيقة كان الرعب والملاحقات، لأعاني الكثير حتى اليوم. ولذلك، يظنّ من يقترب منّي أنّي

مأزوم بطبيعتي، ولا يعرفون أنّني ابن المعاناة. في الحقيقة، أنا أعيش لأدفع فاتورة غيري.

أعتب عليكِ، فحتى الآن لم تبوحي لي عن تلك المولودة، ولم تتحدّثي عن زوجك، وكيف تعيشين معه؟ هل تواءمت روحك مع بيئتك الجديدة؟ هل أصبح لك أولاد إضافة إلى تلك الصغيرة؟ وكيف قضيتِ السنوات بعيدًا؟ ولماذا تعيشين وحيدة؟».

لم تترك له أن يغادر المقهى، حين ردّت عليه سريعًا: «بالفعل، أنا أعيش وحيدة، ولذلك أرى الخطر يحيق بك، وأوجّه إليك الدعوة، وجودك هنا سيملأ عليَّ حياتي، وستكون في أمان. انسَ عتاب رسائلي، نزقي، حمقي، وسأكون لطيفة جدًا معك منذ الآن.

كنت مهذّبًا وأنت تسأل عن جيرار، لكنّك أخفيت ما تودّ قوله عن علاقتي به، وأنا النائحة على حبّ ضاع، الساعية لاسترداده. لا بأس إن حكيت لك عنه وعن سنوات حياتي البعيدة. فبعد إنقاذه لي بالزواج ومغادرتنا معًا اليمن، عشت سنوات من الاستقرار النفسي، رُزقنا بولد وبنت إضافة إلى ابنتي، لم يكن ما بيننا علاقة حبّ كما تتصوّر. جيرار يفرض الاحترام على من حوله بتسامحه الراقي والإحساس بمن حوله. هو أقرب إلى المتصوّفة في طريقة حياته. صبور ولا يفرض نمط حياته أو ذوقه أو أفكاره على أحد. وكأنّه كان يقدّر المكبوت فيّ. لم يسألني يومًا عمّن يكون والد من تبنّاها، ولا عن ماضٍ عشته. لا أخفي عليك أنّني حاولت أن أحبّه، لأكتشف بعد رحيله أنّني كنت أحبّه، حبّ لا يشابه ما بيننا. كنت أغبطه حين كان ينشغل، يجد نفسه في العمل الطوعي، ولذلك كان في سفر دائم من دولة إلى أخرى ومن مدينة إلى ثانية، ضمن أعمال إنسانية تغطّيها المنظمة التي يعمل بها. يطير من قارّة إلى قارّة، ودومًا كنت أخشى عليه من سقوط طائرته لكثرة تنقلاته. وبحمد الله كان يعود سالمًا، إلّا أنّه لم يعد من رحلته إلى كينيا، حيث قُتل وعددًا من زملاء العمل، في حريق هائل شبّ في مخازن المنظمة التي يعمل فيها هناك.

حسب رغبة والدته، جلبوا قارورة بها رماد قيل إنّه رماده، وأقمنا حفلًا لنثرها بين أشجار حديقتنا الصغيرة، كي تذكّرنا أغصانها وزهورها بأنّه يعيش معنا. شبّ أولادي واستقلّ كلّ منهم بحيواتهم المختلفة، لأعيش أنا وحيدة على الذكرى.

لم يندمل الجرح الذي خلّفه رحيل جيرار فيّ، لأكتشف أخيرًا أنّني أحببته، وما ضاعف حزني أنّ خبر موت والدي وصل بعده بفترة قصيرة. ذلك الرجل الذي كان دومًا فخورًا بي، والذي لطالما ردّد: «هذه ابنتي التي ترفع رأسي دومًا بتفوّقها وأفعالها».

لا أعرف لماذا كنت دومًا أظنّه لن يموت. أمنّي نفسي بدعوته ليعيش معي بقيّة حياته. أبي الذي وعيت على الدنيا أراه يخرج فجرًا باتّجاه دكة معلا حيث يعمل مع رفاق له كثر على إفراغ المراكب من حمولتها ولا يعود إلّا قرب المغيب. كان يعرفه الجميع بـ«الزيدي». ولذلك أطلقوا على أسرتنا اسم «بيت الزيدي».

وكما ذكرت لك، كان دومًا ما يردّد الكلام الذي يسعدني. أنت لا تعرف ذلك الإنسان العطوف المطواع، أشعر برحيله بأنّ جزءًا منّي قد رحل، دون أن يمنحني فرصة ردّ بعض أفضاله عليّ.

ثمّ بعد سنوات لحقت به أمّي، وكم أحزنني أن تموت وهي في كامل صحّتها، إذ أخبروني بأنّها ماتت موتًا مفاجئًا، بينما حدّثني قلبي بأنّ موتها وراءه ما وراءه. ماتا من دون أن يعرفا ملابسات رحيلي من اليمن، وأنّه لم يكن بإرادتي. واليوم أنا بعيدة حتى عن نفسي.

أكتب إليك باحثة عن بعض منّي، وسلواي أنّك باقٍ وقد عدت للتواصل معي، لأعرف أنّك تمرّ بظروف في غاية الخطورة. واللحظة أيضًا أسأل نفسي: هل رسائلنا تمنحنا بعض الأمان، أم نحن نبذر أوهامًا لنحصدها مرارة؟

لقد تغيّرت حاجاتي، فلم تعد تشغلني شهواتي، بل رغبة روحية، يهفو قلبي إلى التآلف، وحنين لنعيش اللحظة بعيدًا عن اجترار الماضي. ذلك الماضي حين أجترّه يحيلني للجنون.

حين نلتقي، سأريك كيف أنّك كنت تعيش معي كلّ هذه السنين. فقد احتفظت بكلّ ما يتعلق بك. رسائلك القديمة، وتلك الجديدة التي بعثتها منذ تواصلنا عبر النت. أنسخها على ورق مزخرف، ثمّ أرتّبها في ملفّات، جاعلةً لكلّ رسالة رقمًا وتاريخًا متسلسلًا، حسب ورودها منك. ولتعرف برنامجي اليومي، أصحو لأزور الحمّام. ثمّ أتناولي فطوري، أذهب للنت، ثمّ أعدّ فنجان قهوتي من البنّ اليمني، وأتوكّأ حاملةً فنجاني إلى الشرفة، أجلس خلف طاولة لأقلّب تلك الرسائل، أقرأ ورقة بعد أخرى على مهل، أرتشف رشفة، أتخيّلك

أمامي، وأعود مخاطبة إيّاك عبرها. لو يسمعني أحدهم لاعتبر أنّي جُننت فوق جنوني. أسألك عن بعض جُمل رسائلك، وعمّن يكتبها. هل هو ابن الحاج، أم أنت؟ أسألك: ما الجدوى من التجمّل ببعض الكلمات المنمّقة وقد عرفنا بعضنا بدون حجاب، وعشنا كما تعيش كائنات البراري دون سواتر؟

اليوم أنا وحيدة بعد أن تركني أولادي ولم أعد أرى أحدًا منهم. يكتفون بمهاتفتي بين وقت وآخر. يأتون جميعًا في مناسبات متباعدة ليمتلئ البيت بصغارهم. يلحّون في كلّ مرّة على نقلي إلى إحدى دور الرعاية الاجتماعية، لعلّي أجد صحبة جديدة تؤنسني كما يقولون، لكنّي أصرّ على بيتي ووحدتي. لا أتذمّر أمامهم كما أفعل في رسائلي إليك، بل أحاول أن أبدو متماسكة حتى لا يذهبوا بي عنوة.

أنا دائمًا في انتظارك. في انتظار أن أراك وأضمّك. قد تكون ضمّة حبيبين، وقد تكون ضمّة غريبين، لكنّي متمسّكة بحلمي أن نعود كما كنّا يومًا. المهمّ أن أتأكّد من أنّه أنت، أن أنظر إلى وجهك الكبير الذي ما زلت أحفظ تقاطيعه، ذلك الوجه الذي لا يشبه أيّ وجه آخر. ما يقلقني أن تراني غريبة حين نلتقي فلم يعد وجهي كما كان في صورنا القديمة. فأنا كما أنت لم أعد ما كنته، فهل حقًا أصبحنا كائنين آخرين، وعلينا أن نبتكر تقبّل كلٍّ منّا للآخر، أن نبدأ بالتعارف لتأسيس علاقة جديدة تناسبنا؟

أشعر بأنّ الكتابة تعزّز غربتي عنك. ولذلك أتمنّى أن تأتي، سأتقبّلك كما أنت، نعم لقد وطّنت نفسي على تقبّلك مهما تكن. أريد فقط أن أرى روحك التي لا تهرم.

أغبطك وأنت تتنفّس هواء مدينتي عدن، لا أعرف حين تصف بعض ما تتعرّض له من تخريب، أغار عليها وأراها روحًا لا تبلى. صبيّة تضاجع البحر ليلًا ونهارًا بنفس عنفوان الأمس. آآآه كم أشتاق لحرارتها ورطوبتها المحمّلة بذرّات بحرها. وأحسّ بدبيب هوائها في شراييني ليل نهار. عدن لا يتعرّف إليها العابرون كما هم من تناسخوا منها. ولذلك كن حنونًا عليها فهي أنا».

4

وقبل أن ينهي رسالة البندرية فاجأته غزال برسالة بعد طول غياب: «أكتب إليك بعد صمت أيّام، أردت أن لا أشغلك خلالها بحالتي، بعدما أظهرت الفحوص أنّ السرطان قد انتشر في جسمي، ولم يوقفه بتر رحمي. الآلام ياصديقي تنخرني. زاد هزالي بعد أن تناقصت رغبتي في الطعام والشراب...

تردّدت في الكتابة إليك. ثمّ قرّرت أن أكتب إليك لأخبرك بما أنا فيه. لا أخشى أن يأخذني الموت بعد الآن. فقد يكون أرحم من آلام تمزّقني ليل نهار. لا أعرف لماذا يزداد الشوق لإخوتي، أن أراهم وأن أعرف هل أمّي ما زالت على قيد الحياة؟ حنين دفين لأن أرى قريتنا، وأن أزور قبر أبي. لكن قل بصدق، لو كنت هنا إلى جواري فهل كنت ستذهب لدعوة إخوتي، أو تحملني إليهم هناك في قريتنا لأراهم ويصنعوا بي ما يريدون؟

ستذهب بي زوجة المغترب إلى المستشفى غدًا، سأطمئنك بعد عودتي. لا تقلق إن لم أكتب إليك. فقط أرجوك ادعُ لي أن تخفّ آلامي. عدني إذا ما دفنوني أن تزور قبري، سيكون في مقبرة خزيمة. سأنتظر أن تقف فوق تربتي لأشعر بظلال طولك عليَّ، عِدني».

لبعض الوقت ظلّ على مقعده لا يحرّك ساكنًا. يفكّر فيها وقد أمست بدون سند. وجه البورسلان ترحل مبتسمة. البندرية أيضًا، في رسالته، تعدّد له فقدها لزوجها ووالديها حتى ترك أولادها لها وحيدة ومريضة. دمعت عيناه وهو يكتب رسالة لم يعرف لمن يوجّهها بين الثلاث، فكتبها إلى نفسه: «حدّثوني عن الفقد. أحاول إحصاء فقدي، فأجد وجودي برمّته فقدًا متواليًا. قبل أن أكتب هذا قرأت آخر رسالة لفتاة قبل موتها، وفي زيارتي الأخيرة للعيدروس وجدت قبر فتاة فاغرًا، وكأنّ صنعاء وعدن كفّتا ميزان يحملهما عزرائيل مشوّه.

متاريس وحواجز مسلّحة تقطّع أوصال المدينتين. أصوات القذائف تعوي طوال الليل والنهار، تتناحر جميع الأطراف مقابل فتات يُبذر من خلف الصحاري والبحار، يردّدون شعارات تستبيح الحياة باسم الله ومحمّد. وكلٌّ له أعلامه وزوامله. تقاسموا المدن بكتل الخرسانة وخِيش الرمل، وأمسى الجميع يتربّص بالجميع.

لن أتحوّل إلى متذمّر، فعلينا أن نعيش الحياة كما كانت تعيشها غزال، وأن نواجهها كما واجهتها وجه البورسلان».

توقّف عن الكتابة، لشعوره بقرف مفاجئ من حياته. فضّل أن يكون ما كتب جزءًا من رسالة يوجّهها للبندرية: «لم تأتي على ذكر من حملتِها وغادرت اليمن بها، مصيرها، فما زال السؤال عالقًا: أين أصبحت؟ أم هي وهم؟ أتحرّق شوقًا لمعرفة ما أصبحت عليه. هل درست؟ أحبّت؟ تزوّجت؟ أم هي ضمن أولادك الذين تركوكِ لوحدتك؟ هل أخبرتِها بأنّ والدها الحقيقي ليس جيرار؟ أتعجّب أنّك تحدّثتِ عن نواحي حياتك إلّا عنها!

أراني أكتشف الأشياء متأخّرًا جدًّا، فبعد عقود أعرف أنّك رحلت عن اليمن قبل عقود، وأنّك على قيد الحياة. الأمر لا يقتصر على ما بيني وبينك. بل تجاوز إلى نواحٍ أخرى من حياتي. فقد عرفت بعد عودتي إلى قريتي قبل أشهر أنّ زوجتي فسخت زواجنا منذ سنين، لتتزوّج بأخي! وعرفت أخيرًا أنّ بناتي تزوّجن وأنجبن، وأنّ ابني الكبير قُتل وهو يقاتل مع أنصار الله. كلّ ذلك وأنا آخر من يعلم، فأيّ حياة سويّة قد عشتها؟!».

ضغط زرّ الإرسال دون أن يراجع ما كتب!

3

لم يعد يستطيع الخروج، أو التسلّل للبحث عن مقهى نت بعدما أقفلت المحالّ وأقفرت الشوارع وازدادت ضراوة المواجهات. وتوالى سماع انفجارات. وأمسى واضحًا اختلاف دويّ مدافع الدبّابات، عن قعقعة رصاص رشّاشات الاشتباكات الليلية في الشوارع الخلفية. مع تسرّب ضوء الصباح، أطلّ من نافذة الفندق، قلّة من العربات تمرق مسرعة باتّجاه العقبة، المحالّ ما زالت مغلقة لليوم العاشر. لا عابرين. خرج إلى صالة تلفزيون الفندق، قلّة من الروّاد يشكون حاجتهم للطعام، وآخرون يتابعون شاشة عُلّقت على الحائط، تبثّ صورًا لمواجهات عنيفة بين مسلّحي الحراك الجنوبي وقوّات حماية منشآت حكومية. أعمدة دخان تتصاعد من أحياء متفرّقة في عدن. قال أحدهم إنّ صديقًا له هاتفه محذّرًا من الخروج، وأخبره بأنّ الدبّابات تنتشر في شوارع الشيخ والمنصورة والخور، وأنّ عيدروس الزبيدي أعلن في بيان له سيطرة قوّاته على كافّة المعسكرات ومقارّ الدولة في عدن، واسترداد دولة الجنوب، وأنّ فرقًا أمنية كُلّفت بطرد المتسكّعين الشماليين، وملاحقتهم حتى خارج عدن.

عاد شنّوق يتقوقع في غرفته، يقضي ساعات ثمّ يخرج إلى صالة التلفزيون يتابع ما يدور. تبخّرت الآمال باستقرار الوضع وهو يتابع صورًا تبثّها قنوات الأخبار لفرار جموع الناس من عدن باتّجاه لحج وأبين، على عربات تكدّس عليها بشر كثر وجحافل راجلة. الكلّ يفرّ خوفًا من الموت والبطش. فكّر شنّوق في الهروب مع تلك الجحافل. لكنّ سؤالًا ظلّ يتردّد في رأسه: وماذا بعد لحج وأبين؟ خلال وجوده في كريتر تعرّف إلى أحد نزلاء الفندق الذي عرّفه إلى سالم. شابّ له معرفة بطرق التهريب. طلب منه أن يخرج به شمالًا

باتّجاه الحدود السعودية أو العُمانية، فأخبره بأنّ السعودية لا ترحّب بأيّ لاجئ من اليمن، وأنّ من حاولوا اجتياز الحدود هناك تساقطوا قتلى برصاص حرّاس الحدود، ومن نجحوا في النفاذ أعيدوا مكبّلين بعد أن مكثوا في السجون أشهرًا عديدةً، وأنّ السلطات العُمانية تسلك نفس السلوك مع المتسلّلين وطالبي اللجوء، ناصحًا إيّاه بالهروب عبر البحر. أخبره أنّ هناك سواحل أفريقية مفتوحة للفارّين، ومنها سواحل برّ الدناكل.

بعد ليالٍ طويلة من التفكير استطاع أن يقنع نفسه بأنّ البحر خياره. سأل سالم عن مخاطر ركوب البحر. ردّ عليه:

– لكلّ شيء مخاطر.

– صدقت، إذن سأركب البحر.

– أمتأكّد؟ فركوب البحر لا يحتمل التردّد، ويتطلّب إرادة؟

– نعم، حسمت أمري، أريد أن أكون في أول مركب يغادر.

– إذن اسمعني. هناك مركب سيرحل بعد أيّام سرًّا باتّجاه برّ الدناكل، ولضمانة أن تكون على ظهره يلزمك خمسمئة دولار أولًا.

لم تسعه الفرحة بعقد تلك الصفقة. إلّا أنّ سالم نبّهه أنّ أمامه عدّة خطوات ليكون على ظهر القارب، ولذا طلب منه:

– أولًا أن تثق بي، ولا تسألني عن شيء حتى أصل بك إلى شاطئ الأمان.

– واثق بك.

– عبور الشوارع خطر جدًّا. وحتى نصل إلى المكان المطلوب في الوقت المحدّد يلزمنا عدّة نقلات.

– كما تريد.

بداية طلب منه سالم التنكّر بزيّ امرأة حامل ليبدأ بنقله من الفندق عند فجر اليوم التالي عبر الطريق البحري المحاذي لجبل حديد. كان اجتياز الحواجز المسلّحة سلسًا حتى وصوله به إلى بيت في خور مكسر. سبقه إليه بعض الأفراد. وهناك تمنّى عليه أن يعيره جهاز كمبيوتر متّصلًا بخدمة النت لبعث بعض الرسائل قبل المغادرة. كان في نيّته التأكّد من أنّ غزال بعثت بأخبارها، وأيضًا إخبار البندرية بما عزم عليه. وجد من البندرية ردًّا على رسالة له سابقة: «تابعت بخوف أحداث عدن المأساوية. أرجوك أخبرني، هل ما زلت فيها أم رحلت عنها؟».

ردّ عليها من فوره: «لقد قرّرت الهروب إلى الشواطئ الأفريقية».

«قرار صائب. إذن توجّه إلى جيبوتي. ومن هناك تواصل بي لأرسل لك الدعوة لتصل بعدها إلى فرنسا. ستكون الأمور على خير ما يرام إذا ما وصلت إلى جيبوتي».

«لا أريد غير أن أفرّ من هذا الجحيم. أشكركِ على دعوتك، ولا أريد فرنسا».

«هذا أنت، سريعًا ما تظهر على حقيقتك. أدعوك فترفض. ثمّ في رسائلك الماضية تسأل عن ابنتي محاولًا إبداء لهفتك لمعرفة أخبارها، بينما مفرداتك جافّة، ألم تفكّر في اختيار مفردة أخرى؟ ألا تعرف أنّ صيغ تساؤلاتك توحي باللامبالاة والاستخفاف؟ ألم تكتب إليّ في إحدى رسائلك أنّك تتخيّر مفرداتك قبل أن تكتبها إليّ؟ فأين تخيّرك الذي تدّعيه؟

أعترف لك بأنّني أضمرت عدم التطرّق في مراسلاتنا إلى حكاية ابنتي بلقيس، تلك التي رفضتها قبل أن تخرج إلى الدنيا وبعد أن تنفّست الدنيا. مع أنّني أرسلت لك في أولى مراسلاتي صورة التُقطت لها هابطة من السماء بمظلّتها، بعد إكمالها دورة للطيران الشراعي، حيث كانت تعشق الطيران الشراعي والقفز المظلّي.

تسألني عن علاقتها بي. لقد كانت الأقرب إلى قلبي. يا الله يا شنّوق كم كانت سلوتي في غربتي قبل أن آتي بإخوتها. كبرت محافظة على عطفها لي وحنانها، الله كم كانت تذكّرني بنقائضك. فلم تكن تشبهك في شيء، عدا أنّ ابتسامتك هي ابتسامتها، فكلّما حاولت نسيانك أجدك تطلّ من وجهها. وما أكثر ابتساماتها. فبين كلّ ابتسامة وأخرى ابتسامة. في إحدى ابتساماتها انفجرت باكية بين يديها، لتسألني في خوف: ما الأمر، ما الأمر؟ لكنّي لم أجرؤ إلّا أن أحتضنها حتى تهدأ نفسي، وأنا أردّد: سعيدة بك وبحنانك عليّ.

إلّا أنّ ذلك تكرّر منّي، وتكرّر استغرابها لأبوح لها ذات مساء:

– تعاملك معي يشكّكني في نفسي.

– أيّ تعامل؟

– من علّمك حين تنظرين في عينيّ أن تطيلي ابتسامتك؟

أسألها وأسألها، لتردّ على أسئلتي بسؤال:

– ما هذا يا أمّي؟!

اضطُررت وقتها إلى أن أحكي لها ما لم تكن تعلمه. حدّثتها عن بلاد وُلدت فيها. عنك، وعن صفات قليلة تجمعكما. حكيت لها عن بلاد وُلدت فيها هي بلادي. أنصتت لي باهتمام كما لم تنصت يومًا. أريتها بعد ذلك صورًا كثيرة. منها صور لي معك. ثمّ حدّثتني برغبتها في زيارة تلك البلاد. ومنذ تلك اللحظات توالت أسئلتها عن كلّ ما يتّصل باليمن. ولم تكتفِ بأجوبتي، بل ذهبت تبحث على شبكة الإنترنت، لتفاجئني بمعلومات عن أماكن لم أسمع بها، وتاريخ سمعت عنه القليل فقط. ثمّ أمست تجمع ما تجده عن عادات وتقاليد ذلك المجتمع، ومعالم ومآثر تلك البلد، لتناقشني بعدها في تفاصيل لم أكن قد سمعتها من قبل، فأبكي بين يديها، ليزداد حنوّها عليّ. ومع زيادة إحساسها بي أيقنت بأنّ الله منحني إيّاها عزاءً لغربتي.

بحثها في النت قادها إلى التعرّف إلى أناس يمنيين، أصبحوا يراسلونها من هناك، ويزوّدونها بمعلومات وصور جديدة. تعرّفت إلى آخرين من اليمن مقيمين هنا. كنت سعيدة لسعادتها، وي الفاجعتي، لم أتوقّع أن تأتي نهايتها على يد أحدهم.

حين تراني ساهمة أو مكتئبة كانت تسألني: لماذا تعجبك الوحدة؟ الناس يعودون من العمل ويخرجون للترفيه عن أنفسهم وملاقاة المعارف. لماذا لا تخرجين لتبحثي عن أصدقاء تقضين معهم أوقاتًا جيدة؟

إرضاءً لها كنت أخرج. وحين أعود تسألني: هاه، هل من صديق جديد؟

أبتسم راسمة بوجهي علامة النفي، لتبادلني الابتسامة قائلة: أعرف أنّ قلبك هناك.

حينها تنسكب دموعي. تسعى لاحتضاني. توشوشني بكلمات مواسية. أشعر بأنّها تعوّضني حرماني من بلدي وأسرتي. مع الأيّام كانت قد أجادت إعداد أكلات يمنية. تشتري لي ولها ملابس عدنية. حتى إنّها تذهب إلى إحدى المقيمات هنا لتنقش بدنها بالحنّاء.

دومًا كانت تدندن بأغانٍ أحبّها. تضحكني لكنتها، فتضحك لضحكتي. هكذا كانت بلقيس. ربّما حدست بأنّها سترحل مبكرًا، فأرادت أن تعوّضني بيمننة نفسها، أو شعرت كم كانت روحي تتعذّب في غربتها، فسعت إلى أن تكون لي وطنًا بديلًا.

أولادي أحبّهم، لكنها كانت تصنع لنفسها مكانة إضافية في قلبي، تحبّب نفسها إليّ، ولذلك حين فقدتها فقدت الكثير وأحسست بعدها بالضياع.

آه ما أضعفني وأنا أحكي ما وددت إخفاءه. ها أنت مرّة أخرى تدمي قلبي. بتذكّري وأنا أحكي تفوّقها الدائم في دراستها، وقد اختارت دراسة هندسة الديكور. منهمكة في تحصيلها، كانت تحاول ابتكار تصاميم بروح نقوش دور صنعاء وأبراج شبام الطينية. وقد جعلت من إحدى غرف بيتنا مختبرًا لتجاربها. الذين يزورونا كانوا يُدهشون بما تصنعه. ودومًا في دراستها تتدرّج نحو الأفضل، محاولة إرضائي بمعرفة الكثير عن اليمن والجزيرة العربية، منحها ذلك اختلافًا في التفكير وثراءً وتنوّعًا. استمرّت تغوص في اليمننة حتى شعرت بتلاشي غربتي.

تعرّفت إلى شابّ قدمت أسرته من اليمن واستقرّت هنا منذ سنين. وهو مثلها لا يعرف إلّا هذه البلاد، شغوف باليمن من خلال أحاديث والديه. قادتها معرفتها به لأن تتعرّف إلى أسرته. الجميع أُعجب بها. كانت تقضي بينهم أوقاتًا جميلة. تحدّثني بملاحظاتها عمّا تسمعه منهم، وتسألني عن الكثير عنه. حاولت اصطحابي حتى تعرّفني إليهم، لكنّي كنت أؤجّل ذلك. تحوّلت معرفتها بذلك الشابّ إلى صداقة عميقة، فحبّ. أستقبله في بيتي. أسمعهما يتناقشان في اهتماماتهما المشتركة، ومستقبلهما، ويخطّطان لقضاء شهر العسل في اليمن. كنت مطمئنّة عليها عندما غابت برفقته لأسابيع. لم يكن في خاطري أن تأتي نهايتها على يديه. ثمّ إنّها كانت تهاتفني بين وقت وآخر. أسعد لما تشعر به من سعادة. لم أتوقع أن يأتيني خبر وفاتها بعد ساعات من مكالمة أخبرتني فيها عن حبّها لي. جاء اتّصال حمل صوتًا غريبًا يسألني إن كُنت أعرف بلقيس. لحظتها شعرت بانقباض قويّ. رددت على المتحدّث وقد أمسكت بصدري:

– إنّها ابنتي!

ليعاود الصوت بحيادية وبرود:

– لقد تُوفيت لتعاطيها مخدّرات. نرجو حضورك لتتعرّفي إليها.

جثوت أرضًا أصرخ: «ابنتي لا تتعاطى المخدّرات»، إلى أن أغمى عليَّ وأنا أردّدها. ومن يومها يزورني خدر يشطر بدني إلى شطرين، ويفقدني السيطرة على أطرافي.

لا أعرف ماذا أقول لك. لقد أحسست وأنا أسمع ذلك الصوت البارد بأنّني فقدت صوابي. ابنتي التي ناضلت كي تعيش رحلت. ذلك القاسم المشترك بيننا أنا وأنت انتهى، وذلك الوطن الذي أنشأته لي بلقيس هوى، وتأثيثها لقلبي تبخّر. حتى رأيتها مسجّاة بثوبٍ أبيض. لم أصدّق أنّها ميتة. أقترب من وجهها وأهامسها أن تنهض لنعود إلى بيتنا. لحظتها خُيّل إلي أنّها تبتسم. كرّرت همسي، خُيّل إليّ تورّد وجهها. أمسكت بكفّها، كانت دافئة وبشرتها لبنية صافية ولدنة. التفتّ لمن حولي، حاولت أن أصرخ بهم: «لا تواروها، إنّها لا تزال حيّة». لكنّ صوتي خانني. حاولت أن أخرجه وأنا أرفع يديها. لكنّهم حملوني بعيدًا وأنا أتمتم: «لا تدفنوها. لا...».

فقدت حياتي بفقدانها. ولم يعد للحياة طعم. وبرحيلها دخلت في دوّامة من التساؤلات، باحثة عن الحلقة المفقودة، لأدرك أنّني كنت أدفعها للرحيل حين شجّعتها على معرفة بلدي. كم أنا أنانية. أردتها أن تكون نسخة منّي، أن تعيش كما عشت، وأن تحبّ بلدًا ليس بلدها.

لم أشكّ يومًا في أن يكون ذلك الشاب مدمنًا، بل بالعكس تمامًا، كان قلبي مطمئنًّا إلى أنّها اختارت الشخص البعيد عن ذلك الطريق الموحش. والغريب أنّها لم تكن تخفي عنّي شيئًا، فلماذا لم تحدّثني يومًا عن تعاطيه وتعاطيها وقد تجاوزت الخامسة والعشرين؟! وها أنا ما زلت أبحث، من أين جاءها الموت. إلى أن جاء تقرير التشريح بأنّها جرّبت فقط وجسمها الرقيق لم يحتمل مبالغتها في التجربة!

بعد رحيلها، شعرت بالموت يتسرّب إلى حياتي، واحتلّت روحي نوبات اكتئاب. فكّرت مرّات في الانتحار، لكنّ شجاعتي كانت تخذلني في آخر اللحظات. لأتذكرّك وأمست مساحة تفكيري بك تتّسع، ثمّ شغلني البحث عن وسيلة للوصول إليك.

وها أنت تلوم تذمّري وحنقي، أتفهّمك، فأنت لا تعرف مدى فقدي. إنّها ابنتي التي فقدت طعم الحياة من بعدها، بعد أن صنعت من روحها وطنًا. لم يملك أحد عطفها وإحساسها بغربتي. وكما تقول بأنّك لم تعد تعرفني، برحيلها لم أعد أعرف نفسي. وكأنّ القدر تآمر عليَّ باقتلاع ما بقي لي من جذور. واليوم أحاول أن أستردّ شيئًا من رائحتها. أن أستردّك. لكنّك دنيء حين تعرّي

روحي. أعرفك حقيرًا حين ترفض دعوتي. فماذا تريد منّي؟ أنت لم تعش إلّا لنفسك. لا تعبأ بأحد. اذهب عنّي. لا أريدك. ولا أريد أحدًا، أيّها الحقير!».

2

كتب القليل من الكلمات، يدعوها فيها لأن تشتمه، أن تقول ما تريد إن كان هذا يريحها، مؤكّدًا لها أنّ سعادته في سعادتها. ثمّ أوضح لها أنّ الحياة بقربها ستكون صعبة وهي بذلك المزاج، وهو الباحث عن الأمان. ثمّ ضغط على زرّ الإرسال، ليفاجأ برفض قبول الإرسال. كرّر من دون جدوى. ذهب باحثًا عن صفحتها، فلم يستجب محرّك البحث، حينها أدرك أنّها حظرت التواصل به.

وليعوّض عن إحساسه بالخيبة ذهب باحثًا عن غزال، لعلّها وفت بوعدها وأرسلت تخبره عن نتيجة زيارتها الأخيرة للمستشفى، وعن نصائح الأطبّاء. انتظر لكنّها كالعادة لم تردّ.

نهض يردّد: «ضاقت الأرض بما رحبت. ولم يبق لي إلّا البحر. البحر. لا ملجأ إلّا إليه».

خلال اليومين لوجوده في بيت خور مكسر جلب سالم سبعة رجال وخمس نساء وبعض الأطفال، كان يأتي بهم بين ساعة وأخرى. مع نهاية النهار الثالث اصطحبه سالم وثلاثة آخرين مودّعًا خور مكسر، مخترقًا شارع الجسر البحري باتّجاه جولة كلتكس، أصيب برعب وهو يرى عدّة مدرّعات معطوبة على طرف الطريق، ثمّ جثثًا بملابس عسكرية ملقاة على رصيف يلامس البحر. بينما كان يتابع سفنًا تدخل وأخرى تخرج من ميناء عدن، يردّد جبل شمسان صدى أصوات أبواقها، كان يحاول التخلّص من خوف يمضغه من أن يقع بأيدي مسلّحي الحواجز المنتشرة. استدار به سالم حول جولة كلتكس ليتّجه شرقًا باتّجاه منطقة الحسوة، محاذيًا البحر، وهناك أدخله ومن معه في كوخ صيّادين من سعف النخيل، لينطلق بهم من جديد قبيل غروب الشمس، حتى وصل بهم إلى مدينة العمّال، عدن الصغرى، ومنها جاوروا سلسلة جبال جرداء، ظنّ أنّ

سالم يسير به دون هدى. سأله ليردّ عليه باسمًا: «لا تقلق فهذا ملعبنا، ونعرف كلّ شبر فيه». عاد إلى صمته وقد اقترب بهم من البحر عبر سباخ رطبة، خُيّل إليه أنّ ذلك الطريق بدون نهاية، لم يكن من أثر للحياة غير بحر إلى شمالهم وكثبان رملية إلى يمينهم: – اقتربنا.

قالها سالم بمرح وكأنّه يدرك قلق شنّوق وشكوكه.

– ممّ اقتربنا؟

– من المرسى.

لا يرى لسانًا رمليًا ممتدًّا حتى عمق البحر. ثمّ قال بصوت هادئ وكأنّه يحدّث نفسه: – ألا ترى أنّه أرحم من البشر؟

ردّ سالم متسائلًا:

– من تقصد؟

– البحر!

– صحيح، لكنّه غدّار أيضًا.

عاد إلى صمته وترقّبه.

سرعان ما ظهرت مجموعة من القوارب تجاور عرائش متهالكة على شاطئ ناصع البياض، وبدا الأفق ساكنًا لزرقة غامقة وهدوء إلّا من أصوات تلاطم الأمواج وأصوات النوارس الطافية فوق الريح. أوقف سالم سيّارته بقرب شعاب أشجار مانغروف تمتدّ حتى أعماق الماء: – ها قد وصلنا، يمكنكم النزول.

هبطوا لتقترب المجموعة من أكواخ عديدة لصيّادين.

راقه هدوء المكان، حركة الصيّادين حول قوارب متجاورة، وخلفهم قارب قُلب عاليه سافله، انهمك نفر في طليه. أطفال يلاحقون كلابًا هرمة.

عمّ الظلام، وبدأت نسائم الليل تلطّف أحاسيس من تجمّعوا حول رجل تجاوز العقد الثالث، نحيل بسمرة دكناء، يتحدّث منقّلًا ناظريه بين من حوله. يشرح المطلوب من المسافر إلى برّ الدناكل: الطاعة والهدوء، ثمّ اختتم كلماته: المركب سيمخر البحر مغادرًا عند منتصف الليلة.

1

بين ساعة والتالية يصلون بأعداد أخرى، يلحقونهم بمن سبق ليتجمّعوا وسط ظلام أفق مفتوح. وشوشة الموج وهمس وبكاء طفل هنا أو هناك تعلن عن وجودهم. ظلّ شنّوق طوال ساعات انتظارهم يراقب ذلك العالم البعيد المدلهمّ بسواده، ضاقت سعة الأفق بصخب كتوم لنساء وصغار لا تُرى ملامحهم، ورجال كثر لا ينطقون إلّا قليلًا. وقبيل أن ينتصف الليل خُيّل إليه رؤية شبح قارب كبير يقترب. أعقبه ارتفاع أصوات تحمل فوانيس شحيحة، وآخرون يلوّحون بسياط طويلة مشيرين للجمع بأن يستعدّوا لركوب المركب، وقد هرع عدد منهم لتنظيمهم في صفّ باتّجاه البحر. شبح المركب يتّضح كأنّه كائن خرافي يهتزّ فوق سطح الماء. بد الصفّ طويلًا. وبدأت السيقان الأولى تغوص كمن فقد أصحابها شغف الحياة، يتابع شنّوق خطوه باتّجاه المركب. أشار عليه أحد المهرّبين بسوطه أن يسرع الخوض خلف من سبقوه، يرتفع الماء حتى تجاوز خصره، مع صعود أول الصفّ على سقالة خشبية تمتدّ من الماء حتى حافة المركب.

يبتلعهم جوفه كصفّ نمل. أجلسوه إلى جوار العشرات من النساء والأطفال والرجال. رُصّوا بصمت في قاع رطب، كما لو كانوا أكياسًا من رمل. هنا بدأ شنّوق يفقد إحساسه بالوقت والمكان، غير مستوعب ما هو فيه، يتذكّر مرّات شتائم البندرية، طلب غزال أن يعدها بزيارة تربتها، زوجته وهي تقف لتطرده من القرية، ابتسامة وجه البورسلان الأخيرة. أغمض عينيه في قعر المركب ولم يعد يرى مجموعة المهرّبين يتحرّكون في تناغم على أطراف المركب يلوّحون بسياط طويلة فوق رؤوسهم. فقط أنفه يستنشق روائح تبعث على الغثيان. ظلال مهرّبين يواصلوا رصّ من يهبط قعر القارب حتى صار القاع

كتلة واحدة. ارتفع صوت أحدهم يأمرهم بقراءة الفاتحة بصوت جماعي. تباينت الأصوات بداية الأمر ثمّ انتظمت في تراتيل جنائزية. رفع أحد المهرّبين صوته: «على الجميع عدم الحركة والثبات في أماكنهم. حتى يحافظ القارب على توازنه». ثمّ صمت قاذفًا فوق رؤوسهم بأكياس بلاستيكية معاودًا صوته: «وزّعوا هذه الأكياس بينكم. ستحتاجون إليها لقضاء الحاجة، خاصّة صغار السنّ. كلّ فرد يتصرّف بحاجاته في محلّه، دون حركة».

اهتزّ المركب بعنف بعد تلك التوجيهات الزاجرة، ثمّ بانسيابية غريبة طفا مبتعدًا نحو ظلمة المجهول. فتح شنّوق عينيه، تمنّى رؤية ما يحيط بالقارب وهو يبتعد، أن يكتشف أفقًا لم يرَ إلّا ظلمته، لكنّه ظلّ رهن أوامرهم مثبّتًا في القاع، فقط يرى أشباح من على أطراف المركب فوق رؤوسهم.

تفتّت الصمت وانتشر همس ما لبث أن تحوّل إلى كلام مسموع. دُهش أن يكون بين الفارّين عدانية، بعد أن ميّز لهجاتهم. يصرخ أحد المهرّبين ملوّحًا بسوطه فيعاودون الصمت، إلّا من أنين المحرّك.

طالت ساعات الليل الأخيرة حتى ظنّ شنّوق أنّه لا نهار في البحر، لكنّ الشمس بدأت بتغيير لون السماء بداية بغسق أرجواني، ثمّ بضوء يبهر الأبصار، لتظهر سماء تلتصق بالماء، تساوت أبعادها وألوانها. لا شيء غير زرقة تلتحم ببحر يهجع بسكونه. تعرّف شنّوق إلى ملامح المهرّبين مندهشًا لقدرتهم على التنقّل بخفّة متشبّثين بحافات القارب طوال الوقت، يتضاحكون في ما بينهم، بينما تصطبغ وجوههم بالشراسة حين يوجّهون سياطهم نحو الركّاب.

يحاول من في القاع التحرّك ومد سيقانهم، ترقبهم عيون حاملي السياط، التي لا تلبث أن تقرقع فوق الرؤوس زاجرة، تتبعها صرخة أحدهم: «ألم نحذّركم عدم الحركة؟ القارب سيفقد توازنه وستغرقون». صوت آخر: «من أراد تكرار الحركة فسنتكفّل نحن بقذفه إلى البحر».

تتصاعد حرارة الشمس كلّما ارتفعت فوق الرؤوس، لتتزايد معها حشرجة أفواه تفرغ حموضة أصحابها هنا وهناك، لتنتشر روائح خانقة ممزوجة بملامح محتضرة. أغمض شنّوق عينيه متخيّلًا برّ الدناكل الذي سيصل إليه كما أخبره سالم. حدّثه عن بلاد فيها أشجار وافرة الفروع سامقة الارتفاع، لا يصل إلى ثمارها سوى الطيور، وسكّانها لا يزالون يسيرون عرايا، وأسماك شواطئها تطير بأجنحة فيروزية، وطيورها تغوص في أعماق الماء، وأنّها خالية من

الميليشيات ووكلاء الله. ظلّ شنّوق يتخيّل تلك البلاد، وكيف سيعيش فيها، ليتذكّر دعوة البندرية، ووعدها له بأنّها ستسهّل له السفر إليها إن وصل إلى جيبوتي. يتذكّر أنّه سمع عن جيبوتي الكثير، واعدًا نفسه إن عرف الطريق إليها من برّ الدناكل أن يعاود التواصل بها لعلّها ألغت الحظر... ظلّ يفكر حتى انهالت على مسامعه صيحات متتالية، فتح عينيه ووقف في محلّه تحت زجر المهرّبين، ليدرك أنّ تلك الصيحات تتعالى من قارب قادم من الاتّجاه المعاكس، اقترب حتى حاذاهم، رؤوس أفارقة، ويتّجه نحو شواطئ عدن، وقف مهرّبو القارب الأفريقي رافعين سياطهم وأصواتهم ردًّا على تحيّة سياط مهرّبي قاربهم. كان ذلك مع قرب تواري قرص الشمس خلف سحب كثيفة. أعادت السياط من وقفوا إلى أماكنهم على قاع تجمّعت عليه موادّ الطرش ومخلّفات آدمية أخرى. لم يعد شنّوق يفرّق إن كانت تلك العتمة المفاجئة هي لتلبّد السحب أم لأنّ شمس البحر تغرب سريعًا. تلك الظلمة تحوّلت رويدًا رويدًا إلى سواد حالك. تلاها هزيم رعد متتالٍ، يصاحبه توهّج وميض بروق نارية سريعة الانطفاء. يرى شنّوق وجوه من حوله بأفواه فاغرة ونظرات تائهة. ما لبث أن ازداد هيجان البحر لتتقاذف القارب أمواج عملاقة. لم يعد يرى المهرّبين على الحواف. صراخ يتقطّع لعنف هزيم الرعود. نحيب وعويل جماعي، وقد طغت ألوان لامعة على الكون. غمر الماء قاع المركب وبدأ يرتفع. لا يعرف شنّوق هل يأتي من تحتهم أم من فوق رؤوسهم، حتى طفت مخلّفات وأكياس وبقايا أطعمة وحاجيات قاع المركب. لم يعد أحد يعرف هل هم يطفون داخله أم خارجه؟ أغمض شنّوق عينيه مرّة أخرى متشبّثًا بما حوله لترتسم له ابتسامة وجه البورسلان. كومة عظامها. كلمات غزال تدعوه لزيارة قبرها. شتائم البندرية. وجه زوجته المتجهّم...

يحاول الصراخ وقد غمره طوفان لا يميّز إن كان من السماء أم طوفان البحر. تداخلت أصوات غريبة. يفتح عينيه فلا يرى غير شريط ذكريات عمره يلفّ سريعًا. صور من ضوء لوجوهٍ وأمكنة متتالية كوميض سريع. أصوات يعرفها: أمّه. والده. قانح. ليقة أخته. الفقيه الأعور. صور يتذكّرها: جبال قريته. المبنى د. محطّات وأشخاص يتداخلون. روائح. وجوه أناس لا يعرفهم. لم يعد يميّز، هل أمسى في أعماق الماء أم في السماء؟

لا يعرف كم انقضى من وقت قبل أن يفتح عينيه. خُيّل إليه أنّه يرى خيوط أضواء ويسمع صخبًا متداخلًا. لم يعد من ماء وبروق. لا يعرف ماذا جرى، أو أين هو؟ ولبعض الوقت حاول استنهاض حواسّه، ليبدأ بتمييز جثث متناثرة على الرمال حوله. سيقان تهرول هنا وهناك. أيادٍ تمسك بمعصميه وساقيه ويُرمى فوق جثث أخرى مبلّلة. حاول تحريك أطرافه. حاول أن يحرّك شفتيه، أن يقول شيئًا. شَعر بأنّ ذلك الشيء الذي وضعوه عليه يتحرّك. خمّن أنّه على متن سيّارة. لم يمضِ وقت طويل حتى توقّف الاهتزاز وعادت خيوط أنوار وهمهمات، ثمّ امتدّت أكفّ تسحب من حوله واحدًا بعد الآخر. حتى جاء دوره. جاهد برفع كفّيه. أن يخرج صوته. خرجت منه آهة وهو يُسحب أرضًا على تربة رطبة، ثمّ دوّت منه صرخة قصيرة. توقّف الساحبون يسلّطون أضواءهم على وجهه، ليرفع أحدهم صوته بكلمات قليلة غير مفهومة. ردّ عليه صوت آخر:

– وماذا يعني لنا أن يعيش أو يموت. هيّا احمله ودعنا نُنهِ مهمّتنا.

رفع شنّوق كفّيه يحاول قول شيء. سمع صوتًا آخر:

– ألا تراه يتحرّك؟ لا يمكن أن أسهم في قتله.

ردّ صوت الثاني بكلام لم يفهمه. ثمّ حسم الأول الأمر:

– لن أتركه.

0

دخل شنّوق في غيبوبة من جديد. بعد وقت لا يعرف طوله استفاق ليجد نفسه بين أناس لا يفهم ما يرطنون به. وجوه دكناء. لكنّه يسمع من يتكلم العربية ليعرف أنّهم من كُتبت لهم الحياة بعد عاصفة جرفت وأغرقت عددًا من مراكب محمّلة بمهاجرين، وأنّه أمسى في مخيّم للّاجئين من دون أن يعرف أيكون ذلك البرّ هو برّ الدناكل، أم شواطئ عدن.

شكر

للأصدقاء: الروائية عبير العطار، الأديبة إلهام نزار، الشاعران عبد الوهّاب الحراسي، ومحمد الأشول.

كما هو الشكر الجزيل للناقد الدكتور عصام واصل،

من أعطوا هذا النص الكثير من وقتهم، فكانت لملاحظاتهم وتصويباتهم الأهمّية البالغة.

الشكر أيضًا للأستاذة القديرة رنا حايك من أسرة دار هاشيت أنطوان لجهدها النوعي، وإلى جميع من لهم صلة من أسرة نوفل.